محمود مهدي الإستانبولي

ابن تيمية

بطل الإصلاح الديني

المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

المكتب الإسلامي

ابن تيمية

بطل الإصلاح الديني

بقلم
محمود مهدي الإستانبولي

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

"وَاللهِ مَا يَبغض ابنَ تَيمِيّة إلاّ جَاهِل
أوصَاحِبُ هَوىً!!"

قَاضي قضَاة الإسلَام

السُّبكي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

من العسير على الأكثرية الساحقة من علماء الدنيا ان يجابهوا الناس بانكار ما ألفوه من البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة التي يظنونها من الاسلام ويشقون في سبيلها ، والاسلام بريء منها ويحاربها بشدة !

ان أمثال هؤلاء الجبناء ، ليسوا علماء باعتقادي ، وان حشدوا أدمغتهم بكميات هائلة من الكتب والرسائل .

ان العلماء هم الذين وصفهم الله ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ وانما يخشى الله من عباده العلماء ! ﴾ .

اما الذين يخشون الناس ، فهم حثالات بشرية وأدعياء ومسرحيون ، همهم حطام الدنيا ، وليس لهم في الآخرة من نصيب ! .

انهم دوائر معارف سيارة ، تصلح للبيع والشراء ، وليس للهدم والبناء !! .
انهم حريصون على عواطف العوام ، راغبون في تأييدهم من اجل منصب نالوه او معركة انتخابية سيخوضونها ، او قبلات للأيدي سيحرمون منها !

انهم مستعدون لاخفاء تعاليم الاسلام وتضليل العامة والتعمية عليهم بسبب هذا التملق الذي لا نهاية له ، وهذا الاسترضاء البغيض لا يجتمع مع الايمان الصحيح في قلب مؤمن . !

انهم حريصون على ثناء الناس ، وإذا نقدوهم حرموا هذا الثناء ! وما علموا ان من اثنى عليه الناس جميعاً فهو منافق ! وإن المؤمن لا يكمل إيمانه حتى يستوي عنده المدح والذم في سبيل الحق ! ولا يكون العالم عالماً حقاً حتى يبين للناس ما نزل إليهم .

ألم يأخذ الله ـ تعالى ـ المواثيق من العلماء ان يبينوا الحقيقة ؟.
يا أيها الناس !

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون ﴾ .

في الصفحات التالية آراء حرة وأفكار صريحة وحقائق واضحة تكشف للناس عن أضاليل حسبوها عبادة ، ووثنيات ظنوها ولاية ! فاجأتهم بها مفاجأة ، غير حاسب لرضاهم او بغضهم حساباً ولا وزناً ، كل ذلك من اجل نصرة الحق ، وتحقيق سعادة المسلمين ، فانه ليس اخطر على الناس من الدين المشوب بالأوهام ، والأساطير ، والبدع ، لذا يسارع الدعاة الى الاصلاح الديني من اجل تطهير الاسلام ، مما لحق به من هذه الأوهام والبدع والأساطير لتعود له نقاوته وترجع له قوته لينطلق بأتباعه كما انطلق من قبل ، في ميادين العظمة والمجد والخلود !

حقاً اننا نعالج أمراً ـ كما قال بعض المصلحين : لا يعين عليه الا الله ، قد فني فيه الكبير وشاب عليه الصغير ، وهاجر الاعرابي ، يحسبونه ديناً لا يرون الحق غيره ! لذا كانت مهمتنا شاقة صعبة ، واصلاحاتنا خطيرة غريبة ، سائلين الله سبحانه ان يحقق فينا في هذا الكتاب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « طوبى للغُرباء ، أُناسٌ صالحون في أُناسٍ سوء كثير ، من يعصيهم اكثر ممّن يُطيعُهم » رواه احمد وسنده صحيح .

ولا بد في خاتمة هذه الكلمة الصريحة من الاعلان بانني لم آت أمراً مبتكراً ، انما كنت ناقلاً ، ومتبنياً ما نقلت ، واذا قسوت في بعض نقدي ، فذلك لأني وجدت حقيقة يغطي الخرافيون وجهها المضيء ، وضلالاً يراد فرضه على الاسلام العظيم ، فتملكتني احياناً بعض سورة الغضب المشوب بالألم ، فأخرجتني عن جادة الاعتدال ، غيرة على ديني من الذين يزعمون انهم حجته واولياؤه ، ﴿ وما كانوا اولياءه إن اولياؤه الا المتقون ﴾ العالمون . ومهما كان من امر هذه القسوة ، فانني لست مغرضاً فيها .

انني في طريقي الى العقد السادس في السن التي يؤمن بها الكافر ويتوب الفاجر ، فكيف أغش وكيف اجادل في الباطل ، والله ـ سبحانه ـ يطلع على بواطن الأفئدة وما تخفي الصدور ؟

والمولى ـ تعالى ـ أسأل ان يشرح صدور الناس لما في هذه الصفحات من الحق لنتعاون معاً في سبيل تحقيق دعوة الاسلام الصحيحة التي يتوقف عليها بناء نهضتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . كما أسأله ـ جل شأنه ـ ان يلهم الغيورين من المصلحين الى نقد ما كتبت نقداً علمياً يعتمد على الحق وحده .

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » .

محمود مهدي الإستانبولي

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الجيل الجديد
الى طلاب الحقيقة
الى رجال الاصلاح الديني

أقدم
هذه الصورة العظيمة للمصلح الكبير
شيخ الإسلام ابن تيمية

فإنهم واجدون فيها:
شعلة لا تنطفىء
وقوة لا تلين
ودرساً لا يمحى
وخلقاً عظيماً
وجهاداً جباراً

رغبة منهم في استثمارهم وتركهم في غفلاتهم يعمهون فلا هم موقظونهم من ضلالهم خشية على امتيازاتهم ، ولا هم يدعون المصلحين يقومون بدورالإصلاح ، فاثاروا الغوغاء والرعاع الذين يعتمدون عليهم في محاربة المصلحين واختلقوا عليهم مختلف الافتراءات والأكاذيب والتهم بالكفر والزندقة ! .

لم يبال الامام ابن تيمية بهذا الهجوم فكان يحارب البدع والمنكرات بالحماسة التي كان يحارب بها اعداء الله ، وذلك لما لهذه البدع من آثار سيئة ونتائج خطيرة على المسلمين نحن ذاكرون بعضها :

١ ـ ان في عمل البدعة ترك ما امر الله ورسوله به ، وبذلك يحرم المسلمون النصر والتوفيق اللذين وعد الله سبحانه عباده الطائعين .

٢ ـ التمسك بسفاسف واوهام على انها من الاسلام ، والاسلام بريء منها ، فتثير الشكوك والشبه من الدين نفسه ، وتبعث على النفور منه .

٣ ـ تؤدي اكثر البدع الى اضاعة الثروة القومية ، وتسبب لفاعلها خسائر مادية كثيرة ، وهو يحسب انه يحسن صنعاً ، لنأخذ مثالاً على ذلك بدع المآتم والجنائز .

٤ ـ اضاعة طاقة المسلم وصرفها عن الابداع في امور الدنيا التي امر بوجوب الابتداع فيها . والغريب ان المبتدع حريص على الابداع في الدين لا في الدنيا !! .

٥ ـ ارتكاب المسلم للحرام وقت قيامه بالبدعة ، ما دامت كل بدعة ضلالة ، فيدخل في مضمون الآية الكريمة : « قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » .

٦ ـ ان كل بدعة تطرد سنة وتطمس معالم الاسلام .

٧ ـ صعوبة تطبيق البدع ، فينفر المسلمون منها ظانين ابتعادهم عن الاسلام ، فتوحي اليهم نفوسهم الوقوع في الخطيئة ، وهم ابرياء منها ، مما يسبب اضطراباً في الشخصية .

٨ ـ ترك مبادىء الاسلام القوية والمفيدة ، والتمسك بالأوهام والخرافات ، مما يسبب ضعف مقاومة المسلمين وسرعة انهيارهم امام العدو .

٩ ـ اختلاف المسلمين في النسق ، مما يسبب خلافهم ونزاعهم وتفرقهم الى طوائف وفرق متباينة ، ولا يخفى ان توحيد العبادات بين الناس خليق بتوحيد الأهداف والميول . . والى هذا المعنى يشير ابن تيمية في رسالة الفرقان : « فاذا ترك الناس بعض ما انزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا امرهم

أنشد الإمام نجم الدين بن سليمان بن عبد القوي قصيدة في الثناء على الإمام ابن تيمية جاء فيها :

يا أهل تيمية العالين مرتبة ... ومنصباً فرع الأفلاك تبيانا
جواهر الكون انتم غير انكم ... في معشر أُشربوا في العقل نقصانا
لا يعرفون لكم فضلاً ، ولو عقلوا ... ليصيروا لكم الأجفان اوطانا
يا من حوى من علوم الخلق ما قصُرت ... عنه الأوائل مُذ كانوا الى الآنا
إني لأقسم ، والاسلام معتقدي ... وإني من ذوي الايمان ، أيمانا
لم الق قبلك إنساناً أسَرُّ به ... فلا برحت لعين المجد إنسانا

وأنشد الشيخ شمس الدين ابو الثناء المنبجي في الثناء على الامام ابن تيمية قصيدة اخترنا منها :

يا عالماً جلّ عن ضد يضاهيه ... وفاق اقرانه فيما يعانيه
يا ذا الفضائل ، يا زين الأماثل ، يا ... مُردي المماثل ، يا مُوهي مناويه
يا من إذا رمت ان أحصي مناقبه ... نظماً ونثراً وأنشيه وأرويه
حُصرت لولا سجاياه تهذبني ... لما ظفرت بمعنى من معانيه
يا عمدة المقتدي حقاً ومقنعة ... فيما يروم ، وكافيه ومغنيه
أبديت تعجيز اهل النظم فاعترفوا ... بالعجز عن كنه ما اصبحت تبديه
لله كم ميت علم انت تنشره ... من بعد ما كادت الأيام تطويه
يا كاشف المشكلات المعضلات لنا ... بأبلج مستنير من فتاويه
يا من ابى مقولي إلا مدائحه ... ولو مدحت سواه كنت أعنيه[1]

ان العالم الديني الحق ـ خلافاً لكثير من العلماء ـ لا يعيش بين الكتب ، مكتفياً بالنسخ والتأليف فحسب ، ناظراً الى الناس من برجه العاجي ، غير مهتم في خوض معركة الاصلاح الديني ، ومحاربة من يعبث بالدين ، او يضيف اليه البدع والأوهام .

---

(١) ـ العقود الدرية للامام الحافظ محمد بن عبد الهادي .

ان العالم الديني الحق لا يتهرب من ميدان النضال الفكري في سبيل الدفاع عن الحقيقة الجريحة والحرية المهددة ، بل يتولى مكان القيادة ويكون من رواد النهضة وتغير على الباطل !

ان العالم الديني الحق لا يعيش في المسجد فقط ، بل يلبي داعي الجهاد ، فيكون في الطليعة على الدوام ، ولو قاده ذلك الى العذاب والسجن والموت .

ان العالم الديني الحق لا يعرف العزلة ، ولا يصرفه حب الوظيفة والمال عن القيام في وجه الظلم والظالمين ، مغمضاً عينيه ومغلقاً اذنيه عن نداء الواجب !

ان العالم الديني الحق بعيد النظر دائم التفكير ، يتحسس بمبلغ خسارة الأمة من ابتعادها عن اسلامها ، وانصرافها عنه الى البدع والاوهام التي تجلب الويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والعقلية ، فتذل نفوس المسلمين وتضعف شخصياتهم ، ويصبحون عرضة للاهانة ، فيطمع فيهم العدو المتربص ويغدون نهباً مقسماً .

ان العالم الديني الحق قل ان يجود بمثله الزمان ، يبعثه الله ـ تعالى ـ من حين الى آخر ليجدد للأمة أمر دينها ويعيدها الى اسلامها الصحيح فيكون مثله مثل النجم الهادي في الليالي الحالكات .

وقد من الله ـ سبحانه ـ على هذه الأمة في القرن السابع الهجري بمثل هذا العالم الحق ، فكان كالطود الأشم في وجه الاعاصير ، وكالشمس المضيئة في وجه الظلام الداجي .

جاء هذا العالم في وقت عم فيه الجهل المركب ـ وهو العلم بالشيء على خلاف الحقيقة ـ انتشر هذا الجهل الخطير ، وخدع الاغرار ، وكثيراً من رجال الحكم ، وشرد الفكر ، ومد اخطبوطه في اعناق المصلحين ودعاة التجديد يحاول خنق أنفاسهم .

وحملة هذا الجهل المركب وصفهم الله ـ عز وجل ـ في الآية الكريمة فقال : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً !! ﴾ .

لقد تلوثت ضمائرهم ، فليس فيها للحق والاخلاص مكان ، وهم لا يتقاعسون عن تزوير الحوادث ونسج الوشايات وقلب الحقائق في سبيل الوصول الى قهر رجال الاصلاح الديني الذين يكشفون عن جهلهم ويفضحون انتهازيتهم ، ويميطون اللثام عن جرائمهم !

والمصلحون لا يحتاجون الى جهد كبير من اجل دحض مزاعم هؤلاء الخفافيش الذين يؤذيهم نور الحقيقة ، فهم سرعان ما يتساقطون كما تتساقط الفراشات على ضوء المصباح ، لولا انهم يحتمون بالغوغاء والبسطاء من بعض رجال الحكم والعامة الذين سمموهم بخرافاتهم وغرروهم بعمائمهم الشبيهة بالابراج ، وأكمامهم الشبيهة بالاخراج !

في هذا الجو الحالك المكفهر ، نزل ابن تيمية ـ موضوع كتابنا ـ وحده الى الميدان ، وسنرى في الصفحات التالية صورة للمعركة بين العلم الصحيح ، وبين الجهل المركب ، ولمحة عن الصراع بين الحق والباطل ، كما نرى صورة للعالم المتسامح والبطل المجاهد الذي يترك محراب العلم اذا دعا داعي الله ، ليلتحق بميدان الحروب ويحقق الظفر لأمته .

كان المسلمون قبل عهد الامام ابن تيمية تائهي العقيدة قد ضاعوا بين آراء المعتزلة وآراء الاشاعرة ـ كما سنرى ـ وقد اقتبسوا اغلب أفكارهم من فلسفات اليونان والهند وفارس وأسسوا ما سموه بعلم الكلام واطلقوا عليه اسم التوحيد ، وفيه كل شيء الا التوحيد ! وقد نهى عن دراسته جميع أئمة المذاهب واعتبروه سبيلاً للكفر والتضليل !! .

فجاء الامام ابن تيمية ووضع شعلة القرآن ونور السنة على طريق المسلمين ، وهداهم الى التوحيد الصحيح ، والايمان بصفاته تعالى دون تأويل ولا تشبيه حسب عقيدة السلف وهم وحدهم ـ ومن تبعهم باحسان ـ الفرقة الناجية التي تحدث عنها الرسول ﷺ بقوله : « ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار ! وواحدة في الجنة ، وهي : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم واصحابي »[1] .

وهكذا انقذ شيخ الاسلام ابن تيمية المسلمين من الضلال والزيغان كما أنقذهم من الذل والاستعمار ـ كما سنرى ـ وقد كافأه الجامدون والمبتدعة والمتصوفة مكافأة سنمّار ، فاضطهدوه واتهموه بضعف في الدين ومروق من الاسلام ، وهم ـ في الحقيقة ـ الضعفاء في الدين والمارقين من الاسلام لو كانوا يعلمون ، ووشوا به الى الحكام ونسجوا حوله الافتراءات حتى سجن في كثير من ايام حياته ، ومات سجيناً في قلعة دمشق . كما هو مذكور مفصلاً في صفحات هذا الكتاب .

ولو أصغى هؤلاء الحكام لكلامهم لكان مصيره التشريد والقتل شأن الجناة والسفاكين ! وما نقم منه هؤلاء الشيوخ الا انه دعاهم لما يحييهم : دعاهم الى الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيهم ونبذ الخلافات المذهبية والطرق الصوفية والفرق الضالة .

---

(١) ـ رواه ابو داود الترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه .

كرسي الإمام ابن تيمية

ما أجدر علماء المسلمين بجعل كرسي للإمام ابن تيمية،رحمه تعالى وأجزل ثوابه،في كثير من كليات جامعاتهم ، ليكون اماماً وقدوة للطلبة في الثبات والشجاعة والدأب على العلم والصبر على الجهاد ، وقد وُجد في عصر نكسة هاجم خلالها التتار كثيراً من اجزاء العالم الاسلامي كما رأينا في غير هذا الموضع ، حتى كادوا يهددونه بالفناء ، فصبر وصابر حتى حوّل النكسة الى نصر .

قام بوجه التتار ـ كما نقوم نحن اليوم في وجه اسرائيل والاستعمار ـ فاستطاع بإيمانه وعبقريته ان يوحد بين الجيش المصري والجيش السوري للقضاء على التتار الذين كانوا يهددون الحضارة كلها والعالم بأسره ، فقد كان الغربي نفسه في اوروبا يخشى ان يصطاد على سواحل بلاده خشية من التتار الذين أرعبوا الدنيا وقد اشترك الامام ابن تيمية بنفسه في هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسناً حتى تم له النصر .

كما قام ابن تيمية في وجه الفلاسفة المسمين بالمسلمين ، وقد أبدعوا في ميادين العلوم ولكنهم أساؤوا للأمة الاسلامية إساءة كبرى بنقلهم فلسفة اليونان الوثنية المنحرفة وتأويلهم للقرآن من اجل ان يتفق معها . فضلوا وأضلوا وسببوا إنقسام المسلمين الى فرق متنازعة وقد قال هذا الامام : « إن الله لن يغفل عن الخليفة المأمون في نقله وترجمته هذه الفلسفة الى المسلمين » .

كما وقف كذلك الامام ابن تيمية ضد الخرافيين الذين زيفوا الاسلام وأبعدوا المسلمين عن قرآنهم وسنة نبيهم بما أدخلوه من خرافات عليه ، عكرت صفاءه وشوهت جماله وعاقت انتشاره .

فدعا هذا الامام بقوة وحماسة الى توحيد المذاهب على ضوء القرآن والسنة ليكون العالم الاسلامي قوة موحدة في وجه اعدائه . وانقذ الاسرة الاسلامية من التشرد بسبب ما أدخل على هذا الدين من نظم خاطئة في الطلاق وهي بعيدة عن روح الاسلام السمحة .

وقد ربى هذا الامام الأمة الاسلامية تربية قوية بإعادتها الى نبع الاسلام الصافي وحال بينها وبين الدجاجلة والمشعوذين من أدعياء الدين الذين قاوموا اصلاحاته عن طريق الدسائس والافتراءات .

لقد أنكرت فضله حتى الجامعات الاسلامية وكان من الواجب ان يدخل بقوة وترحاب في منهاج كلية الشريعة وكلية الفلسفة وكلية التاريخ .

فله في كل ذلك عشرات المؤلفات والمقالات وحتى كلية الآداب بسبب اسلوبه المشرق والسهل الممتنع ، وقد فتح للأدب آفاقاً رحبة وجديدة في العقيدة والفقه والعلم والجهاد وفي الدفاع عن الرأي ، وله شعر جيد غزير المادة يجب ان يكون بديلاً عن ذكرى سعاد وليلى وندب الأطلال والتغزل بالنساء ، ووصف الغزلان وبقر الوحش . . . . مما كان سبباً في فساد ناشئتنا وانحلالها .

وقد سجن ومات في السجن بسبب آرائه الصحيحة والجريئة التي رفضت في تلك العهود المظلمة بسبب الجهل والتعصب الأعمى ، ولكن عادت اكثر المحاكم الشرعية وأخذت بها ، فأنقذت بذلك الأسرة الاسلامية من التشرد والتصدع وارتكاب الزنى بحيلة التحليل وقد قال رسول الله ﷺ : « لعن الله المحلل والمحلل له » رواه احمد وغيره وسنده صحيح . فما أجدر جامعاتنا الاسلامية وخاصة جامعة دمشق التي يحل ضيفاً عليها وضريحه في وسطها ـ ان تنشيء له كرسياً يسمى (كرسي ابن تيمية) سواء في كلية الشريعة او كلية التاريخ او كلية الفلسفة للافادة من آرائه الصائبة وروحه الجامعية الوثابة واخلاصه العظيم ، وعلمه العميق ، وصبره الدائب ، وترفعه عن المادة .

والغريب جداً ان الكثرة الساحقة من علماء المسلمين لم تعرف لشيخ الاسلام حقه ، فهي لا تزال تضمر له العداء والخصومة ، وهي لو انصفت لأضمرت العداء والخصومة لنفسها الامارة بالسوء ! واذا كان الأدعياء والمحترفون من العلماء قديماً قد ابغضوا الامام ابن تيمية عن علمهم الناقص ، فان الادعياء والمحترفين اليوم قد ابغضوه عن جهل مركب وبتأثير التقليد الأعمى ! ولا يزالون يضمرون له ولاتباعه من اهل القرآن والحديث المسمون : (بالسلفيين)العداء ، وهم لو عقلوا لقدروهم حق قدرهم !

إن اهل القرآن ـ رحم الله موتاهم وبارك الله في أحيائهم وامدهم بقوته وتوفيقه ـ هم مصابيح الهدى ، والدعاة الى الرشاد والتقى ، من عاداهم هلك ومن تركهم ضل ، وهم المنصورون على خصومهم بشرهم بذلك النبي ﷺ فقال « لا تزال طائفة[1] من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على

---

(١) ـ وقد ذكر الامام احمد بن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وغيرهم من كبار العلماء : بأن هذه الطائفة هم اهل الحديث ، فاسع يا اخي المسلم ان تكون منهم لتكون من الفائزين .

الناس ! » .

وانني قبل ختام هذه المقدمة أسجل بمداد من نور شكر العالم الاسلامي للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية على احيائه ذكرى شيخ الاسلام الامام ابن تيمية بدمشق ، في وقت تغط فيه الجامعة الأزهرية وكليات الشريعة في العالم العربي والاسلامي في نوم عميق عن التراث الضخم لهذا المصلح والمجدد الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

انه لمن نكران الجميل والتعصب الممقوت والجهل المذري ان يبقى الامام ابن تيمية نسياً منسياً في كهوف المكتبات العربية والاسلامية ، بينما تتهافت جامعاتنا على دراسة المذاهب الفلسفية القديمة والحديثة وما فيها من ضلالات وكفريات كانت من اهم اسباب اضطراب الجيل الجديد .

موضوع هذا الكتاب بطل عظيم من ابطال التاريخ لم يشهد العالم له مثيلاً في عبقريته واخلاصه وشجاعته منذ قرون طويلة .

بطل في ميدان العلم . .
بطل في ساحات الحروب . .
بطل في معارك السياسية . .

هذا البطل ملأ الدنيا وشغل الناس منذ شب بين العلماء حتى يومنا هذا ، فلا يكاد يذكر اسمه في الأوساط الاسلامية حتى تسمع دوياً عظيماً ويثار النقاش حوله ، فمن منصف معجب يذكره بتعظيم واحترام ، ومن مكابر مقلد يأكل الحسد والحقد قلبه ! . .

كان بحراً في العلوم ، فارساً في اللغة ، ترجماناً للقرآن ، اماماً للزاهدين ، قهر الملحدين ، وقمع المبتدعين وترك العالم الاسلامي في دوي :

« كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » .

فمن هو هذا البطل العظيم ؟؟

انه تقي الدين احمد بن عبد الحليم ابن تيمية . . .

نشأته وطلبه للعلم

ولد بحران من اعمال أُورفة في تركيا عام ٦٦١ هجري،وهاجر ابواه به وبإخوته الى دمشق ، تخلصاً من ظلم التتار ، فساروا ليلاً ، وهم يحرون عجلة كبيرة ، لعدم وجود الدواب ولم يكن في هذه العربة مال او متاع ، بل فيها كتب خشوا عليها من ان يحرقها هؤلاء الغزاة اعداء العلم والحضارة . وقد توقفت العجلة في الطريق وكاد العدو يلحق بهم فاستغاثوا بالله وابتهلوا اليه فنجوا وسلموا بما معهم من الكتب .

وصل ابن تيمية الى دمشق وسارع الى حفظ القرآن وطلب العلوم على اختلاف أنواعها من كبار الأساتذة والمحدثين الذين ادهشهم بقوة ذهنه ، وفرط ذكائه ، ولم يكد يبلغ من العمر بضعة عشر عاماً حتى اتقن اصول الدين وحاز قصب السبق في التفسير والحديث واللغة .

وشيوخه الذين سمع عنهم ، اكثر من مئتي شيخ ، وسمع مسند الأمام احمد بن حنبل مرات ، وسمع الكتب الستة الكبار والاجزاء ، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير .

اتفق ان بعض كبار العلماء بحلب قدم الى دمشق ، فصادف خياطاً في حانوته فقال : « سمعت في البلاد بصبي يقال له « احمد ابن تيمية ، وانه سريع الحفظ ، وقد جئت اليه قاصداً لعلي اراه » .

قال له الخياط :

هذه طريقُ كُتّابه ، وهو الآن ما جاء ، فاقعد عندنا ، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً الى الكتّاب . . » .

فجلس الشيخ الحلبي قليلاً ، فمر صبيان ، فقال الخياط للحلبي : ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير ، هو احمد بن تيمية !

فناداه الشيخ ، فجاء اليه ، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ثم قال :

يا ولدي : امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه .

ففعل ، فأملى عليه من متون الحديث احد عشر او ثلاثة عشر حديثاً ، وقال له : اقرأ هذا :

فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته اياه ، ثم دفعه اليه وقال :

اسمعه عليّ :

فقرأ عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع . فقال له الشيخ :

امسح هذا ! .

ففعل ، فاملى عليه عدة اسانيد انتخبها ، ثم قال :

اقرأ هذا !

فنظر فيه ، كما فعل اول مرة ، فقام الشيخ ، وهو يقول :

ان عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم ، فان هذا لم يُر مثله !(١) .

نشأ ابن تيمية منذ صغره بين العلماء ، راتعاً في رياض الكتب النافعة ينفق اوقاته في الدراسة والمطالعة خصوصاً في كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وكان الى جانب ذلك صوَّاماً قواماً يقف عند حدود الله ويتبع اوامره ويجتنب نواهيه . وقد كان يقول :

« انه ليقف خاطري في المسألة ، والشيء او الحالة التي تشكل علي ، فأستغفر الله تعالى الف مرة او اكثر او اقل حتى ينشرح الصدر وينحل اشكال ما أشكل ، وقد اكون إذ ذاك في السوق ، او المسجد . او المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار الى ان انال مطلوبي » ! .

واستمر ابن تيمية على هذا الدأب والجد حتى أصبح من كبار الفقهاء وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل .

ثناء العلماء عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه « الكواكب الدراري »(٢) الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية : قد أكثر أئمة الاسلام من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ

---

(١) ـ العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام احمد بن تيمية تأليف الحافظ المحقق ابي عبد الله محمد بن احمد عبد الهادي (ص ٤) وقد حقق هذا الكاتب محمد حامد الفقي رئيس جماعة انصار السنة المحمدية ومن علماء الأزهر الشريف ومن « الاعلام العلية » للعلامة البزار ، ومن « الرد الوافر » للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي طبع وتحقيق العالم السلفي الشيخ زهير الشاويش .

(٢) ـ « المطبوعة في مصر » سنة ١٣٢٩ .

المزي وابن دقيق العيد ، وابي حيان النحوي ، والحافظ ابن سيد الناس ، والحافظ الزملكاني ، والحافظ الذهبي ، وغيرهم من أئمة العلماء .

وقال الحافظ المزي : ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . وما رأيت احداً اعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي ابو الفتح بن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له ما كنت اظن ان يخلق مثلك !

وقال الشيخ ابراهيم الرقي : ان تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم ، فان طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق ، ولا بد من ان يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة .

وقال القاضي ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟! .

وقال فيه شيخ النحاة ابو حيان لما اجتمع به : ما رأت عيناي مثله . ثم مدحه ابو حيان على البديهة في المجلس وقال :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا ... داع الى الله فرداً ما له وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حبرا ... بحر تقاذف من امواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم اذ عصت مضر
وأظهر الحق اذ آثاره درست ... وأخمد الشر اذ طارت له شرر
نحدث عن حبر يجيء فهما ... أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني : لقد اعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف . وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتعيين . وقد ألان الله له العلوم كما ألانَ لداود الحديد . كان اذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع انه لا يعرف غير ذلك الفن . وحكم ان احداً لا يعرفه مثله (الى ان قال) :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا اعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الواسطي عنه : انموذج الخلفاء

الراشدين والائمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الأمة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكاً ، ولأعنة قواعدهم مالكاً .

وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب « القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي » : ومما وجد في كتاب كتبه القاضي ابو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ما صورته : واما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي اكبر من ذلك واجل . مع ما جمع الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق . والقيام فيه لا لغرض سواه . وجريه على سنن السلف واخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى . وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان .

مخالفته لعلماء عصره وحسد الادعياء له

اشتهر ابن تيمية وذاع صيته . واجتهد في امور كثيرة خالف فيها علماء عصره . فدب الحسد والغضب الى مدعي العلم والمقلدة والخرافيين الذين يضيقون ان يروا عالماً يبذهم ويظهر جهلهم . فوشوا به الى الحكام واتهموه بالكفر ، فزجوا به في اعماق السجون تارة في القاهرة ، وتارة في الاسكندرية ، ولا يكاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون يفرج عنه لما يجد من فضله وعلمه حتى يسارع هؤلاء الهدامون من جديد للوشاية به واختلاق الأكاذيب واثارة الفتن ضده حتى يعاد به الى السجن بعد تسليط الرعاع والغوغاء عليه وايذائهم له واعتدائهم عليه ،وكان يسجن معه احياناً اخواه شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن .

ملخص مناظرة الشيخ للعلماء[1]

وقد ذكر الشيخ رحمه الله صورة ما جرى في هذه المناظرات ملخصاً وعلق في ذلك شيئاً مختصراً فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ولا ظهير ولا معين ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله الذي أرسله الى

(١) لقد قام العالم السلفي المتخصص بكتب وتاريخ ابن تيمية الأخ زهير الشاويش بتحقيق هذه المناظرة وطبعها مع العقيدة الواسطية معلقاً عليها تعليقات نفيسة . طبع المكتب الاسلامي .

الخلق اجمعين . صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى سائر عباد الله الصالحين .

أما بعد ، فقد سئلتُ غيرَ مرة ، ان أكتب ما حضرني ذِكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة ، في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد به كتاب السلطان من الديار المصرية الى نائبه امير البلاد لما سعى اليه قوم من الجهمية ، والاتحادية ، والباطنية ، وغيرهم : من ذوي الاحقاد . فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة : قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين ، والمشايخ : ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قُصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة .

فقال لي : هذا المجلس عقد لك . فقد ورد مرسوم السلطان : ان أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به الى الديار المصرية ، من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد .

وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء وتتباحثون في ذلك .

فقلت : اما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ، ولا عمن هو اكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله ، وما اجمع عليه سلف الأمة . فما كان في القرآن وجب اعتقاده . وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، مثل صحيح البخاري ومسلم .

واما الكتب ، فما كتبت الى احد كتاباً ابتداء أدعوه به الى شيء من ذلك . ولكنني كتبت اجوبة اجبت بها من يسألني من اهل الديار المصرية وغيرهم .

وكان قد بلغني انه زُوِّرَ عليَّ كتاب الى الأمير ركن الدين الجاشنكير استاذ دار السلطان ، يتضمن ذكر عقيدة مُحرّفة . ولم اعلم بحقيقته . لكن علمت ان هذا مكذوب . وكان يردُ عليّ من مصر وغيرها من يسألني مسائل في الاعتقاد او غيره ، فأجيبه بالكتاب والسنة . وما كان عليه سلف الأمة .

فقال : نريد ان تكتب لنا عقيدتك .

فقلت : اكتبوا .
فأمر الشيخ كمال الدين ان يكتب .

وكتبت له جمل الاعتقاد في ابواب الصفات ، والقدر ، ومسائل الايمان ، والوعيد ، والامامة ، والتفضيل .

وهو ان اعتقاد اهل السنة والجماعة : الايمان بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به

رسوله . من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل . وان القرآن كلام الله ، غير مخلوق . منه بدا واليه يعود . والايمان بأن الله خلف كل شيء من افعال العباد وغيرها . وانه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وانه امر بالطاعة ورضيها واحبها . ونهى عن المعصية وكرهها . والعبد فاعل حقيقة والله خالق فعله . وان الايمان والدين قول وعمل يزيد وينقص . وان لا نكفر احداً من اهل القبلة بالذنوب . ولا نخلد في النار من اهل الايمان احداً ، وان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم . وان مرتبتهم في الفضل كمرتبتهم في الخلافة . ومن قدم علياً على عثمان ، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار .

وذكرت هذا ونحوه ، فاني الآن قد بعد عهدي . ولم احفظ لفظ ما أمليته اذ ذاك .

ثم قلت للأمير والحاضرين : انا أعلم ان اقواماً يكذبون عليَّ ، كما قد كذبوا عليَّ غير مرة . وان امليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه ، او داهن وداَرى . فأنا أحضِر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين ، قبل مجيء التتر الى الشام .

قلت ، قبل حضورها كلاماً قد بَعُد عَهْدي به . وغضبتُ غضباً شديداً ، لكني أذكر أني قلت :

انا أعلم أقواماً كذبوا عليَّ ، وقالوا للسلطان اشياء ، وتكلمت بكلام احتجت اليه ، مثل ان قلت :

من قام بالاسلام في اوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي اوضح دلائله ، وبيَّنه ، وجاهد اعداءه ، وأقامه لما مال ، حين تخلَّى عنه كل احد ، فلا احد ينطق بحجته ، ولا احد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً لحجته ، مجاهداً عنه ، مرغباً فيه ؟

فاذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيَّ ، فكيف يصنعون بغيري ؟

ولو ان يهودياً طلب من السلطان الأنصاف لوجب عليه ان ينصفه وانا قد أعفو عن حقي ، وقد لا أعفو . بل قد أطلب الانصاف منه . وان يُحضِر هؤلاء الذين كذبوا ليحاققُوا على افترائهم .

وقلت كلاماً أطول من هذا ، من هذا الجنس ، لكن بَعدُ عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدَّرَج : محيي الدين ، ان يكتب ذلك .

وقلت ايضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا اعلم بمذهبه منه .

وما أدري ، هل قلت هذا قبل حضورها ، أو بعدها ؟

لكنني قلت أيضاً : بعد حضورها وقراءتها : ما ذكرت فيها فصلاً الا وفيه مخالف من المنتسبين الى القبلة . وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف .

ثم أرسلت من أحضرها ، ومعها كراريس بخطي من المنزل . فحضرت العقيدة الواسطية .

وقلت لهم : هذه كان سبب كتابتها : انه قدم من ارض واسط بعض قُضاة نواحيها : شيخ يقال له رضيّ الدين الواسطي . قدم علينا حاجاً . وكان من أهل الخير والدين ، وشكا ما الناسُ فيه بتلك البلاد وفي دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ، ودروس الدين والعلم ، وسألني ان اكتب له عقيدة تكون عمدة له ، ولأهل بيته .

فاستعفيت من ذلك ، وقلت : قد كتب الناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة .

فالحَّ في السؤال ، وقال : ما أحب الا عقيدة تكتبها انت .

فكتبت له هذه العقيدة ، وأنا قاعد بعد العصر .

وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما .

فأشار الأمير بان لا أقرأها انا ـ لرفع الريبة . . واعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفاً حرفاً ، والجماعة الحاضرون يسمعونها . ويورد المورد منهم ما شاء ، ويعارض فيما يشاء ، والأمير ايضاً : يسأل عن مواضع فيها .

وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى : ما قد علم الناس بعضه ، وبعضه بسبب الاعتقاد ، وبعضه بغير ذلك .

ولا يمكن ذكر ما جرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس ، فانه كثير لا ينضبط ، لكن اكتب ملخص ما حضرني مع بعد العهد بذلك .

ومع انه كان يجري رفع اصوات ولغط لا ينضبط . فكان مما اعترض عليه بعضهم لما ذكر في اولها « ومن الايمان بالله : الايمان بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله محمد ﷺ : من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل » .

فقال : ما المراد بالتحريف والتعطيل ؟

ومقصوده : ان هذا ينبغي التأويل الذي يثبته اهل التأويل ، الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره ، اما وجوباً او جوازاً .

فقلت : تحريفُ الكَلم عن مواضعه ، كما ذمَّه الله في كتابه ، وهو ازالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل تأويل بعض الجَهْميَّةِ لقوله تعالى « وَكلَّم الله موسى تكليما » اي جرّحه باظافير الحكمة تجريحا ومثل تأويل القَرامِطة والباطنية وغيرهم من الجَهْمية والباطنية والقدرية ، وغيرهم . فسكت ، وفي نفسه ما فيها .

وذكرت في غير هذا المجلس : اني عدلت عن لفظ « التأويل »الى لفظ « التحريف » لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه . وانا تحرّيْت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة . فنفيتُ ما ذمّهُ الله من التحريف ولم اذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا اثبات . لانه لفظ له عدة معانٍ كما بينته في موضعه من القواعد[1] فان معنى لفظ « التأويل » في كتاب الله غير معنى لفظ « التأويل » في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من اهل التفسير والسلف[2] ولأن من المعاني التي قد تسمى

---

(١) ـ قواعد التفسير لشيخ الاسلام ابن تيمية طبعت بالشام .

(٢) ـ قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله في « مختصر الصواعق المرسلة» في بيان حقيقة التأويل :
هو تفعيل من آل يؤول الى كذا ، اذا صار اليه ، فالتأويل : التصيير وأولته تأويلاً : اذا صيرته اليه . وتأول هو مطاوع اولته . وقال الجوهري : التأويل : تفسير ما يؤول اليه الشيء ، ثم تسمى العاقبة تأويلاً ، لأن الأمر يصير اليها . قال الله تعالى : ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا﴾ ، وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلاً . لأن الأمر ينتهي اليها . ومنه قوله تعالى ﴿ هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فمجيء تأويله : مجيء نفس ما اخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد والجنة والنار ، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلها بالاعتبارين . وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلا ، لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي غرضه منه . ومنه قول الخضر لموسى ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ فالتأويل المراد منه في كتاب الله : حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ اليه ، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج ، وتأويل الوعد والوعيد : هو نفس الموعود والمتوعد به . وتأويل ما اخبر الله به من صفاته وافعاله : هو نفس ما هو سبحانه موصوف به من الصفات . وتأويل الأمر : هو نفس الأفعال المأمور بها . قالت عائشة « كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك يتأول القرآن » فهذا التأويل هو فعل المأمور به . هذا التأويل في كلام الله ورسوله . واما في اصطلاح اهل التفسير والسلف من اهل الفقه والحديث : فمرادهم به معنى التفسير والبيان ومنه قول ابن جرير وغيره : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ومنه قول الامام احمد في الرد على الجهمية فيما تأولوه من القرآن على غير تأويله . فابطل تلك التأويلات التي ذكروها ، وهو تفسير مرادهم بها ، وهو تأويلها عنده . فهذا التأويل يرجع الى فهم المؤمن ويحصل في الذهن ، والأول يعود الى وقوع حقيقته في الخارج . واما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل : صرف للفظ عن ظاهره =

تأويلاً : ما هو صحيح منقول عن بعض السلف . فلم أنفِ ما تقوم الحجة على صحته اذا ما قامت الحجة على صحته ، وهو منقول عن السلف ، فليس من التحريف .

وقلت له ايضاً : ذكرت في النفي « التمثيل » ولم اذكر « التشبيه » لأن « التمثيل » نفاه الله بنص كتابه حيث قال ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ فكان احب الي من لفظ ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ﷺ . وان كان قد يعني بنفيه معنى صحيح ، كما قد يعني به معنى فاسد .

ولما ذكرت « فانهم لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرِّفون الكلَم عن مواضعه ، ولا يُلحدون في اسماء الله وآياته » . جعل بعض الحاضرين يَمْتَعِضُ من ذلك ، لاستشعاره ما في ذلك من الرد لما هو عليه ، ولكن لم يتوجه له ما يقوله .

واراد ان يدور عليّ بالاسئلة التي أعلمها ، فلم يتمكن لعلمه بالجواب .

ولما ذكرت آية الكرسي ، أظن سأل الأمير عن قولنا « لا يَقربه شيطان حتى يُصبح » .

فذكرت له حديث ابي هريرة رضي الله عنه في الذي كان يسرق صدقة الفطر . وذكرت ان البخاري رواه في صحيحه[1] .

= وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من الأصوليين والفقهاء ، ولذلك يقولون : التأويل على خلاف الأصل ، والتأويل يحتاج الى دليل . وهذا التأويل هو الذي صنفوا في تسويغه وابطاله من الجانبين . فمن صنف في ابطاله على رأي المتكلمين : القاضي ابو يعلى والشيخ موفق الدين بن قدامة . وقد حكى غير واحد اجماع السلف على عدم القول به ـ الى ان قال ـ : وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة : هو التأويل الصحيح ، وغيره هو الفاسد . ثم ذكر انواع التأويل الباطل في كلام نفيس ، فارجع اليه .

(١) ـ عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : « وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان : فأتاني آتٍ ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لارفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : اني محتاج وعلي دين وعيال وفي حاجة شديدة . فخليت عنه ، فاصبحت فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل اسيرك البارحة ؟ قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته فخليت سبيله . قال : اما انه قد كذبك وسيعود . فعرفت انه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ـ وذكر الحديث الى ان قال : فاخذته يعني في الثالثة فقلت : لأرفعنك الى رسول الله ﷺ . وهذا آخر ثلاث مرات تزعم انك لا تعود ثم تعود ، قال : دعني اعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت : ما هن ؟ قال : اذا اويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا الـه الا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية . فانك لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقر بك حتى تصبح ، فخليت سبيله فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل اسيرك البارحة ؟ قلت : زعم انه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال : ما هي ؟ قال لي : اذا اويت الى فراشك ـ الحديث ـ الى ان قال صلى الله عليه وسلم « صدقك وهو كذوب » .

واخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويُطنبون في هذا ويُعرّضون بما ينسبه بعض الناس[1] الينا من ذلك .

فقلت : قولي « من غير تكييف ، ولا تمثيل » ينفي كل باطل . وانما اخذت هذين الاسمين . لأن « التكييف » مأثور نفيه عن السلف . كما قال ربيعة . ومالك ، وابن عُيَيْنة وغيرهم المقالة التي تلقها العلماء بالقبول « الاستواء معلوم . والكَيْفُ مجهول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بِدْعَة » .

فاتفق هؤلاء السلف على ان الكَيْف غير معلوم لنا . فنفيت ذلك اتباعاً لسلفة الأمة . وهو ايضاً منفيٌّ بالنص . فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته . وهذا من التأويل الذي لا يعلمه الا الله . كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والمعنى . والفرق بين علمنا بمعنى الكلام ، وبين علمنا بتأويله .

وكذلك « التمثيل » يُنفى بالنص والاجماع القديم . مع دلالة العقل على نفيه . ونفي التكييف ، اذ كُنْهُ الباري تعالى غير معلوم للبشر .

وذكرت في ضمن ذلك كلام الخَطَّابي الذي نقل انه مذهب السلف . وهو : « اجراء آيات الصفات واحاديثها على ظاهرها . مع نفي الكيفية ، والتشبيه عنها . اذ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى فيه حذوه . ويتبع فيه مثاله . فاذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا اثبات تكييف » .

فقال احد كبراء المخالفين : فحينئذٍ يجوز ان يقال : هو جسم ، لا كالأجسام ؟

فقلت له ، انا وبعض الفضلاء الحاضرين : انما قيل : انه يوصف الله بما وصف به نفسه . وبما وصفه به رسوله ﷺ . وليس في الكتاب والسنة ان الله جسم ، حتى يلزم هذا السؤال .

واخذ بعض القضاة الحاضرين والمعروفين بالديانة يريد إظهار ان ينفي عنا ما يقوله .

---

(١)- ومن الدساسين المفترين على شيخ الاسلام ابن تيمية ، الرحالة المشهور ابن بطوطة فقد جاء في كلامه العبارة الآتية عن شيخنا الجليل : « وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ، وهو يعظ الناس على منبر الجامع الأموي ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال : ان الله نزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة المنبر » . ان ابن بطوطة كاذب في روايته هذه شأنه في كثير مما يرويه في رحلته ، وقد كان وصوله الى دمشق في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان عام ٧٢٦ هـ ، وكان شيخ الاسلام في هذا التاريخ سجيناً في قلعة دمشق . هذا وان ما كتبه ابن تيمية في كتبه المختلفة عن نفي التشبيه فيه دلالة صريحة وحجة بالغة عن افتراء ابن بطوطة ، وليس هو اول من افترى عليه ، والمفترون كثيرون قال تعالى : « انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون » .

فجعل يزيد في المبالغة في نفي التشبيه والتجسم . فقلت : قد ذكر فيها في غير موضع « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل » . وقلت في صدرها : « ومن الايمان بالله : الايمان بما وصف الله به نفسه في كتابه . وبما وصف به رسوله محمد ﷺ . من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » .

ثم قلت : « وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها اهل المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك » .

الى ان قلت : « الى امثال هذه الأحاديث الصحاح التي يخبر فيها رسول الله ﷺ بما يخبر به . فإن الفرقة الناجية أهلَ السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما اخبر الله به في كتابه . من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الأمة . كما أن الأمة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله بين اهل التعطيل الجهمية ، واهل التمثيل المشبهة » .

ولما رأى هذا الحاكم العدل تمالؤهم وتعصبهم ، ورأى قلة المعاون منهم والناصر . وخافهم قال : انت قد صنفت اعتقاد الامام احمد ، فنقول : هذا اعتقاد أحمد ؟

يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه . فأن هذا مذهب متبوع .

وغرضه بذلك : قطع مخاصمة الخصوم .

فقلت له : ما جمعت الا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للامام احمد اختصاص بهذا . والامام احمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ ولو قال احمد من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول ﷺ لم نقبله . وهذه عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم

وقلت مرات : قد امهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين . فان جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التي اثنى عليها النبي ﷺ . حيث قال : « خير القرون : القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم[1] » يخالف ما ذكرته فانا ارجع عن ذلك . وعليّ ان آتي بنقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته : من الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والأشعرية ، واهل الحديث ، وغيرهم .

---

(١) ـ رواه الامام احمد والبخاري ، ومسلم والترمذي عن ابن مسعود « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء اقوام تسبق شهادة احدهم يمينه ، ويمينه شهادته . » .

رسالة من الامام الى اصحابه وتلاميذه
يدعوهم الى الصبر والهدوء

لقد ضج اصحاب الشيخ ابن تيمية وتلاميذه من سجنه في مصر وساءهم هذا المصير بالمصلح والمجدد الاسلامي الكبير ، فأرسل اليهم الرسالة التالية يدعوهم فيها الى السكينة والاعتصام بالصبر ، مما يدل على حسن ادبه وبعد نظره واخلاصه وحرصه على وحدة الكلمة وجمع الصف :

أما بعد ، فان الله ـ وله الحمد ـ قد انعم عليّ من نعمه ومننه الجسيمة ، وآلائه الكريمة . ما هو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر ، على فصل المأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء اعظم من الصبر في الضراء قال تعالى : (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات ، اولئك لهم مغفرة وأجر كبير)[1] .

وتعلمون ، ان الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من اسباب دينه ، وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة اوليائه ، وقوة اهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والفرقة ، وتقرير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك بانفتاح ابواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق ، لأمم لا يحصي عددهم الا الله تعالى ، واقبال الخلائق الى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ، ما لا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وان كان صبراً في سراء .

وتعلمون ان من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فان الله تعالى يقول : (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم)[2] ويقول : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[3] ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم)[4] وامثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنهي عن الفرقة والاختلاف . واهل

---

(١) ـ سورة هود الآيات (٩ ، ١٠ ، ١١) .

(٢) ـ سورة الانفال الآية الأولى .

(٣) ـ سورة آل عمران آية (١٠٣) .

(٤) ـ سورة آل عمران آية (١٠٥) .

هذا الأصل هم اهل الجماعة كما ان الخارجين عنه هم اهل الفرقة .

وجماع السنة طاعة الرسول . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابي هريرة : « ان الله يرضى لكم ثلاثاً : ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وان تناصحوا من ولاه الله اموركم » وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود ـ فقيهي الصحابة ـ عن النبي ﷺ انه قال : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من ورائهم »[1] . وقوله : « لا يغل » اي لا يحقد عليهن ، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم ، بل يحبهن ويرضاهن .

واول ما أبدأ به من هذا الأصل ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم اني لا احب ان يؤذي احد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن اصحابنا ـ بشيء اصلاً ، لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على احد منهم ولا لوم اصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والاجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان كل بحسبه . ولا يخلو الرجل اما ان يكون مجتهداً مصيباً ، او مخطئاً ، او مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع اجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له . والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين .

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات التي فيها خدمة لبعض الأصحاب والأخوان ، فاني لا اسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة الا بالله . بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، الا ان يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله ان شاء ، وقد عفا الله عما سلف .

وتعلمون ايضاً ان ما جرى من نوع تغليظ وتخشين على بعض الأصحاب والأخوان ـ مما كان يجري بدمشق ، وما جرى الآن بمصر ـ فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض ، بل هو بعدما عومل به من التغليظ والتخشين ارفع قدراً ، وانبه ذكراً ، واحب واعظم . وانما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح بها بعضهم ببعض ، فان المؤمن للمؤمنين كاليدين : تغسل احداهما

---

(١) ـ رواه البزاز باسناد حسن .

الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ الا بنوع من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما يحمد معه ذلك التخشين .

وتعلمون انا جميعاً متعاونون على البر والتقوى : واجب علينا نصر بعضنا بعضاً اعظم مما كان واشد . فمن رام ان يؤذي بعض الأصحاب والأخوان ـ لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق او بمصر الساعة او غير ذلك ـ فهو الغالط . وكذلك من ظن ان المؤمنين يبخلون عما امروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظن سوء ﴿ وان الظن لا يغني عن الحق شيئاً ﴾ وما غاب عنا احد من الجماعة ، او قدم الينا الساعة او قبل الساعة ، الا ومنزلته عندنا اليوم اعظم مما كانت واجل وارفع .

وتعلمون رضي الله عنكم ان ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها ـ من اجتهاد الآراء ، واختلاف الأهواء ،وتنوّع احوال اهل الايمان ، وما لا بد منه من نزغات الشيطان ـ ما لا يتصور ان يعري عنه نوع الانسان ، وقد قال تعالى :« وحَملها الانسان انه كان ظَلوماً جهولاً . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيما »[1] .

بل أنا اقول ما هو ابلغ من ذلك[2] تنبيهاً بالادنى على الأعلى ، وبالأقصى على الأدنى : تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وان ذلك امر يجل عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور فهو ـ في حقنا ـ خير ونعمة قال تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً . لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الأثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) وقد اظهر الله من نور الحق وبرهانه ما ردَّ به افك الكاذب وبهتانه ، فلا احب ان ينتصر من احد بسبب كذبه علي او ظلمه وعدوانه ، فاني قد احللت كل مسلم ، وانا احب الخير لكل المسلمين ، واريد لكل مؤمن من الخير ما احبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي ، واما ما يتعلق بحقوق الله فان تابوا تاب الله عليهم ، والا فحكم الله نافذ فيهم ، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنت اشكر كل من كان سبباً في هذه القضية ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخر ، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه واياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء الا كان خيراً له . واهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، واهل العمل الصالح يشكرون على عملهم !

---

(١) ـ سورة الاحزاب الآية ٧٢/ ٧٣ .

(٢) ـ اي مما تقدم من كلامه عن اختلاف آراء الناس واهوائهم في مثل هذه القضية وما هو دونها .

واهل السيئات نسأل الله ان يتوب عليهم . وانتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأوكد ، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، ولحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله .

وانتم تعلمون ان الصديق الأكبر ـ في قضية الأفك التي انزل الله فيها القرآن ـ حلف لا يصل مسطح بن اثاثة ، لأنه كان من الخائضين في الإفك ، فأنزل الله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما نزلت قال ابو بكر : « بلى والله ، اني لأحب ان يغفر الله لي ، فأعاد الى مسطح النفقة التي كان ينفق[1] » .

ومع ما ذكر من العفو والاحسان ، وامثاله واضعافه ، فالجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة امر لا بد منه (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما .

اخراجه من سجن الاسكندرية

لما دخل السلطان الناصر الى مصر بعد خروجه من الكرك ، وقدومه الى دمشق ، وتوجه منها الى مصر ـ وكان قدومه اليها يوم عيد الفطر ، من سنة تسع وسبعمائة ـ نفّذ لاحضار الشيخ من الاسكندرية في اليوم الثامن من شوال .

وخرج الشيخ منها متوجهاً الى مصر ، ومعه خلق من اهلها يودعونه ويسألون الله ان يرده اليهم . وكان وقتاً مشهوداً .

ووصل الى القاهرة يوم الجمعة الرابع والعشرين منه . واكرمه وتلقاه في مجلس ، حفل

---

(١) ـ روى ذلك الامام احمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن عائشة رضي الله عنها . وهذه الاخلاق الاسلامية لم تعرفها الانسانية الا في الاسلام واهله .

فيه قضاة المصريين والشاميين والفقهاء . واصلح بينه وبينهم .

قال بعض اصحابنا[1] :

أخبرك بأمر عجيب ، وقع من السلطان في حق الشيخ تقي الدين ، وذلك حين توجه السلطان الى الديار المصرية ، ومعه القضاة والأعيان ، ونائب الشام الأفرم .

فلما دخل الديار المصرية وعاد الى مملكته ، وهرب سلار والشنكير ، واستقر امر السلطان ، جلسا يوما دست السلطنة وأبهة الملك ، واعيان الأمراء من الشاميين والمصريين حضور عنده ، وقضاة مصر عن يمينه ، وقضاة الشام عن يساره . وذكر لي كيفية جلوسهم منه ، كحسب منازلهم ـ قال : وكان من جملة من هناك ابن صصري ، عن يسار السلطان ، وتحته الصدر علي قاضي الحنفية ، ثم بعده الخطيب جلال الدين ، ثم بعده ابن الزملكاني ، قال : وأنا الى جانب ابن الزملكاني ، والناس جلوس خلفه ، والسلطان على مقعد مرتفع ، فبينما الناس على ذلك جلوس اذ نهض السلطان قائماً ، فقام الناس ، ثم مشى السلطان ، فنزل عن تلك المقعدة ، ولا يدرى ما به . واذا بالشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مقبل من الباب والسلطان قاصد اليه ، فنزل السلطان عن الايوان ، والناس قيام . والقضاة والأمراء والدولة ، فتسالم هو والسلطان وتكارشا[2] . وذهبا الى صفة في ذلك المكان ، فيها شباك الى بستان ، فجلسا فيها حينا ثم اقبلا ـ ويد الشيخ في يد السلطان ـ فقام الناس . وكان قد جاء في غيبة السلطان تلك : الوزير فخر الدين ابن الخليل ، فجلس عن يسار السلطان فوق ابن صصري . فلما جاء السلطان جلس على مقعدته . وجاء الشيخ تقي الدين فجلس بين يدي السلطان على طرف مقعدته متربعاً .

فشرع السلطان يثني على الشيخ عند الأمراء والقضاة بثناء ما سمعته من غيره قط . وقال كلاماً كثيراً . والناس تقول معه ، ومثله القضاة والأمراء .

وكان وقتاً عجيباً ، وذلك مما يسوء كثيراً من الحاضرين من ابناء جنسه .

وقال في الشيخ من الثناء والمبالغة ما لا يقدر احد من أخص اصحابه ان يقوله .

---

(١) ـ العقود الدرية ص ٢٧٩ .

(٢) ـ كذا بالاصل ، ولعلها : وتسارا .

خروج الشيخ الى الشام مع الجيش المصري

ثم توجه الامام ابن تيمية الى الشام ، صحبة الجيش المصري قاصداً الغزاة . فلما وصل معهم الى عسقلان توجه الى بيت المقدس ، وتوجه منه الى دمشق ، وجعل طريقه على عجلون وبعض بلاد السواد ، وزرع . ووصل الى دمشق في اول يوم من شهر ذي القعدة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة . ومعه اخواه وجماعة من اصحابه ، وخرج خلق كثير لتلقيه ، وسروا سروراً عظيماً بمقدمه وسلامته وعافيته .

وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع .

من محراب العلم الى ميدان القتال

لقد جاء التتار الى الشام سنة ٦٦٩ وهزموا عساكر الناصر بن قلاوون ، شذر مذر بعد ان ابلى الجميع بلاء حسناً ولكن كان امر الله قدراً مقدوراً ، فولى جند مصر والشام الأدبار ، واجتازوا دمشق فارين إلى مصر ، وصار جند التتار على أبواب دمشق ، وأهلها في ذعر وفر كثيرون من أعيان العلماء إلى مصر كقاضي الشافعية امام الدين ، وقاضي المالكية الزواوي ، وغيرهم من كبار العلماء وكبار الرجال ، حتى صار البلد شاغراً من الحكام وكبار رجال الدين .

ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة ، فلم يفر ولم يخرج ، لأن له قلباً يحول بينه وبين الفرار [١] . وله شعور يمنعه من ان يترك العامة من غير مواسٍ في هذه البأساء ، وله دين يمنعه من ان يترك امور الناس فوضى لا حاكم يردع ، ولا نظام يمنع ، فقد ساد السلب والنهب ، حتى ان المحبوسين من الشطار والسراق خرجوا من الحبس ، وكانوا قريباً من مائتي رجل ، فنهبوا ما يقدرون عليه ، وهكذا غيرهم من اهل الشطارة والدعارة[٢] .

جمع ابن تيمية اعيان البلد ، واتفق معهم على ضبط الأمور وان يذهب على رأس وفد منهم يخاطبون ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق .

وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقازان[٣] ملك التتار وقائدهم ، وقد كسا الله

---

(١) ـ ابن كثير ص ٩ جـ ١٤ .

(٢) ـ ابن كثير ص ٩ جـ ١٤ .

(٣) ـ هو رابع ملك مسلم منهم ، وقد توفي سنة ٧٠٣ .

الشيخ حلة من المهابة والايمان والتقى ، ولقد قال احد الذين شاهدوا اللقاء « كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل ، ويرفع صوته ، ويقرب منه . . . والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغٍ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه وان السلطان من شدة ما اوقع الله في قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا الشيخ ؟ اني لم ار مثله ، ولا اثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني اعظم انقيادا لأحد منه ، فاخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل »[1] .

ومما خاطبه عن طريق الترجمان : « قل للقازان انت تزعم انك مسلم ؟ ومعك قاضي وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وابوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وانت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت ، وجرت » . ثم خرج بعد هذا القول من عنده معززاً مكرماً بحسن نيته »[2] .

أنتجت هذه المقابلة خيراً وان كان محدوداً . لقد اجل دخول دمشق الى حين ، وامن الناس وزال فزعهم فقد وعده قازان خيراً ، واعلن الامان وطيف بمنشوره في البلد من اقصاه الى اقصاه ، ولكن طلب من الأهلين تسليم السلاح والخيل والأموال المخبوءة ، وبعد ثمانية ايام كثر عبث الجند خارج المدينة ، فاتلفوا الزرع والضرع ، فقلت الأقوات ، وحاول احد الذين كانوا في خدمة ملوك مصر ومالأ التتار ـ ان يحمل حماة قلعة دمشق على تسليمها ، فامتنعوا بتحريض ابن تيمية الذي كان ملاذ الناس في تلك المحنة الشديدة ، ولكن اندفع الجند مع بعض طوائف الباطنيين من بعد ذلك في الصالحية يعيثون فيها فساداً ، وحرقوا بعض مساجدها ، وقتلوا وسبوا من نساء المسلمين ، وهم يذكرون انهم مسلمون ، وبلغ الناس انهم داخلون دمشق لا محالة .

خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة قازان ، ولكن حجبه عنه الوزراء وقد وعد بأن المدينة

---

(١) ـ القول الجلي في ضمن مجموعة من المناقب ص ١٦٢ .

(٢) ـ القول الجلي ص ١٦٢ . وقد جاء فيه ايضاً : « انهم لما ضحروا مجلس قازان قدم لهم الطعام فاكلوا منه الا ابن تيمية ، فقيل له لماذا لا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك ، وكله مما نهبتم من اغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس . . ولقد طلب منه قازان الدعاء له ، فقال في دعائه : « اللهم ان كنت تعلم انه انما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وجاهد في سبيل فأن تؤيده وتنصره ؛ وان كان للملك والدنيا والتكاثر فأن تفعل به وتصنع » فكان يدعو وقازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً من ان يقتل فيطرطش بدمه ، ثم لما خرجنا قلنا له كدت تهلكنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال : وانا لا اصحبكم ، فانطلقنا عصبة ، وتأخر ، فتسامعت به الخواتين والأمراء فأتوه من كل فج ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل الا في ثلاثمائة فارس في ركابه . واما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا » .

لا يدخلها التتار . ولكنهم دخلوها وعاثوا فيها فساداً ، ثم خرجوا من بعد ، وكان لابن تيمية مسعى حميد في استنقاذ الأسرى ، وفك إسارهم ، ثم ترك التتار الشام ، ونسجل هنا ان ابن تيمية عندما فك الاسارى ، فك اسارى الذميين[1] مع اسارى المسلمين .

ولكن في سنة ٧٠٠ تسامع الناس ان التتار سيقصدون الشام ، وانهم عازمون على دخول مصر ، فأخذ الأهلون يفرون كالمرة الأولى وهم في هذه المرة يفرون على السماع ، وكانوا في الأولى يفرون عند العيان .

ولكن ابن تيمية الذي عالج التتار بالسلم في الماضي ، اذ لم يستطع ان يشن عليهم الحرب لخور العزيمة ، ولأنهم كانوا اصحاب العتاد والعدة ، ولأنهم كانوا قد غزوا الديار في عقرها ، فتمكنوا من الرقاب ، ولأنه كان يحسبهم مسلمين غير بغاة . اما الآن وقد بدت حالهم وفي الوقت فرصاً فلم ينتظر الدنية بل اراد ان يتقدم للميدان بالسيف لا بالقول ، فجلس في اليوم الثاني من صفر من هذه السنة ، والجموع تستمع اليه لأنه رجلها وقائدها ، ولم يلق عليهم في هذه المرة درساً في الوعظ المجرد ، بل ألقى عليهم قولاً في الجهاد ، فساق الآيات والأحاديث الواردة في الجهاد ، ونهى عن الاسراع في الفرار ، ورغب في انفاق المال في الذب عن المسلمين وبلادهم واموالهم ، وبين لهم ان ما ينفقونه من الهرب ، وما يضيع منهم بسببه اذا انفق في سبيل الله كان خيراً ، واوجب جهاد التتار في هذه المرة ، لأن الحرب انفى للحرب ، ولأنه لا جدوى في سلمهم وتابع المجالس في ذلك ، ونودي في البلاد ألا يسافر احد الا بمرسوم ، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم ، وابن تيمية لا يكتفي بالمجالس يعقدها ويخطب ، بل يكتب الكتب بالحجج الواضحة[2] ويرسلها الى الناس حتى اطمأنوا .

وزادهم استيثاقاً واطمئناناً ان السلطان الناصر بمصر قد اعتزم الخروج ، وان عساكره اللجبة مقبلة تحمي الذمار ، وتدافع عن الديار .

---

(١) ـ وتفصيل ذلك ما كتبه في الرسالة القبرصية خطاباً للسرجوان ملك قبرص قال : « وقد عرف النصارى كلهم اني لما خاطبت التتار في اطلاق الأسرى ، واطلقهم قازان وقطلوشاه . وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى اخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقون ، قلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا نفتكهم ولا ندع اسيراً لا من اهل الملة ولا من اهل الذمة ، واطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا واحساننا ، والجزاء على الله . وكذلك السبي الذي بين ايدينا من النصارى يعلم كل احد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما اوصانا خاتم النبيين » .

(٢) ـ ارجع الى العقود الدرية ص ١٢٠ ففيها رسالة طويلة في الحث على الجهاد .

ولكن عاد الذعر وعاد الاضطراب لما بلغهم المرجفون ان التتار قد وصلوا الى حلب ، وبلغهم في الوقت نفسه ان السلطان ناصر الدين قد قفل راجعاً الى مصر .

تلفت الناس في ذعرهم لا فرق بين حاكم ومحكوم الى البطل المؤمن القومي تقي الدين بن تيمية ، فخرج الى جند الشام يحثهم على القتال ويدفعهم الى الميدان ، ووعدهم بالنصر والظفر ، وتلا قوله تعالى : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور﴾ .

وقد طلب اليه الأمراء ونائب السلطنة ان يركب الى مصر على البريد ليستحث السلطان على المجيء ، ولكنه لم يصل الى السلطان الا وقد عاد الى القاهرة بعسكره راضياً من الغنيمة بالاياب . وانتثر الجند المجموع ، وتفارطت الحال ، فتقدم البطل الورع ، واستحث السلطان وامراءه على اعداد العدة وجمع الجند ، وقال في حدة وغلظة قوله الحق والمصلحة : « ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته اقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ، ويستغله في زمن الأمن » . ثم قال : « « لو قدر انكم لستم حكامه ولا ملوكه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر ، فكيف وانتم حكامه وسلاطنيه وهم رعاياكم وانتم مسؤولون عنهم » ثم قوي جأش الأمراء . وما زال بهم حتى خرج السلطان بجنده الى الشام[1] .

ولكن ابن تيمية وقد ترك دمشق استولى عليها الذعر ، اذ قد اشتدت الاراجيف . ونادى منادي التردد والهزيمة بالفرار ، فنادى والي المدينة بأن من قدر على شيء فليخرج ، ولكن عاد ابن تيمية اليهم قبل ان يجيبوا ذلك الناعب نعيب البوم ، فعادت القلوب الى جنوبها ، واتاهم الامن من ثلاث نواح ، فابن تيمية قد عاد اليهم وهو أمنهم وملاذهم ، وتأكدوا اقبال جند السلطان ، ثم تأكد لديهم امر آخر ، وهو ان التتار قد عادوا من عامهم هذا ، لما أحسوا بأن خصومهم قد اعدوا العدة وأخذوا الأهبة ، ولاحظوا ضعفاً في انفسهم ، ولم يتقدموا وهم على هذا الضعف .

عاد ابن تيمية الى درسه وعلمه ، وهو لم يفارقه ، في الجملة الا بالقدر الذي كان يضطر اليه في مقابلات الملوك والسلاطين ومخاطبة الجموع والجنود ، وان هذه المحنة التي نزلت بدمشق اظهرت ابن تيمية بطلها ورجلها ، لا عالمها فقط ، ولعل العلم يشاركه فيه غيره بقدر ، ولكن في مواقفه هذه لم يشاركه احد ، وقد تمكنت اقدامه بهذا في الدولة وعند العامة . وما مكنها الا همته وشجاعته ، وصبره وايمانه بالحق والفضيلة فوق علمه .

---

(١) ـ راجع في هذه الاخبار كلها في البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ ص ١٥ .

ولقد أقام الفضيلة والاخلاق عندما صار رجل دمشق ، وحاكمها غير المتوج عندما فر حكامها في سنة ٦٩٩ ، واصبح انكار المنكر حقاً عليه بالفعل لا بالقول والقلب ، اذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها ، فقد رأى الحانات والخمور فأخذ هو وصحبه ، وقد صاروا حكام الساعة ، فحطموا أواني الخمر ، وشقوا قرابها ، واراقوا الخمور ، وعزروا اصحاب[١] الحانات المتخذة للفواحش . فلقى ذلك من العامة ترحاباً ، اذ رأوا حكم القرآن ينفذ ، وعهد الرسول يعود .

واذا عز عليه ان يقيم الحقوق بقوة الحكم اقامها بقوة الاقناع وهو لها أملك ، وعليها اقدر ، فان جند التتار عندما دخلوا مدينة دمشق سنة ٦٩٩ وعاثوا بها فساداً ، اتصل بهم سكان الجبال ومالئوهم ، فخرج اليهم ابن تيمية لقتالهم فجاءه رؤساؤهم مسترشدين مستهدين ، فوعظهم واستتابهم ، وبين الصواب لهم ، والتزموا برد ما كانوا قد اخذوا من مال الجيش ، وقرر عليهم اموالاً كثيرة يحملونها الى بيت المال ، واقطعت اراضيهم وضياعهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ، ولا يلتزمون الملة ، ولا يدينون دين الحق ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله[٢] .

انتهت المحنة ولابن تيمية سلطان من الحكم ، ويظهر انه بعد ان زالت المحنة لم يسحب منه ذلك السلطان الذي اكتسبه بقوة الحق ، وقوة الخلق ، وقوة العلم ، فقد كان مرجع الحكام مع انه ليس له منصب رسمي يؤهله للحكم فليس قاضياً ولا والياً ، ولكن سودته مواهبه وهمته وعلمه .

ففي شهر جمادى الاخرة من سنة ٧٠١ عقد مجلس لبعض اليهود ، والزموا بأداء الجزية اسوة بامثالهم من اليهود والنصارى ، فاحضروا كتاباً يزعمون انه من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف الفقهاء عليه تبينوا انه مكذوب مفتعل لما فيه من الألفاظ الركيكة واللحن الفاحش ، وقد جاء لهم ابن تيمية وبين لهم خطأهم وكذبهم وان الكتاب مزور مكذوب ، فانابوا الى اداء الجزية .

ولقد كان ابن تيمية يقيم بعض الحدود بهذا السلطان فثار جماعة من حساده وشكوا منه انه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان ، وتكلم هو ايضاً فيمن يشكون منه ، وقد اقر الوالي عمل ابن تيمية ، وسكنت الفتنة عند هذا الحد[٣] .

---

(١) ـ الكتاب المذكور ص ١١ .

(٢) ـ الكتاب المذكور ص ١٩ .

(٣) ـ راجع في هذه الأخبار كلها البداية والنهاية .

كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها ابن تيمية مثيرة لحسد الحساد ، وحقد الحاقدين ، ولم يجدوا السبيل لأن ينفثوا سم حقدهم عند الأمراء ، لأن العدو يهددهم ، وقد علمت منزلة ابن تيمية وقت ان يجد الجد ، ويشتد الأمر ، وتتأزم الأحوال ، فارادوا ان يكيدوا له من هذه الناحية ، ليكون الكلام اوقع ، ولعله ينال استماعاً .

فقد جاء الى نائب السلطنة كتاب فيه ان ابن تيمية ومعه غيره من العلماء والأفراد والخواص يناصحون التتار ويكاتبونهم ، ويؤيدون من يمالئهم ، ولكن تبين نائب السلطنة بادىء الرأي انه مفتعل ، وتحرى عن واضعه ، ولم يحتج الى التحري عن حقيقته ، فعرف كاتبه وعزر تعزيراً شديداً ، وقطعت يد كاتبه[1] .

جاء التتار بجموعهم الى الشام سنة ٧٠٢ ، وساوروا دمشق ، وارجف المرجفون ، وخرجت القلوب من جنوبها ، واستعدت الجيوش المصرية والشامية لملاقاتها ، وقد اخذ دعاة التردد والهزيمة ينشرون الفزع في قلوب الناس ، ولكن تحالف العلماء والقضاة والأمراء على ان يلاقوا العدو ، ولا يفروا من دمشق ، وابن تيمية يثبت القلوب ويعدهم بالنصر متأولاً قوله تعالى مؤمناً به « ومن بغى عليه لينصرنه الله » حتى انه ليقول حالفاً بالله : « إنكم لمنصورون » فيقول له بعض الأمراء قل ان شاء الله ، فيقول اقولها تحقيقاً لا تعليقاً .

اطمأنت القلوب وسكنت ، ولكن دعاة الهزيمة اتوا الناس من ناحية اخرى ، من ناحية الدين ، كيف نقاتل المسلمين ؟! ان ذلك ليس بحلال ، يقولون تلك المقالة كانهم مهاجمون وليسوا مدافعين عندئذٍ يتقدم ابن تيمية مبيناً الحقيقة الدينية في تلك القضية ، فيقول : « هؤلاء الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا انهم احق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون انهم احق باقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو اعظم منه باضعاف مضاعفة » . ثم قال لهم : « اذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني » .

---

(١) ـ ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال : لما وشوا به الى السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله واحضره بين يديه قال من جملة كلامه انني اخبرت انك قد اطاعك الناس ، وان في نفسك اخذ الملك فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عالٍ سمعه كثير ممن حضر : انا افعل ذلك ؟ والله ان ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلساً ، فتبسم السلطان لذلك ، واجابه في مقابلته بما اوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : انك والله لصادق وان الذي وشى بك الي لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى اليه من حقه من اقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

حرك ابن تيمية النخوة في القلوب ، وسكن جأش السكان ، ثم امتطى صهوة جواده ، وخرج الى ميدان القتال محارباً ، فما كان لمثله ان يدعو الى الثبات في الجهاد وهو ينكص على عقبيه ، بل يتقدم الجموع ، وذهب الى مرج الصفر قريباً من دمشق ، وابتدأت الموقعة التي تسمى في التاريخ موقعة شقحب في رمضان سنة ٧٠٢ . وتلاقى الجمعان ، ووقف الفارس الجريء موقف الموت مقاتلاً ، وهو يثبت قلوب من حوله بقتاله وفعاله ، وقد التقى قبل ان يقف موقفه من القتال بالسلطان يحثه وجنده على الجهاد في سبيل الله واحقاق الحق ، ورد المعتدين ، وكان قد بلغه انه كاد يرجع ، فسأله السلطان ان يقف معه في المعركة فقال : « السنة ان يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف الا معهم » وقد حث الجند وأمراءهم على الافطار ليتقووا على القتال ، وكان يروي لهم قوله ﷺ للصحابة في غزوة الفتح : « انكم ملاقوا العدو والفطر اقوى لكم » وكان يدور على الاجناد والأفراد يأكل امامهم من شيء معه ليبين لهم ان افطارهم ليقووا على القتال افضل .

وقعت الواقعة واشتد القتال واشترك فيه ابن تيمية ، ووقف هو واخوه موقف الموت ، وأبلى بلاء حسناً . وصدق اهل الشام وجند مصر القتال ، وقد استمر طول اليوم الرابع من رمضان ، حتى اذا جاء العصر ظهر جند مصر والشام ، وانحسر جند التتار ، فلجأوا الى اقتحام الجبال والتلال ، وجند السلطان الناصر - او بالاحرى جند ابن تيمية - وراءه يضربون اقفيتهم ، ويرمونهم عن قوس واحدة ، حتى انبلج الفجر ، وقد انكشفت الغمة ، وزال خطر التتار من بعدها ، وكانت ثاني مرة يمنون فيها بالهزيمة ، وآخر مرة يغيرون[1] ، وقد كانوا مخاف الشرق والغرب . وقد كانت غاراتهم العنيفة من اقدم العصور اشبه بهزات الطبيعة العنيفة التي تغير وجه الأرض ، كما قال جيبون . فقد قال في تصوير هول الغارات التي يشنونها : « ان بعض سكان السويد قد سمعوا عن طريق روسيا نبأ ذلك الطوفان المغولي ، فلم يستطيعوا ان يخرجوا كعادتهم للصيد في سواحل انكلترا خوفاً من المغول[2] !! » .

---

(١) - ابن تيمية : للأستاذ محمد ابي زهرة .

(٢) - وفي الحقيقة ان شيخ الاسلام ابن تيمية لم يكن بجهاده قد انقذ العالم العربي والاسلامي فحسب من شر التتار ، بل انقذ الغرب ايضاً الذي كان يشعر بالخطر كما قال جيبون . ونجى الحضارة الانسانية من الدمار ، بينما فر كثير من الأدعياء المتمشيخين من دمشق الى مصر لما اشتد وطيس المعركة وفر بسببهم كثير من العامة تاركين دمشق مفتوحة للعدو !! وهكذا كانوا يظهرون شجاعتهم في محاربة المصلحين وجبنهم في محاربة العدو والمستعمر فيا للعار والشنار .

شجاعة الشيخ وبأسه عند القتال

ودخل بعد مدة جيش الاسلام المنصور دمشق المحروسة . والشيخ في اصحابه شاكياً سلاحه ، داخلاً معهم ، عالية كلمته ، قائمة حجته ، ظاهرة ولايته ، مقبولة شفاعته ، مجابة دعوته ، ملتمسة بركته ، مكرماً معظماً ، ذا سلطان وكلمة نافذة ، وهو مع ذلك يقول للمداحين له : أنا رجل ملة لا رجل دولة !

ولقد اخبرني حاجب من الحجاب الشاميين ، امير من امرائهم ، ذو دين متين ، وصدق لهجة معروفة في الدولة قال[1] :

قال لي الشيخ - يوم اللقاء ونحن بمرج الصفر ، وقد تراءى الجمعان - : فلان . . اوقفني[2] موقفة الموت .

قال : فسقته الى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح اسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

ثم قلت له : يا سيدي ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو ، قد اقبل تحت هذه الغَبَرة المنعقدة ، فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفه الى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلاً ، ثم انبعث واقدم على القتال . واما انا فخيل اليَّ أنه دعا عليهم وان دعاءه استجيب منه في تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وما عدت رأيته ، حتى فتح الله ونصر ، وانحاز التتار الى جبل صغير ، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار .

قال : واذا انا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال ، وتخويفاً للناس من الفرار .

= اسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر «م.م»

(١) - العقود الدرية ص ١٧٧ .

(٢) - بالاصل « يا فلان ، الدين اوقفني » والظاهر ان كلمة « الدين » زائدة .

فقلت : يا سيدي ، لك البشارة بالنصر ، فانه قد فتح الله ونصر ، وها هم التتار محصورون بهذا السفح ، وفي غد ، ان شاء الله تعالى ، يؤخذون عن آخرهم .

قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده .

مقارنة بين النبوة عند الغزالي والنبوة عند ابن تيمية

لعل من خير الكتب التي عرضت لموضوع النبوة وموقف الغزالي منها كتاب Prophecy In Islam (النبوة في الاسلام) تأليف الاستاذ فيض الرحمن ، وقد طبع بلندن سنة ١٩٥٨ .

وقد بيّن المؤلف أن فكرة الغزالي عن النبوة ، إنما هي استمرار لفكرة ابن سينا عنها !

وابن سينا يرى ان النبي له ثلاث قوى : الأولى : قوة قدسية ، وهي تابعة لقوة العقل النظري ، ويتمكن بها النبي من إدراك الحد الأول دفعة واحدة .

والقوة الثانية : قوة خيالية او قوة المخيلة او التخيّل والحسّ الباطن بحيث يتمثل للنبي ما يعلمه من نفسه ، فيراه ويسمعه ، فيرى في نفسه صوراً نورانية هي الملائكة ، ويسمع اصواتاً هي كلام الله او وحيه ، وهذا كله من جنس ما يحصل للنائم في منامه(!) ومن جنس ما يحصل لبعض الذين يأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية ، ومن جنس ما يحصل لبعض المجانين (الذين يصابون بالصراع) (!) .

والقوة الثالثة : القوة النفسانية التي يتمكن بها النبي من التأثير في مادة العالم بحيث تحدث له الخوارق والمعجزات .

وقد تكلّم ابن سينا على هذه القوى في كتابه : (الشفاء) وفي العديد من كتبه ورسائله .

وقد نقل لنا الدكتور سليمان دنيا صفحات كاملة من كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » للغزالي وعقب على ذلك بقوله : « هذه هي خواص النبوة في نظر الغزالي ، وقد ذكر هذه الخواص الثلاث ولم يزد . . . وكذلك صنع ابن سينا . . . وقد اتفق مع

الغزالي فيما ذهب اليه من رأي او في معنى اصح اتفق الغزالي معه ، ولا أحب أن استرسل في ذكر كل ما اتفقا فيه لئلا يجرنا ذلك الى نقط النمط العاشر بتمامه » (يقصد من كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا) .

وكلام الغزالي في معارج القدس يُعترض عليه بالطعن في صحة نسبة الكتاب اليه .

ونرد على ذلك بأمرين : الأول بيان صحة نسبة الكتاب الى الغزالي والثاني : بيان اوجه التشابه بين كلام الغزالي في « المعارج » وكلامه في كتبه الأخرى ، وخاصة كتبه التي اتفق اكثر الباحثين على صحة نسبتها اليه .

اما بالنسبة للأمر الأول ، فقد أقرّ كثير من الباحثين بصحة نسبة كتاب « المعارج » الى الغزالي ، منهم اسين بلاثيوس الذي اعترف بأنه لا يوجد في كتاب « معارج القدس » إشارة الى كتاب من كتب الغزالي الأخرى ، ثم قال : « ولكن هذا لا يعني التشكيك في صحة نسبة الكتاب الى الغزالي »[1] .

ومنهم الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي ناقش صحة نسبة الكتاب الى الغزالي ثم قال : « وإن كان ما ورد فيه لا يخالف في شيء ما ورد في سائر كتب الغزالي »[2] .

ومنهم الأستاذ فيض الرحمن الذي يقرر « أن الغزالي يتابع ابن سينا في « معارج القدس » « متابعة تامة »[3] ثم يذكر في موضع آخر[4] أنه فيما يتصل بالخاصة الأساسية للنبوة لا يكاد يوجد إلا فروق طفيفة بين كتاب « المعارج » وكتاب : « المنقذ من الضلال » .

ومنهم الدكتور سليمان دنيا الذي يفرد صفحات كثيرة من كتابه « الحقيقة في نظر الغزالي » لبيان اوجه التشابه بين كتب الغزالي المختلفة ، وخاصة كتاب « معارج القدس » الذي تتشابه فصول كاملة منه مع فصول « الإحياء » وفصول في « الاقتصاد في الاعتقاد »

---

(١) ـ انظر كتاب مؤلفات الغزالي تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص (٢٤٥ ط) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة (١٣٨٠/١٩٦١) .

(٢) ـ المرجع السابق (ص ٢٤٤) .

(٣) ـ النبوة في الاسلام السابق (ص ٩٥ ـ ٩٦) .

(٤) ـ المرجع السابق نفسه (ص ١١٢) .

وفصول في « ميزان العمل »[1] .

ومنهم الدكتور عثمان امين[2] والدكتور محمد ثابت الفندي[3] والدكتور محمد غلاب[4] والدكتور محمود قاسم[5] والدكتور عبد الكريم عثمان[6] .

اما الأمر الثاني الذي يرد على من اعترض على صحة نسبة كتاب « المعارج » الى الغزالي فهو يعتمد على بيان اوجه التشابه بين كلامه في « المعارج » وكلامه في كتبه الأخرى وخاصة كتبه التي اتفق اكثر الباحثين على صحة نسبتها اليه[7] .

ومن أهم هذه الكتب كتاب « المنقذ من الضلال » وهو من آخر كتبه كما انه من الكتب التي لم يطعن احد ـ فيما نعلم ـ في صحة نسبتها اليه .

ويذكر الغزالي في هذا الكتاب ان المكاشفات والمشاهدات تحدث للصوفية في اول طريق التصوف « حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد » ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأفعال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق الخ [8] .

ثم يذكر الغزالي ان الله يخلق في الانسان حواسه من لمس ، وبصر وسمع ، وذوق ، ثم يخلق له العقل ، يقول الغزالي :

« وراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمور أُخرى ، العقل معزول عنها . . . »

وهذا الكلام يعني بعبارة اخرى ان الاجتهاد في طريق التصوف يوصل الى نفس علوم الأنبياء ويرى الامام ابن تيمية ان كلام الغزالي كان الأساس الذي بنى عليه ابن عربي فكرته عن خاتم الأولياء الذي يرى أنه أفضل من خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى النبي ، اي انه

---

(١) ـ الحقيقة في نظر الغزالي (ص ٩٣ ـ ٩٥) .
(٢) ـ في مقاله في مهرجان الغزالي بدمشق ، انظر مثلاً (ص ١٣٤ ـ ١٣٥) .
(٣) ـ في مقاله في مهرجان الغزالي بدمشق ، انظر مثلاً (ص ١٠٦ ـ ١٠٨) .
(٤) ـ في كتابه « المعرفة عند مفكري المسلمين » انظر (ص ٣٢٧ ـ ٣٣٨) .
(٥) ـ في كتابه : « في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام » (ص ١٤٥ ـ ٢٠٣ ـ ٢٠٩) .
(٦) ـ في مقاله في مهرجان الغزالي (ص ٦٦١ ـ ٦٦٥) .
(٧) ـ انظر مؤلفات الغزالي لبدوي (ص ٢٠٢) .
(٨) ـ المنقذ من الضلال (ص ١١٨) تحقيق عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر ، الطبعة الثالثة .

يأخذ من الله مباشرة اما محمد ﷺ ، فإنه يأخذ من جبريل الذي يأخذ من الله[1] .

ويعلق ابن تيمية على كلام الغزالي ، بأن هذا الكلام لا يقوله المسلمون واليهود والنصارى ، بل هو من أقوال الملاحدة من الصائبين والفلاسفة[2] .

النبوة عند ابن تيمية

رأينا فيما سبق كيف ان الغزالي كان تابعاً في آرائه عن النبوة للفلاسفة المسلمين الذين كانوا تابعين بدورهم للفلاسفة اليونانيين ، ورغم نقده لهم في بعض كتبه ، فإن الغزالي سار بأكثر آرائهم في النبوة في كتبه الأخرى ، وزاد عليهم بأنه التمس لآرائهم مزيداً من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة (مع الخطأ والتعسف في التأويل) كما أنه مزج الفلسفة بالتصوف ، مما مهد لمذاهب متفلسفة الصوفية المنحرفة مثل ابن عربي في وحدة الوجود ولذلك ، فإننا نلاحظ ان ابن تيمية اوقف جزءاً كبيراً من كلامه عن النبوة على عرض مذهب الفلاسفة ومن تبعهم ، ثم شرع في نقد هذا المذهب نقداً قوياً من الناحيتين العقلية والنفسانية وهو يمتاز في هذا النقد بفهمه العميق لآراء الفلاسفة ومعرفته بأصول تلك الآراء ، ثم بوضوح فهمه للفروق الكبيرة بين الفلاسفة ومذهب اهل السنة والجماعة .

ويعرض ابن تيمية لمذهب أهل السلف والجماعة في النبوات في اثناء نقده للفلاسفة والمتكلمين والصوفية وقد عرض ابن تيمية لمسألة النبوات في كثير من كتبه ، ولكنه خصص كتابين من كتبه لها ، اولهما واهمهما كتاب : « الصفدية » وقد كتبه للرد على من زعم ان معجزات الانبياء قوى نفسانية ، وهو يستهل الكتاب بعرض آراء الفلاسفة في النبوة ثم يجعل رده عليهم هو موضوع الكتاب الرئيسي .

واما الكتاب الثاني فهو كتاب النبوات ، ويهتم فيه ابن تيمية بالرد على آراء المتكلمين في مسألة النبوة ، وأرجح ان قسماً لا يستهان من الكتاب مفقود ويرى ابن تيمية ان اصل مذهب الفلاسفة في النبوة مستمد من كلام الصابئة والباطنية الذين كان منهم إخوان الصفا وابن سينا[3] .

---

(١) - انظر جامع الرسائل لابن تيمية (ص ٢٠٥ - ٢٠٦) .
(٢) - السبعينية (ص ١٩) .
(٣) - الصفدية مخطوط (في الظاهرية ١) .

ويـوجه ابن تيمية نقداً عنيفاً الى طريقة الباطنية التي اتبعها الفلاسفة ، وبعض مفلسفة الصوفية ، ووافقهم عليها الغزالي ، وينكر صحة ما يزعمه الباطنية في احاديث ينسبونها الى النبي مثل قولهم انه قال : « للقرآن باطن وللباطن باطن الى سبعة أبطن » .

ويقول ابن تيمية إنه إذا أريد بالعلم الباطن علماً مخالفاً لظاهر الشريعة فإن قائل ذلك إما ملحد زنديق ، وإما جاهل ضال ، وأنواع التأويل التي تلجأ اليها الفلاسفة وباطنية الصوفية هي من هذا النوع[1] .

وابن عربي وابن سبعين والتلمساني والسهروردي المقتول ، كان منهم من يرى ان باب النبوة مفتوح ، لا يمكن إغلاقه .

وكان السهروردي المقتول يقول : لا أموت حتى يقال لي « قم فأنذر »[2] .

ويذكر ابن تيمية ان هناك فروقاً أساسية بين الانبياء والسحرة ويمكن تلخيص هذه الفروق فيما يلي :

الأول : إن النبي صادق فيما يخبر عن الله ، لا يكذب ، اما السحرة والكهان ، فلا بد ان يكذبوا كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع واكثرهم كافرون ﴾الشعراء : ٢٢١ .

الثاني : الأنبياء لا يأمرون الا بالعدل ، وطلب الآخرة ، وعبادة الله وحده ، وفي أعمالهم البر والتقوى ، اما السحرة والكهان فيأمرون بالشرك والظلم . ويعظمون الدنيا ، وفي أعمالهم الإثم والعدوان .

الثالث : إن السحر والكهانة امور معتادة معروفة مقدورة للجن والانس وليست خارقة ، ويمكن معارضتها بمثلها . أمّا آيات الأنبياء فلا يمكن لأحد ان يعارضها بمثلها .

الرابع : ان السحر والكهانة يناله الانسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا مجرب عند الناس ، بخلاف النبوات ، فانه لا ينالها احد باكتسابه .

الخامس : ان النبوة لو قدّر انها تنال بالكسب فانما تنال بالتوحيد والصلاح .

السادس : انه اذا كان من المعجزات ما تقدر عليه الملائكة ، فإن الملائكة لا تكذب

---

(١) ـ رسالة في العلم الظاهر والعلم الباطن ، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠) .

(٢) ـ تعارض العقل والنقل (١ / ٣١٨) وقد تم طبعه باسم « درء تعارض العقل والنقل » . بتحقيق الدكتور رشاد سالم .

على الله ، ولا تدعي الرسالة او النبوة ، وإنما تفعل ذلك الشياطين .

السابع : إن كرامات الصالحين ممكنة ، ولكنها ليست خارقة ، وهي تُنال بالصلاح والدعاء والعبادة ، وأما معجزات الأنبياء ، فلا تنال بذلك ، حتى لو طلبها الناس ، إلا بأذن الله بها كما قال تعالى ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾(العنكبوت : ٥٠) .

الثامن : إن النبي ﷺ قد تقدمه انبياء ، فهو لا يأمر الا بجنس ما امرت به الرسل قبله ، فله نظراء يعتبر بهم ،وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتد بهم .

التاسع : إنّ ما يأمر به النبي يوافق العقول والفطر ، كما يوافق ما جاء به الأنبياء قبله ، فيوافق ما يأمرون به صريح المعقول وصحيح المنقول[1] .

مذهب ابن تيمية في الصفات

يرجع غالباً الى ثلاث قواعد :

١ ـ الأولى ان كل ما أثبته الله لنفسه او اثبته له رسوله من صفات يجب اثباته وما صرح الله او رسوله بنفيه عنه تعالى يجب نفيه وما لم يصرح الشرع لا بنفيه ولا باثباته يجب استفسار قائله . فان اراد به معنى صحيحاً موافقاً لما اثبته الشرع قبل والا وجب رده .

ويوضح تلك القاعدة قول ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص :

« وذلك ان ننظر فما وجدنا الرب قد اثبته لنفسه في كتابه اثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالاثبات اثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ .

واما الالفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر ائمة المسلمين لا اثباتها ولا نفيها وقد تنازع فيها الناس ، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى الا بعد الاستفسار عن معانيها ، فان وجدت معانيها مما اثبته الرب لنفسه اثبتت وان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ اثبت به حق وباطل ، او نفي به حق وباطل ، او كان مجملاً يراد به حق وباطل ، وصاحبه اراد به بعضها ، ولكن عند الاطلاق بوهم الناس او بفهمهم ما اراد وغير ما اراد ، فهذه الألفاظ لا يطلق

---

(١) - النبوات (ص ١٢٧ - ١٢٨) وهذه المقارنة منقولة باختصار من كتاب مقارنة بين الغزالي وابن تيمية (ص ٤٩ - ١٣٣) للدكتور محمد رشاد سالم .

اثباتها ولا نفيها[1] .

وكذلك قوله في منهاج السنة :

« فالواجب ان ينظر في هذا الباب فما اثبته الله ورسوله اثبتناه وما نفاه الله ورسوله نفيناه والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي فنثبت ما اثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني . واما الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين مثل لفظ الجوهر والمتحيز والجهة ونحو ذلك فلا تطلق نفياً ولا اثباتاً حتى ينظر في مقصود قائلها ، فإن كان قد اراد بالنفي والاثبات معنى صحيحاً موافقاً لما اخبر به الرسول ﷺ صوب المعنى الذي قصده بلفظه ولكن ينبغي ان يعبر عنه بألفاظ النصوص لا يعدل الى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد بها .

والحاجة مثل ان يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ، واما إن اريد بها معنى باطل نفى ذلك المعنى ، وإن جمع فيها بين حق وباطل اثبت الحق وابطل الباطل .

وإذا اتفق شخصان على معنى وتنازعا هل يدل ذلك اللفظ عليه ام لا ، عبر عنه بعبارة يتفقان على المراد بها وكان اقربهما الى الصواب من وافق اللغة المعروفة[2] .

٢ ـ أما القاعدة الثانية فمضمونها نفي مماثلة الله عز وجل لشيء من خلقه في ذاته وصفاته وافعاله فهو سبحانه لا يماثل شيئاً ولا يماثله شيء ، وكل ما ثبت له من صفات الكمال فهو مختص به لا يشركه فيه غيره .

واذا كان هناك من الاسماء ما يطلق على صفات الله كما يطلق على صفات خلقه فان هذا ليس الا محض اشتراك في الاسم لا يقتضي مماثلة صفاته لصفاتهم

فالصفة تتبع الموصوف فان كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة وان كان الموصوف هو العبد فصفاته مخلوقة[3] .

ويستدل ابن تيمية لنفي المماثلة من السمع بمثل قوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقوله

---

(١) ـ تفسير سورة الاخلاص .

(٢) ـ مناهج السنة جـ ص ٣٤٩ .

(٣) ـ مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٢ ص ٥٤

(هل تعلم له سمياً) وقوله (قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) .

ومن العقل بأن المتماثلين يجوز على احدهم ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

فلو قدر انه ماثل غيره في شيء من الأشياء للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الغير .

ومعلوم ان كل ما سواه ممكن قابل للعدم ، بل معدوم مفتقر الى فاعل ومصنع مربوب محدث .

فلو ماثل غيره في شيء من الأشياء للزم ان يكون هو والشيء الذي ماثله فيه ممكناً قابلاً للعدم بل معدوماً مفتقراً الى فاعل ممنوعاً مربوباً محدثاً[1] .

٣ ـ القاعدة الثالثة : ان الكمال ثابت لله تعالى بل الثابت له اقصى ما يمكن من الاكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه الا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة ويتنزه عن الاتصاف بضده .

فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها بريء عن سمات النقص والاحتياج .

وكل كمال ثبت للمخلوق وامكن ان يتصف به الخالق كان الخالق اولى به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق اولى بتنزيهه عنه .

وقد قدمنا ان ابن تيمية قد عول على هذه القاعدة تعويلاً كبيراً ويرى انها كانت ولا تزال معتمد العقلاء في اثبات الله عز وجل وصفاته[2] .

شيخ الاسلام والصوفية

قال الاستاذ محمد ابي زهرة[3] استاذ الشريعة في كلية الحقوق في جامعة القاهرة .

شغل الفكر الاسلامي بأفكار أثارها المتصوفة ، تتعلق بصلة الله سبحانه وتعالى

---

(١) ـ منهاج السنة جـ ص ١٩٥ .

(٢) ـ عن كتاب : « ابن تيمية السلفي » باختصار .

(٣) ـ ان هذا البحث والذي بعده منقولان عن كتابه (ابن تيمية)

بخلقه ، وان المعروف بين علماء المسلمين ،المقرر في مصادر الدين انها صلة الخالق بالمخلوق ، والمبدع بما أبدعه ، والله واجب الوجود الذي ليس كمثله شيء ، والمخلوق ممكن الوجود ، عرض له الوجود بعد ان لم يكن .

لكن بعض المتصوفة أثاروا اموراً تجعل الصفة ليست كذلك فقط ، فقد قالوا تابعين لآراء قديمة بجواز حلول الله في بعض الآدميين اذا كان مستعداً لذلك بصفاء نفسه وصقل روحه ، واظهر من قال ذلك الحلاج ، ثم جاء ابن عربي[1] فحكم بوحدة الوجود ، وان الموجود واحد ، تعددت صوره واشكاله ومظاهره ثم جاء بعد ذلك فكرة الاتحاد بين المخلوق والخالق من حيث المحبة والشوق ، فانه بهذه المحبة يتصل بالله تعالى ويعلو اليه ، وانه عندما يصل الى درجة الاتحاد بالذات العلية يكون في غيبوبة يسمونها المحو ، اي فناء ذاته الفانية في ذات الله الباقية او يسمونها السكر لأنه يغيب فيها عن الحس ، ويسمي اولئك هذه الحال بوحدة الشهود ، وهي مقابل ما قاله ابن عربي وحدة الوجود . وقد جاء ذلك المذهب في شعر عمر بن الفارض[2] . وحكم ابن عطاء الله السكندري الذي عاصر ابن تيمية وشكاه الى أولي الأمر سنة ٧٠٧ .

---

(١) ـ ومن أقواله الدالة على وحدة الوجود :

يا خالق الأشياء في نفسه ... انت لما تخلقه جامع
تخلق ما ينتهي كونه ... فيك ، فأنت الضيق الواسع !!

ومن اقواله :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان !!
وبيت الأوثان ، وكعبة طائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
اديـن بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه ، فالحب ديني وايماني !!

ومن اقوال الحلاج يبحث عن حلول محبوبه فيه وهو الله جل جلاله ، تنزه عن ذلك :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرته ... واذا أبصرته أبصرتنا ؟

ومن اقوال الحلاج ايضاً يصف حلول الله سبحانه فيه :

أنت بين الشغاف والقلب تجري ... مثل جري الدموع من اجفان
وتحل الضمير جوف فؤادي ... كحلول الأرواح في الأبدان

(٢) ـ ومن أشنع ما قاله ابن الفارض في وحدة الوجود مما يؤدي الى اسوأ المفاسد الخلقية قوله :

وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل ... بتقييده ميلا لزخرفة زينة
فكل مليح حسنه من جمالها ! ... معار له بل حسن كل مليحة !
بها قيس لبنى هام ، بل كل عاشق ! ... كمجنون ليلى ، او كثير عزة
فكل صبا منهم الى وصف لبسها ... بصورة حسن لاح في حسن صورة !
وما ذاك الا أن بدت بمظاهر ... فظنوا سواها وهي فيها تجلت !!

نقض ابن تيمية هذه المذاهب التي تربط الخالق بالمخلوق ، لأنه اولاً رآها منافية لمعنى توحيد الله سبحانه وتعالى الذي شرحه وبينه ، وثانياً لأنه رأى بعض قائليها يدعون لأنفسهم حالاً يعلون فيها على التكليف ، وابن تيمية يرى ان من ينزع ذلك المنزع معطل لأحكام الشرع خالع الربقة ، وثالثاً لأنه رأى الناس يزعمون في أصحابها قدرة خارقة للعادة ، فيتقربون الى الله بهم ، وهم من يسمون عندهم اولياء .

رأى ابن تيمية فيهم ذلك فشن عليهم حرباً شعواء أقض بها مضاجعهم ونالوا منه عند السلطان والناس ، ونال منهم عند الناس ، ولقد ناقش اقوالهم مناقشة العارف لها الفاحص لدقائقها ، والعارف لأسرارها ، ولكنه سماها كلها مذهب الاتحاد ، او الاتحاديين ، وكأنه نظر الى المعنى المشترك في هذه الأمور الثلاثة ، وهي وحدة الوجود ، والحلول ، والفناء في الله بالمحبة ، وذلك لأن هذه المناهج الثلاثة تلتقي في معنى الاتحاد ، اتحاد المخلوق بالخالق ، بيد ان وحدة الوجود فيها اتحاد لا تعدد فيه ، فليس هناك اثنان ، بل وحدة لاثنية فيه ، والآخران فيهما اتحاد بين اثنين ، على تفرقة بين الاصطلاحين .

ولقد قال في مقدار فهمه لمذهب هؤلاء الاتحاديين في نظره : « لقد افترقوا بينهم على فرق ، ولا يهتدون الى التمييز بين فرقهم ، مع استشعارهم انهم مفترقون ، ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم وسر مذهبهم صاروا يعظمون ذلك ، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم ، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم واموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذل النصارى لرؤسائهم ، والباطنية لكبرائهم ، وما بذل آل فرعون لفرعون . وكل من يقبل قول هؤلاء فهو اما جاهل بحقيقة امرهم ، واما ظالم يريد علواً في الأرض ، وفساداً ، او جامع بين الوصفين وهذه حال اتباع فرعون ، الذين قال الله فيهم : « فاستخف قومه فأطاعوه » .

ويرى رضي الله عنه أنه يكفي لرد هذه المذاهب تصورها ، فان تصورها كافٍ في بيان فسادها ، ولا يحتاج مع حسن التصور الى دليل آخر « وانما تقع الشبهة لأن اكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم » .

ويقول مشنعاً على مذهب وحدة الوجود : « اصلهم الذي بنوا عليه ان وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين وجود الرب ! لا أنه متميز عنه منفصل في ذاته ، وان كان مخلوقاً مربوباً مصنوعاً له قائماً به ، وهم يشهدون ان في الكائنات تفرقاً وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا الى جمع يزيد الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها » .

وهو مع شدته على المذهب وقائليه يقول في ابن عربي قولاً رقيقاً نسبياً ، فيقول : « مقالة ابن عربي مع كونها كفراً هو أقربهم الى الاسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو ما تم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل اخرى ، والله اعلم بما مات عليه » .

يقوم مذهب ابن عربي في نظر ابن تيمية على دعامتين ، او اصلين كما عبر هو :

احدهما : ان المعدوم شيء ثابت في حال العدم اي ان كل معلوم يمكن وجوده ـ حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم ، لأنه لولا ثبوتها ما صح قصده بارادة ايجاده ! لأن القصد يستدعي التمييز ، والتمييز لا يمكن الا في شيء ثابت ، وعلى ذلك لا يكون ايجاد المعدوم خلقاً لماهيته وحقيقته وعينه ، بل هو جعل للصورة المحدثة من حيوانية او نباتية او معدنية او حجرية او نحو ذلك من الاعراض المتغيرة ، اما الجوهر فثابت[1] .

ثانيهما : ان وجود الخلق هو وجود الحق وعينه ، ويقرر ابن تيمية ان ذلك هو مفتاح كلام ابن عربي وفلسفته ، ويقول في ذلك : « فمن فهم هذا فهم كلام ابن عربي نظمه ونثره ، وما يدعيه من ان الحق يغتذي بالخلق ، لأن وجود الاعيان الحادثة معتمد بالاعيان الثابتة في العدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان الحادثة ، ويزعم ان هذا هو شر القدر ، لأن الماهية لا تقبل الا ما هو ثابت لها في العدم في انفسها ، فهي التي احسنت واساءت ، وحمدت وذمت ، والحق لم يعطها شيئاً الا ما كانت عليه حال العدم والصورة العارضة .

وبعد ان يقرر ابن تيمية مذهب ابن عربي كما رآه يعود عليه بالنقض والهدم ، والمقصد الذي يتجه اليه اولاً وبالذات في هدمه هو بيان انه لا يتفق مع الحقائق المقررة في الاسلام ، وانه والاسلام على طرفي نقيض لا يجتمعان ولا يتلاقيان ، ولذا يتجه الى نقضه بالمنقول مع المعقول ، ويعتمد على المنقول اكثر لسببين :

اولهما : ان ذلك المذهب الفلسفي هو من ضمن مذاهب الفلاسفة الذين حكموا بقدم العالم ، وهو ان لم يكن مثلهم قد قاربهم او سار على منهاجهم ، وقد ناقش ابن تيمية اولئك الفلاسفة في مذاهبهم ، وبين بطلانها في كتبه وبحوثه المختلفة مثل« منهاج السنة » وغيره .

---

(١) ـ رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧

ثانيهما : ان ابن عربي قد اعتنق رأيه كثيرون من المسلمين ، وحسبوه اسلاماً ، بل حسبوه لب الاسلام ومعناه ! وخصوصاً أن ابن عربي زينه لهم باثبات ان محمداً ﷺ هو العقل الأول ، وانه كان قبل كل شيء ، فسهل على بعض المسلمين قبوله ، ورغب كثيرون في اعتناقه ، وكادت الفكرة فيه تعم الصوفية في عصر ابن تيمية ، لذلك وجد ابن تيمية ان الحاجة ليست الى ابطال اصله العقلي فقط ، بل هي ماسة وضرورية لابطاله من الوجهة النقلية ، ولذلك هاجمه بمجرد تمام تصويره بأنه منافٍ للمقررات الاسلامية المعلومة من الاسلام بالضرورة فقال : « فتدبر كلامه ، كيف انتظم شيئين : انكار وجود الحق ، وانكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذي خلق ، فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر لرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، اذ ليس هناك الا اعيان ثابتة ، ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ، ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ، ولا الوجود مخلوق[1] .

وعندما يتجه ابن تيمية الى ابطال ذلك المذهب بالنقل والعقل ، يبتدىء فيبطل الدعامة الأولى من دعائمه وهي ان المعدوم كان شيئاً وكانت ماهيته ثابتة ، فيقول في ذلك :

« والذي عليه اهل السنة والجماعة وعامة بني آدم من جميع الأصناف ، ان المعدوم ليس في نفسه شيئاً ، وان ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع في القديم ، قال الله تعالى لزكريا « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » فأخبر انه لم يك شيئاً . وقال تعالى : « اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » وقال تعالى : « ام خُلقوا من غير شيء ام هم الخالقون » فأنكر عليهم اعتقادهم ان يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم ، او خلقوا هم انفسهم » .

ثم يرد استدلالهم ببعض الآيات مثل قوله تعالى : « انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون » . فيقول قد استدل بها من قال :المعدوم شيء ،وهو حجة عليه ، لأنه اخبر انه يريد الشيء ، وانه يكونه ، وعندهم انه ثابت في العدم ، وانما يراد صورته لا عينه نفسه . والقرآن قد اخبر ان نفسه تراد ، وتكون ، ويعتمدون على ان الوجود صفة عارضة على الذات وهي غير الذات ، فيقول ابن تيمية في رد قولهم : « ان الذي عليه اهل السنة والجماعة وعامة العقلاء ان الماهيات مجهولة ، وان ماهية كل شيء عين وجوده ، وانه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس في الخارج الا الشيء الذي هو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائداً على ذلك »[2] .

ويبطل ابن تيمية الأصل الثاني ، وهو الوحدة بين الحق والخلق ، او بين المخلوق

---

(١) ـ مذهب الاتحاديين ص ١٧

(٢) ـ الرسالة المذكورة ص ١٥ .

والخالق بوجوه عقلية كثيرة ، ووجوه شرعية ، ولنحرر واحداً من الأدلة العقلية التي ساقها ! وهو أولها .

لقد قرر ابن تيمية ان هؤلاء يرون ان هذه الحقائق الكونية كانت معدومة في نفسها ، ولكنها اشياء في عينها ، وفي علم الله سبحانه ، وفي تجليه المطلق ، ووجوده المطلق ، وكانت متحدة بنفسه ووحدته الذاتية ، ثم كانت بعد ذلك على هذه الأشكال . فينظر ابن تيمية كيف تحولت من حالها الأولى ، أخلقها الله وبرأها وجعلها موجودة ، ام لم تزل على حالها الأول معدومة وان كانت شيئاً ولها ماهية ، فان كانت لم تزل معدومة ترتب على ذلك الا يكون شيء من الكونيات موجوداً ، وهذه مكابرة للحس والعقل والشرع ، ولا يقوله عاقل ، ولم يقله عاقل ، وان كانت موجودة بعد ان كانت معدومة على النحو الذي يقررونه في معنى العدم ، يترتب على ذلك الا تكون وموجدها شيئاً واحداً ، لأنه لم يكن معدوماً ووجد ، ولأنه هو المؤثر فيها بهذا التغيير ، ويجب ان يكون المؤثر والمتأثر شيئين متغايرين[1] .

ويبين هذا المذهب من الناحية الدينية فيقول : « وجماع امر صاحب الفصوص[2] وذويه هدم اصول الايمان الثلاثة ، فان اصول الايمان : الايمان بالله ، والايمان برسله ، والايمان باليوم الآخر ، فأما الايمان بالله فزعموا ان وجوده وجود العالم ليس للعالم صانع غير العالم ، واما الرسول فزعموا انهم اعلم بالله منه ومن جميع الرسل ، ومنهم من يأخذ العلم بالله الذي هو التعطيل ووحدة الوجود من مشكاته[3] ، وانهم يساوونه في اخذ العلم بالشريعة عن الله ، واما الايمان باليوم الآخر فقد قال :

فلم يبق الا صادق الوعد وحده ... وبالوعيد الحق عين تعاين
وان دخلوا دار الشقاء فانهم ... على لذة فيها نعيم يباين

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله انه قال : « ان النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذٍ فلا خوف ولا محذور ، ولا عذاب لأنه أمر مستعذب[4] » .

ويرى ابن تيمية ان ذلك المذهب يسقط التكليف ويبيح المآثم ، فيقول : « ثم انه في الأمر والنهي عنده الآمر والناهي والمأمور والمنهي واحد ، ولهذا كان اول ما قاله ابن عربي في الفتوحات المكية التي هي اكبر كتبه :

---

(١) ـ مذهب الاتحاديين ص ٢٧

(٢) ـ هو ابن عربي لأن مذهبه دونه في كتابه الفصوص وكتابه الفتوحات المكية .

(٣) ـ يعرض بحجة الاسلام الغزالي صاحب كتاب مشكاة الأنوار .

(٤) ـ رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧٤ .

الـرب حـق والـعـبـد حـق يـا لـيـت شـعـري مـن المـكـلف ؟
إن قـلـت عـبـد فـذاك رب او قـلـت رب أنى يـكـلف ؟!

ولكي يقبح مذهبه في نظر العامة الذين غزت هذه الأفكار نفوسهم وان لم يفهموا معناها ينقل عن العلماء الذين لهم منازل خاصة عند العامة في مصر والشام رأيهم في ابن عربي وتكفيره[1] او تقبيح مذهبه فينقل عن القسطلاني وابن دقيق العيد رأيهم فيه ، وينقل عن عز الدين بن عبد السلام قوله في ابن عربي : « شيخ سوء مقبوح ، يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجاً ! » .

ولا يكتفي بالنقل عن الفقهاء والمحدثين ، بل ينقل عن الصوفية ، فينقل عن ابي العباس الشاذلي تلميذ ابي الحسن الشاذلي انه قال في اصحاب مذهب وحدة الوجود : « هؤلاء كفار يعتقدون ان الصنعة هي الصانع »[2] .

ويسترسل ابن تيمية في ابطال هذا المذهب بالأدلة العقلية تارة ، والنقول تارة اخرى ، ويشنع عليه بأقوال كبار رجال العصر فيه لينفر الناس منه ، ويبعدهم عنه اذ كان يخشى على العامة منه ، وقد اعتنقه بعضهم من غير ان يفهمه ! .

وانا نكتفي بهذا القدر من نظر ابن تيمية الى مذهب وحدة الوجود ، فلننتقل الى نظره في المذهبين الآخرين المشاركين له في الاتحاد بذات الله تعالى ، وان افترقا في المعنى ، وأولهما مذهب الحلول الذي نادى به الحلاج كما بينا وغيره ، وقد اختلفت فيه الأنظار .

ويحكي ابن تيمية ان القائلين بالحلول فريقان : فريق يقول ان الله سبحانه حال بذاته في كل مكان ويسميهم حلولية الجهمية ، ويقول فيهم : « هم الذين يقولون انه بذاته في كل مكان ، كما تقول النجارية اتباع حسن النجار »[3] ويرى ان القائلين بالحلول على ذلك النحو يتقاربون من القائلين بوحدة الوجود ، ولكن كان ثمة فرق دقيق ، وهو ان اصحاب وحدة الوجود يرون ان الوجود كله شيء واحد ، اما هؤلاء الحلوليون فانهم يرونهما متغايران ، ولكن الموجد حل في الموجود .

والفريق الثاني هم الذين قالوا ان الله يحل في بعض مخلوقيه ، كما يدعون من انه حل في الحلاج ، ومهما يكن فان الحلاج من القائلين بذلك وهو القائل :

---

(١) ـ لا زلنا ننقل عن الاستاذ الشيخ محمد ابي زهرة .
(٢) ـ راجع هذه النقول في الرسالة المذكورة ص ٧٥ و ٧٦ .
(٣) ـ مجموعة الرسائل والمسائل ـ الجزء الأول ـ ص ٧٠ .

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
حتى بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب !!

ويقول ابن تيمية في هذا المذهب انه كقول النصارى في المسيح عليه السلام ، بل انه يقول انه شر من قول النصارى « لأن النصارى ادعوا ذلك في المسيح لكونه خلق من غير أب ، والشيوخ لم يفضلوا في نفس التخليق ، وانما فضلوا بالعبادة والمعرفة والتحقيق والاتحاد ، وهذا امر حصل لهم بعد ان لم يكن ، واذا كان هذا سبب الحلول ، وجب ان يكون الحلول فيهم حادثاً ، لا مقارناً ، وحينئذٍ فقولهم ان الرب ما فارق ابدانهم او قلوبهم طرفة عين قط كلام باطل »[1] .

وان الذين يفرقون بين قول هؤلاء وقول النصارى : يقولون ايضاً ان المسيح عليه السلام هو ابن الله في نظرهم : فالعنصر الألـهي فيه هو الأصل ، والناسوت عارض له ، اما الحلوليون في الاسلام فانهم يقولون ان العنصر الانساني الأصل ، هو والعنصر الإلهي حل فيه ، بفضل العبودية والمحبة حتى فني في الله سبحانه وتعالى .

ومهما يكن من قرب الفكرة بين الحلاج وقول النصارى فمن المؤكد ان نظره بعيد عن الاسلام بعد النصرانية عنه !

ولا شك في ان من سلك ذلك المسلك يخالف المعقول والمنقول .

هذا نظر ابن تيمية الى مذهب الحلول وهو رأي سليم لا شبهة فيه ، والمذهب الثالث الاتحاد ، واصحابه كما ذكرنا عند الكلام على الصوفية في عصر ابن تيمية يقررون ان الناسكين المتعبدين قد تصفو نفوسهم وتعلو حتى تفنى في ذات الله سبحانه وتعالى ، وهذا المذهب لا ينظر اليه ابن تيمية على انه كفر كالمذهبين السابقين ، ولكنه يرى انه لا يخلو من بعد عن حقيقة الشريعة ، وذلك اذا وصل الحال التي يدعون فيها سقوط التكليف ، فانه لا يرتضي ذلك ولا يقبله ، فانه زيغ عند من يعتقده ، فالفناء في الله يقبله ما لم يؤد الى القول الذي يزعمه بعض المتصوفة .

ولقد قسم الفناء الى ثلاثة اقسام : اثنان غير محمودين ، وواحد منها محمود ، وهذه هي الأقسام الثلاثة :

القسم الأول : وهو المحمود الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل ، وانزلت به الكتب ، وهو ان يفنى عما لم يأمر به الله بفعل ما امر الله به ، فيفنى عن عبادة غيره

---

(١) ـ المجموعة المذكورة جـ ١ ص ٨٠ .

بعبادته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وطاعة رسوله ، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه ، وعن محبة سواه بمحبته ومحبة رسوله ، وعن خوف غيره بخوفه ، بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله ، وبحيث يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، كما قال تعالى : « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » فهذا كله مما امر الله به .

القسم الثاني : وهو الذي يذكره الصوفية ، وهو ان يفنى عن شهود ما سوى الله فيفنى بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته ، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله ، فهذه حال ناقصة قد يعرض لبعض السالكين وليس هو من لوازم طريق الله ، ولهذا لم يعرض مثل هذا النبي ﷺ والسابقون الأولون ، ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبيناً . وكذلك من قال انه لوازم طريق الله فهو مخطىء ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض ، وليس هو من اللوازم التي تعرض لكل سالك .

القسم الثالث : « وهو الفناء عن وجود السوي ، بحيث يرى ان وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، وان الوجود واحد بالعين ، فهو قول اهل الالحاد والاتحاد الذين هم من اضل العباد »[1] .

والقسم الثاني هو الذي ينطبق عليه الفناء الذي يقوله اصحاب الاتحاد . واما الثالث فهو يتجه الى قول اصحاب وحدة الوجود ، وانه يحكم على اصحاب القسم الثاني بانهم ضالون ، ولم يحكم بانهم ملاحدة ، ولا زنادقة ، بل قال: جهلة او ضالون ، ولكنه يغير الحكم اذا قالوا انهم يصلون الى الحال التي يسقط فيها التكليف في زعمهم .

منهج ابن تيمية في معرفة العقيدة وعلاقته بالمناهج الفلسفية

درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها ، ولكنه درسها ليهدمها ، وهو قد رآها داء قد اصاب فكر المسلمين ، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين ، وانها سرت الى العقل الاسلامي فسيطرت على مساربه ، ويرى انه قبل ان يخوض في بيان العقيدة الاسلامية

---

(١) ـ التدمرية ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

وموافقتها لصريح المعقول لا بد من ابعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة واوهام ، كما يبعد عن الجسم الانساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته ، فيقول في ذلك :

« لما كان بيان مراد الرسول في هذه الأبواب لا يتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما اخبر به ، اذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع اذا قدر ان المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به اخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات او بعضها ، او نفي عموم خلقه لكل شيء وامره ونهيه ، او امتناع المعاد او غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض ، والمعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً »[1] .

درس اذن ابن تيمية الفلسفة وما عند الفلاسفة ، لا ليطلب الحقائق من ورائها ، بل ليبين بطلان ما يعارض الدين منها ، فهو آمن بما جاء به الرسول اولاً ، ثم اراد ان ينفي عنه خبث الفلسفة ، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته ثم ليبين بطلانه بعد معرفته .

وهو في هذا يفترق عن منهاج الغزالي رضي الله عنه ، فهو قد درس الفلسفة ليطلب الحقيقة من ورائها ، وخلص نفسه من كل شيء ليصل الى الحق المستقيم ، واعتبر الشك هو الطريق للوصول الى الحق ، ولكن تبين له بطلان ما يقوله الفلاسفة ، فعاد الى الدين ، واشرق في نفسه نور الحقائق في خلوات[2] صوفية عرف فيها نفسه ، ثم حمل حملته على الفلاسفة وبين تهافتهم .

ومع ذلك هل تجرد منها ؟ انه بقيت في نفسه أثارة منها ، بل انه لم يتركها الا وقد تكون عقله تكوناً فلسفياً ، وأخذ احد شعب الفلسفة وجعله جزءاً من دراساته ، وهو المنطق ، فهو في مقدمة كتاب«المستصفى في علم الأصول »، والذي يعد احد دعائم علم اصول الفقة الثلاثة[3] يقرر ان الحقائق لا يمكن ان تعرف في اي علم من العلوم على

---

(١) ـ موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول المطبوع على هامش منهاج السنة ٩ جـ ١ .

(٢) ـ معرفة النفس لا تكون بمثل هذه الخلوات ! (م) .

(٣) ـ الكتب الثلاثة هي : المعتمد لابي الحسين البصري ، والبرهان لامام الحرمين ، والمستصفى للغزالي .

وجهها الا اذا كان المنطق ميزانها ، ويقول في مقدمة كتاب المستصفى التي شرح بها علم المنطق اجمالاً ما نصه :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامهما على منهاج اوجز مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه اصلاً »[1] .

وهذا ايمان بشعبة من شعب الفلسفة عميق ، فان علم المنطق فرع من فروعها ، بل لعله اعظم تراث تركه ارسطو من بعده .

هذا هو الفرق بين المقصد عند هذين العالمين من دراسة الفلسفة ، وقد تأدى بالأول الى نقضها ، وتأدى بالثاني الى اعتناق بعضها ، لذا قال بعض تلاميذ الغزالي : انه دخل في بعض الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع ، فكانت منه تلك المناهج الفلسفية التي سلكها في دراسة العقائد ، ودراسة اصول الفقه ، بل كان منه تلك الحيرة التي بدت في آرائه في الفلسفة والفلاسفة ، فبينا تراه يحمل على الفلاسفة ، ويبين تهافتهم ، تراه يقبض قبضته من علومهم ويجعلها وحدها ميزان العلوم ، ولذا قال ابن تيمية فيه :

« كان ابو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من اشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وامور اضيفت توافق اصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ، بل المخالفة لصريح العقل . حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب »[2] .

ويقول فيه ايضاً :

« وابو حامد لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولون ، بل يكفرهم ويضللهم في موضع ، وان كان في الكتب المضافة اليه ما قد يوافق بعض اصولهم ، بل في الكتب التي يقال انها مضنون بها على غير اهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وان كان قد عبر عنها بعبارات اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول

---

(١) ـ مقدمة المستصفى ص ١٠ الجزء الأول .
(٢) ـ شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥ .

انها مكذوبة على ابي حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها . ولا ريب انه صرح في بعض المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال وغيره من كتبه بما في هذه من الضلال »[1] .

ثم بين ان الغزالي كان ينقل كتب الفلسفة ، وأقوال الفلاسفة وينقل عن ابي عبد الله المازري المتكلم فيقول :

« قال (ابن المازري) ووجدت هذا الغزالي يعول على ابن سيناء في اكثر ما يشير اليه من علوم الفلسفة ، حتى انه في بعض الاحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير واحياناً يغيره . وينقله الى الشرعيات اكثر مما نقل ابن سينا ، لكونه اعلم باسرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة »[2] .

من هذا يتبين كيف غمر الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها ! لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نبتة في الطلب سبباً في ان احاط به غمارها ، وكان يعيش في اقطارها ، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي ، ففلسفت الشريعة ، او ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر او لا يشعر .

اما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها ، فكان يقرؤها ويفهمها ، وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها ، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، واخذ يتبع هفواته وينقض هناته !

ولقد كان يرى ان علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك اصول العقيدة ، وفروع الفقه والاحكام العلمية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ، ولا طريق سواه ، ويرى ان اولئك الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ، ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها ، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة ، ويقول في ذلك :

« يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، وان النظر يوجب العلم وانه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس العلم كلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم اذا صاروا الى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو دليل مبتدع في الشرع »[3] .

---

(١) ـ الكتاب المذكور ص ٤٩ .

(٢) ـ الكتاب المذكور ص ١١٧ .

(٣) ـ معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي .

ينتقد ابن تيمية هؤلاء لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة ، تلك الدراسة العقلية عليها . ثم يحكمون على الأوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها . ويوجهونها بتوجيهها . فما يوافقها اقروه كما ورد . وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، واولوه بتأويلها . ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا الى السنة ، ولم يعلموا انها شارحة الكتاب . مبينة لكل ما جاء به ، وانها الطريق الوحيد لتفسيره .

ينقد ابن تيمية ذلك المسلك . لأنه يجعل الحاكم محكوماً . فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة .

ولقد قسم ابن تيمية طرائق العلماء في فهم العقائد الاسلامية كما يفهم من رسالته معارج الوصول الى اربعة اقسام :

القسم الأول : الفلاسفة ، وهؤلاء يقولون : « القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الاقناعية التي تقنع الجمهور ويدعون انهم هم اهل البرهان واليقين » !

والقسم الثاني : المتكلمون وهم الذين ذكر ابن تيمية انهم يقدمون قضايا عقلية على النظر في الآيات القرآنية ! وقد ذكر انهم يجعلون المحكوم حاكماً . فيما نوهنا آنفاً . وكلامه فيهم يدل على انهم المعتزلة .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء لا ينظرون الى القرآن من جهة ما اشتمل من ادلة هادية مرشدة مثبتة للحق . وليست لمجرد الاقناع . بل يعتبرون ما في القرآن من آيات دالة على التوحيد والصفات من ناحية أنها اخبار ، لا أدلة مثبتة . وهؤلاء لهذا ، قد جعلوا الايمان بالرسول قد استقر فلا يحتاج الى ان يبين الادلة الدالة عليه ، وعيب هؤلاء عند ابن تيمية انهم اعرضوا عن الاصول التي بينها الله سبحانه وتعالى بكتابه ، ولم يلتفتوا الى وجه الادلة فيها ، وهي التي تثبت بذاتها الجزم واليقين ، وقد قال في هذه الطائفة والتي سبقتها ، وهم المتكلمون : « والطائفتان يلحقهما الملام ، لكونهما اعرضتا عن الأصول التي بينها الله بكتابه ، فانها أصول الدين وادلته وآياته ، فلما أعرض عنها الطائفتان وقعت بينهما العداوة ، كما قال تعالى « فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » .

فالعيب الذي يعيبه ابن تيمية على هذه الطائفة انها لم تلتفت الى أدلة القرآن ، وأخذت اخباره ، والطائفة التي سبقتها وهم المتكلمون مثلها ، لأنهم لم يلتفتوا الى أدلة القرآن ، وان كانوا قد سلكوا الطريق الى أدلة اخرى عقلية ، وحاولوا التعرف عن غير طريقه ، اما هؤلاء فلم يحاولوا شيئاً واكتفوا باخباره .

والقسم الرابع : قوم آمنوا بما جاء في القرآن ، ولهم تفكير فيه ، وخالفوا الطوائف السابقة كلها ، وقالوا : « ان طرائقهم ضارة وان السلف لم يسلكوها ونحو ذلك مما يقتضي ذمها » ولكنهم يرون ان ادلة القرآن مجملة ، وان لا بد من التفصيل ، ولا بد من التسلح بأدلة اخرى لقمع المخالفين ، وعلى ذلك يتجهون الى أدلة المتكلمين ، وبذلك ينتهون الى مثل ما ينتهي اليه أولئك ، ويقول في هذا الفريق ابن تيمية « قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله انه بدعة ، ولا يفتح ابواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن الكريم التي تبين ان ما جاء به الرسول حق ، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد ، وعن الضلال والبدعة والجهل » .

ولم يذكر في رسالة معارج الوصول من يعني من هذا القسم الرابع ، وبمراجعة مجموع كتاباته يتبين انه يقصد الأشاعرة والماتريدية ، فان اولئك آمنوا بكل ما جاء عن السلف ، ولكنهم لم يسلكوا في استخراج الأدلة من القرآن ، بل سلكوا المسلك العقلي ، بسبب الخصومة الشديدة التي وقعت بينهم وبين المعتزلة ، فاضطروا لأن يستخدموا اسلحتهم ، والمحارب مأخوذ دائماً بسلاح خصمه ، فلا بد أن يستخدم من الأسلحة ما يستخدم خصمه ، وقد استخدم اولئك المنطق والأدلة العقلية ، فحق على من ينازلهم ان يستخدم ما استخدموا من مسالك وبراهين .

من هذا النقد الذي وجهه ابن تيمية لهذه الفرق يتبين انه يرى ان القرآن بما فيه من ادلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة الاسلامية ، لا لأنه كتاب ثبت انه عند الله (فحسب) بل للأدلة التي يسوقها لاثبات الوحدانية والصفات واليوم الآخر والمعاد ، فهو ليس فيه الأخبار فقط ، بل فيه الدليل على صحة الخبر ، فهو في نفسه يحمل دليل صدقه .

واشد ما يأخذه على الذين خالفهم من المتقدمين والمتأخرين انهم أهملوا أدلة القرآن ، ولعل أشد ما أثر فيه أنه رأى الفلاسفة لم يكتفوا بعدم الالتفات إلى أدلة القرآن ، بل تهجموا فقالوا : انها أدلة خطابية اقناعية وانها ليست براهين قطعية ملزمة ، وان البراهين الحقيقية هي ما اشتمل عليه علم المنطق ، بل انه ليرى ان المتكلمين من المعتزلة ، ومن نهج منهاجهم في الاحتجاج من الأشاعرة واخوانهم الماتريدية يقرون مقال الفلاسفة في هذا ، بل ان بعضهم ليصرح بمثل ما صرح به اولئك الفلاسفة ، فالرازي يقول : « ان الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لا يمكن بحال ، لأن الأستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية ، وعلى رفع المعارض العقلي ، وان العلم بانتفاء المعارض لا يمكن ، اذ يجوز ان يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض ما دل عليه القرآن ، ولم يخطر ببال المستمع ، وقد بسطنا القول في أوجه ذلك ، مثل نقل اللغة والنحو والتصريف ، ونفي المجاز

والاضمار ، والتخصيص والاشتراك وهكذا »[1] .

هال ابن تيمية ذلك القول ، لأنه يؤدي الى أنه لا براهين الا ما يكون المنطق طريقه ، كأن العلم الاسلامي مدين للمنطق اليوناني في فهمه ، وهاله اكثر ان مؤداه ان الصحابة لم تكن لديهم الوسائل القطعية لفهم هذا الدين الحكيم ، ولا لفهم عقائده ، لأنهم لم يكونوا على علم بمنطق ارسطو الذي لم يدخل في الفكر الاسلامي الا في القرن الثاني الهجري ، كأن الصحابة والتابعين ما كانوا عالمين باصول هذا الدين الا عن طريق ظني ، ولم يتوافر لديهم الطريق القطعي ، ويقول في ذلك رضي الله عنه : « يقولون ان لم يكن الرسول يعرف معنى ما انزل عليه من هذه الآيات ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك ، بل لازم قولهم انه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من احاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه »[2] .

وذلك لأن النبي ﷺ لم يحاول تأويل الصفات في القرآن تأويلاً يتفق مع القواعد الفلسفية التي قررها علماء الكلام من بعده ، ولأن النبي ﷺ كان علمه هو القرآن ، والأدلة التي كان يعلمها هي أدلة القرآن ، ولم يتجاوز ذلك ، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم ، والفقهاء المجتهدون ، وذلك لأن اولئك لم يكونوا على علم بمنطق اليونان ، ولا بتأويل علماء الكلام لما جاء في القرآن .

وجد كل هذا من منطق ارسطو الذي تعلق به علماء المسلمين ، وأدخله أبو حامد الغزالي في مقدمة علم الأصول ، فثار على ذلك المنطق الذي اعتبره من علوم الصابئة ، وأثار حوله عجاجة ، واخذ يبين انه دخيل على الفكر الاسلامي ، وان ادراك الحقائق الاسلامية لم يكن في حاجة اليه ، وانه ميزان ليس بصادق ، انما هو اوهام ، او قيود من اوهام ، وشجعه على ذلك الهجوم انه وجد ان الفقهاء قبل ابي حامد الغزالي كانوا ينظرون اليه نظرة البغض ، ويتوجسون منه خيفة على العلوم الاسلامية ، وان الغزالي اول من صرح بوجوب اتخاذه ميزاناً للعلوم ، وان من كان قبله اخذوه على استخفاء ، ولم يجهروا به كما جهر الامام الغزالي .

وهذا ابن الصلاح يعد المنطق شراً كله فيقول : « المنطق مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما اباحه الشارع ، ولا استباحه احد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالح وسائر ما يقتدى به » .

---

(١) ـ موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول جـ ١ ص

(٢) ـ نقض المنطق ص ٥٧ .

ويقول في استخدام المصطلحات الفلسفية او المنطقية في العلوم الاسلامية : « إن هذا من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية افتقار الى المنطق اصلاً ، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من امر الحد والبرهان ففقاقيع قد اغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاضها في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم انه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان »[1] .

يقر ابن تيمية بلا ريب فتوى ابن الصلاح ، وينقل عن العلماء استنكارهم لما جاء في مقدمة المستصفى للغزالي من اعتباره المنطق ميزان العلوم كلها فيقول : « يحكى عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان وفلان يعني ان اولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة واسبابها ، قال الشيخ ابو عمرو وقد ذكرت بهذا ما حكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (يعني ابا حيان التوحيدي) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد بأضعاف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم ، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني فقال الوزير ، اريد ان ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في قوله : انه لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بما حويناه من المنطق ، واستفدناه من واضعه على مراتبه ، فانتدب ابو سعيد السيرافي ، وكان فاضلاً ، وكلمه في ذلك حتى أفحمه » .

وهكذا نرى ابن تيمية يغير على المنطق بأقوال السابقين وبأن مترجمه من اليونانية الى العربية قد عجز عن الدفاع عنه ، وهو في هذا يعتقد ان الأساليب المنطقية التي نهجها الفلاسفة ، والمتكلمون ، ثم عممها الغزالي في علوم الدين ، وهي التي جعلت العلماء يتنقصون بها أدلة القرآن ، بل لازم قولهم تجهيل الصحابة بأدلة التوحيد ، وبراهين اليقين ، وان هم يظنون الا ظناً واهماً .

فقه الامام ابن تيمية

تلقى شيخ الاسلام ابن تيمية الفقه الحنبلي في بادىء نشأته من ابيه حتى تولى مقام

(١) - فتاوى ابن الصلاح ص ٤٣٥ .

التدريس بعد وفاته وتعمق فيه كثيراً ، ولما شب وتوسع ذهنه ، لم يعد يتقيد بهذا المذهب ، وعكف على دراسة المذاهب الاربعة وغيرها ، يعمل ويفتي بما وافق منها للكتاب والسنة دون تعصب لأحدها . ولم يكتف بهذا ، بل انه كثيراً ما يخرج عن اطار المذاهب الأربعة كلها . اذا وجد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافها كما فعل في كثير من قضايا الطلاق ، مما ذكرناه في فتاواه ، وكان يقول بهذا الصدد :

« ان الانسان ينشأ على دين أبيه ، او سيده ، او اهل بلده ، كما يتبع الطفل في الدين ابويه ، وسادته ، واهل بلده ، ثم اذا بلغ فعليه ان يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت ، ولا يكون ممن اذا قيل لهم : « اتبعوا ما انزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! » فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسوله الى عادته وعادة ابيه وقومه ، فهو من اهل الجاهلية ، وكذلك من تبين له مسألة من مسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ، ثم عدل عنه الى عادته ، فهو من اهل الذم »[1] .

وكان الشيخ رحمه الله تعالى يحترم ائمة المذاهب كلهم ، فهم جميعاً مخلصون في بحثهم ، سعوا جهدهم للوصول الى الحقيقة الاسلامية التامة في زمنهم حيث لم تكن ميسرة كلها لكل امام منهم الى انفراد ! مما ادى الى الخلاف المذهبي وقتئذ ! وقد أوجد لهم الأعذار في كتابه « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » ، فقال في مقدمة هذا الكتاب :

« وبعد ،فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن ، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم اذ كل امة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها شرارها ، الا المسلمين فان علماءهم خيارهم ، فانهم خلفاء الرسول في أمته . والمحيون لما مات من سنته . بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وليعلم انه ليس احد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول وعلى ان كل احد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ﷺ ! ولكن اذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه . وجميع الأعذار ثلاثة اصناف : احدها عدم اعتقاده ان النبي ﷺ قاله . والثاني عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك القول . والثالث اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ .

---

(١) ـ الفتاوى جـ ٢ ص ٢٠٢ طبع الكردي .

« وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع الى أسباب متعددة منها : أن لا يكون الحديث قد بلغه . ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف ان يكون عالماً بتوجيه ! واذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية او حديث آخر او بموجب استصحاب ، فقد يوافق ذلك الحديث (تارة) ويخالفه اخرى . وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من اقوال السلف مخالفاً لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة ! وقد كان النبي ﷺ يحدث او يفتي او يقضي او يفعل الشيء فيسمعه او يراه من يكون حاضراً ويبلغه اولئك او بعضهم لمن يبلغونه فينتهي علم ذلك الى من شاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ثم في مجلس آخر قد يحدث او يفتي او يقضي او يفعل شيئاً ويشهده بعض من كان غائباً عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن امكنهم فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء ، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء وانما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم او جودته » .

ثم يوضح الامام ابن تيمية ان عدم اطلاع امام المذهب على بعض الأحاديث قبل جمعها وتدوينها ـ الذي تم بعد عدهم ـ لا ينقص من مكانتهم العلمية . واستشهد بالخلفاء الراشدين انفسهم وضرب الأمثال الكثيرة في كتابه المذكور فقال :

« وأما احاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه قط . واعتبر ذلك بالخلفاء الراشدين الذين هم اعلم الأمة بأمور رسول الله ﷺ وسنته واحواله خصوصاً الصديق رضي الله عنه الذي لم يكن يفارقه حضراً ولا سفراً بل كان يكون معه في غالب الأوقات حتى انه يسمر عنده في الليل في امور المسلمين وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه ﷺ كثيراً ما يقول دخلت انا وابو بكر وعمر وخرجت انا وابو بكر وعمر .

عدم اطلاع ابي بكر على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ثم مع ذلك لما سئل ابو بكر رضي الله عنه عن ميراث الجدة قال ما لكِ في كتاب الله من شيء وما علمت لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء ، ولكن أسأل الناس ، فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهد ان النبي ﷺ اعطاها السدس وقد بلغ هذه السنة عمران بن حصين ايضاً وليس هؤلاء الثلاثة مثل ابي بكر وغيره من الخلفاء ثم قد اختصوا بعلم هذه السنة التي قد اتفقت الأمة على العمل بها .

عدم اطلاع عمر بن الخطاب على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يعلم سنة الأستئذان حتى اخبره بها ابو

موسى واستشهد بالانصار . وعمر أعلم ممن حدثه بهذه السنة ، ولم يكن عمر ايضاً يعلم ان المرأة ترث من دية زوجها بل يرى ان الدية للعاقلة ، حتى كتب اليه الضحاك بن سفيان وهو امير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره ان رسول الله ﷺ ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها ، فترك رأيه لذلك وقال لو لم نسمع بهذا ، لقضينا بخلافه .

ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى اخبره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال : « سنوا بهم سنة اهل الكتاب » .

ولما قدم سرغ وبلغه ان الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ولم يخبره احد بسنة رسول الله ﷺ في الطاعون وانه قال « اذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فراراً منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه »[1] .

وتذاكر هو وابن عباس امر الذي يشك في صلاته فلم يكن قد بلغته السنة في ذلك حتى قال عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ انه يطرح الشك ويبني على ما استيقن .

وكان مرة في السفر فهاجت ريح فجعل يقول من يحدثنا عن الريح قال ابو هريرة فبلغني وانا في اخريات الناس فحثثت راحلتي حتى ادركته فحدثته بما امر به النبي ﷺ عند هبوب الريح .

فهذه مواضع لم يكن يعلمها حتى بلغه اياها من ليس مثله . ومواضع أخر لم يبلغه ما فيها من السنة فقضى فيها او أفتى فيها بغير ذلك مثل ما قضى في دية الأصابع انها مختلفة بحسب منافعها ، وقد كان عند ابي موسى وابن عباس وهما دونه بكثير في العلم ، علم بأن النبي ﷺ قال « هذه وهذه سواء » يعني الابهام والخنصر فبلغت هذه السنة لمعاوية رضي الله عنه في امارته فقضى بها ولم يجد المسلمون بداً من اتباع ذلك . ولم يكن عيباً في عمر رضي الله عنه حيث لم يبلغه الحديث ..

وكذلك كان ينهى المحرم عن التطيب قبل الاحرام وقبل الافاضة الى مكة بعد رمي جمرة العقبة وهو وابنه عبد الله رضي الله عنهما وغيرهما من اهل الفضل ولم يبلغهم حديث عائشة رضي الله عنها : طيبت رسول الله ﷺ لحرمه قبل ان يحرم ولحله قبل ان يطوف .

وكان يأمر لابس الخف ان يمسح عليه الى ان يخلعه من غير توقيت وأتبعه على ذلك

---

(١) ـ حتى أعلمه بذلك عبد الرحمن بن عوف .

طائفة من السلف ولم تبلغهم احاديث التوقيت التي صحت عند بعض من ليس مثلهم في العلم . وقد روى ذلك عن النبي ﷺ من وجوه متعددة صحيحة .

عدم اطلاع عثمان على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وكذلك عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد في بيت الموت حتى حدثته الفريعة بنت مالك اخت ابي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وان النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » فأخذ به عثمان .

واهدي له مرة صيد ـ يعني وهو محرم ـ صيد كان قد صيد لأجله فهم بأكله حتى اخبره علي رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم رد لحماً اهدي له .

عدم اطلاع علي على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وكذلك علي رضي الله عنه قال كنت اذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه واذا حدثني غيره استحلفته فاذا حلف لي صدقته . وحدثني ابو بكر وصدق ابو بكر وذكر حديث صلاة التوبة المشهور .

وأفتى هو وابن عباس وغيرهما بأن المتوفى عنها اذا كانت حاملاً تعتد بأبعد الأجلين . ولم يكن قد بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيعة الاسلمية حيث افتاها النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدتها وضع حملها .

وأفتى هو وزيد وابن عمر وغيرهما بان المفوضة اذا مات عنها زوجها فلا مهر لها . ولم تكن بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق .

وهذا باب واسع يبلغ المنقول منه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدداً كثيراً جداً » . اهـ .

اذا كان حال هؤلاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كما ذكر الشيخ ابن تيمية في عدم استيعاب كل منهم احاديث رسول الله ﷺ ، فكيف الحال بسواهم مما لا يبلغون علمهم ؟ لا شك ان عدم استيعابهم لهذه الاحاديث اوضح ، يقول ابن تيمية :

عدم اطلاع ائمة المذاهب على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وأما المنقول منه عن غير (الصحابة) فلا يمكن الاحاطة به فانه ألوف ، فهؤلاء

كانوا اعلم الأمة وأفقهها وأتقاها وأفضلها فمن بعدهم أنقص ، فخفاء بعض السنة عليه اولى فلا يحتاج الى بيان فمن اعتقد ان كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة او اماماً معيناً فهو مخطىء خطأ فاحشاً قبيحاً ! .

ولا يقولن قائل : من لا يعرف الأحاديث كلها لم يكن مجتهداً ، لأنه ان اشترط في المجتهد علمه بجميع ما قاله النبي ﷺ وفعله فيما يتعلق بالأحكام فليس في الأمة مجتهد وانما غاية العالم ان يعلم جمهور ذلك ومعظمه بحيث لا يخفى عليه الا القليل من التفصيل ثم انه قد يخالف ذلك القليل من التفصيل الذي يبلغه »[1] .

أقوال الأئمة في اتباع السنة وترك اقوالهم المخالفة لها ! :

لهذا كله كان ائمة المذاهب رضي الله عنهم شاعرين بعدم اطلاعهم على جميع السنة فكانوا ينصحون الناس بوجوب الرجوع الى الحديث اذا صح .

ومن المفيد أن نسوق هنا ما وقفنا عليه منها او بعضها ، لعل فيها عظة وذكرى لمن يقلدهم ، بل يقلد من دونهم بدرجات تقليداً أعمى[2] ، ويتمسك بمذاهبهم واقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء ، والله عز وجل يقول : ﴿ اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ ! .

الامام ابو حنيفة

فأولهم الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه ، وقد روى عنه اصحابه اقوالاً شتى وعبارات متنوعة كلها تؤدي الى شيء واحد وهو وجوب الأخذ بالحديث ، وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة له :

١ ـ « اذا صح الحديث فهو مذهبي » .

٢ـ « لا يحل لأحد ان يأخذ بقولنا ما لم يعلم من اين اخذه » . وفي رواية : « حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي » زاد في رواية : « فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً » .

---

(١) ـ عن رسالة « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » طبع المكتب الاسلامي بتحقيق الشيخ زهير الشاويش باختصار .

(٢) ـ وهذا التقليد هو الذي عناه الامام الطحاوي حين قال : « لا يقلد الا عصبي أو غبي » نقله ابن عابدين في « رسم المفتي » ص ٣٢ جـ ١ من « مجموعة رسائله » .

٣ ـ « اذا قلت قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي » .

الامام مالك

واما الامام مالك رضي الله عنه قال :

١ ـ « انما انا بشر أخطىء واصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » ! .

٢ ـ « ليس احد بعد النبي صلى الله عليه وسلم الا ويؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم »[1] .

الامام الشافعي

واما الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه فالمنقول عنه في ذلك اكثر وأطيب واتباعه اكثر عملاً بها واسعد ، فمنها :

١ ـ ما من احد الا من تذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، او أصّلت من اصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي » .

٢ ـ « اجمع المسلمون على ان من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له ان يدعها لقول احد ! » .

٣ ـ « اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت ! » .

٤ ـ « اذا صح الحديث فهو مذهبي » .

٥ ـ « انتم اعلم بالحديث والرجال مني ، فاذا كان الحديث الصحيح فاعلموني به اي

---

(١) ـ جاء في كتاب « الباعث الحثيث » للحافظ بن كثير : « وقد طلب المنصور من الامام مالك » ان يجمع الناس على كتابه (اي الموطأ) فلم يجبه الى ذلك ، وذلك من تمام علمه واتصافه بالانصاف وقال : (ان الناس قد جمعوا واطلعوا على اشياء لم نطلع عليها) !! (م . م) .

شيء يكون : كوفياً او بصرياً او شامياً ، حتى اذهب اليه اذا كان صحيحاً . » .

٦ ـ « كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند اهل النقل بخلاف ما قلت فانا راجع عنها في حياتي وبعد موتي » .

الامام احمد ابن حنبل

واما الامام احمد رضي الله عنه فهو اكثر الأئمة جمعاً للسنة وتمسكاً بها حتى « كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي » ولذلك قال :

١ ـ « لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث اخذوا » ! .

٢ ـ « رأي الأوزاعي ورأي ابي حنيفة كله رأي ، وهو عندي سواء ، وانما الحجة في الآثار » ! .

٣ ـ « من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة » !! .

تلك هي اقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الأمر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة ، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً ، وعليه فان من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض اقوال الأئمة ، لا يكون مبايناً لمذهبهم ولا خارجاً عن طريقتهم ، بل هو متبع لهم جميعاً ، ومتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقول بعضهم ، بل هو عاصٍ لهم ومخالف لاقوالهم المتقدمة والله تعالى يقول : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ وقال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ﴾ [1] .

---

(١) ـ اقوال الأئمة منقولة عن كتاب صفة صلاة النبي (صلى الله عليه وسلم) لمحدث الشام استاذنا محمد ناصر الدين الألباني ، ومصادرها موجودة مفصلة في كتابه المذكور . طبع المكتب الاسلامي

خلاف الأئمة في العبادات ومذهب اهل السنة والجماعة

لقد رأينا من المفيد هنا ان ننقل طرفاً من رسالة[1] للامام ابن تيمية بعنوان « خلاف

(١) ـ لقد نشر هذه الرسالة المصلح الاسلامي السيد محمد رشيد رضا في المنار (جـ ٤ م ١٠) ثم افردها في نشرة خاصة وقدم لها بقوله :

« شرع الله تعالى لعباده على ألسنة جميع رسله ان يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ولكنهم كانوا يتفرقون في كل امة فيزول ما اريد بالدين من معنى الاجتماع والائتلاف حتى اذا ما شرع الله لهم الدين العام الذي هو خاتمة الأديان شدد فيه التنفير من التنازع والتفرق والاختلاف واكد الأمر بالاعتصام والاتحاد والائتلاف وقال لخاتم النبيين ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾!! ومع ذلك لم تسلم هذه الأمة من اتباع سنن من قبلها والاختلاف كما اختلفوا او اشد ، ولما وقع الخلاف وكثرت المذاهب وصار لكل فريق انصار يخالفون الآخرين ويطعنون عليهم امتاز اهل الحق المعتصمون بحبل الله بالدعوة الى الاجتماع والألفة والتباعد عن التنازع والفرقة وجعلوا المرجع في ذلك الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عملاً بقوله عز وجل ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلاً ﴾ فكتاب الله ثابت لا نزاع فيه وسنة رسوله معلومة لا خلاف فيها فما جرى عليه وتبعه فيه اصحابه على طريقة واحدة بلا خلاف بينهم يمتنع فيه الخلاف من المؤمنين وما اختلف فيه العمل كان المؤمنون مخيرين فيه لا ينازع احد منهم اخاه ان اخذ بغير ما اخذ هو به وكل جائز .

« وقد سمي هؤلاء بأهل السنة والجماعة لأنهم يحكمون السنة العملية المتبعة فيما لو تم وفيما هو مخير فيه ويختارون الاجتماع والاتفاق على الخلاف والافتراق ولذلك كان من مزاياهم التباعد عن تكفير اهل القبلة وتضليلهم لأجل الخلاف والعمدة عندهم في صحة الايمان وولاء اخوة الاسلام هو الأخذ المجمع عليه في العصر الأول المعلوم من الدين بالضرورة ويعذرون من اخطأ فيما عدا ذلك .

« ثم ان علماء اهل السنة قد كانوا ينظرون في وجوه الترجيح فيما اختلف فيه عمل اهل العصر الأول او الرواية عنهم فيأخذ كل واحد ما يراه ارجح مع كونه يعذر من يأخذ بغير ما اختاره هو لا سيما اذا كان رأياً لا رواية . ثم حدث في الأمة التقليد وصار كل فريق يتعصب لعالم من ائمة علماء الأمصار من بعدهم فعاد بذلك التفرق والاختلاف الممقوتان عند الله الى المنتسبين الى اهل السنة والجماعة ووجد ذلك اهل البدع ما وجدوا من المطاعن عليهم وعلى مذهبهم بل ذلك مما طعن به في اصل الدين ! .

« سبق لنا قول في هذا الخلاف ومضاره ورأي في تلافيه واتقاء اخطاره وايدناه بما كتبه الامام ابو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم من الدعوة الى ازالة الخلاف بالاخذ بالمجمع عليه والتخير في المختلف فيه وقليل من الناس من يترك كل ما اجمع على وجوبه ويفعل ما سهل عليه مما اجمع على ندبه واستحبابه ولكن المرزوئين بالتعصب للمذاهب يسهل عليهم قطع اخوة الايمان بسبب خلاف في رواية او رأي مما لم يجمع عليه المسلمون وهم مع ذلك يتركون بعض الفرائض ويرتكبون بعض المحرمات ويحسبون ذلك اهون من الخلاف في الدين .

« وقد قرأنا في هذه الأيام رسالة شيخ الاسلام ابن تيمية في مسألة الخلاف في العبادات وحقيقة السنة والجماعة فآثرنا نشرها رجاء ان ينفع الله بها المسلمين ﴿ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

الأئمة في العبادات ومذهب اهل الجماعة والسنة » :

(قاعدة) في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الأمة والرأي مثل الأذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الأيدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والأفراد والقرآن في الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر اوجب انواعاً من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنين .

(احداها) جهل كثير من الناس او اكثرهم بالأمر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله والذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته والذي امرهم باتباعه .

(الثاني) ظلم كثير من الأمة او اكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه وبغضهم على من لم يبغضهم الله عليه وتارة بترك ما اوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة واعطاء الأموال والولايات من يكون مؤخراً عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدماً عند الله ورسوله لذلك .

(الثالث) اتباع الظن وما تهوى الأنفس حتى يصير كثير منهم مديناً باتباع الأهواء في هذه الأمور المشروعة . وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الأهواء من جنس ما في اهل الأهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم . وقد قال تعالى في كتابه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وقال في كتابه (لا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) .

(الرابع) التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه ويحب بعضاً ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضي الأمر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم الى الاقتتال بالايدي والسلاح وببعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض ، وهذا كله من اعظم الأمور التي اوجبها الله ورسوله وقال الله تعالى﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتممسلمون﴾ ﴿واعتصموابحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾- الى قوله - ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال ابن عباس تبيض وجوه اهل السنة والجماعة وتسود وجوه اهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من اهل البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته

ومن اهل الفرقة والمخالفة للجماعة التي امر الله بها ورسوله وقال تعالى « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال تعالى « وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى « وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وقال تعالى « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال تعالى « وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال الله تعالى « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة » وقال تعالى « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » وقال « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » وقال« الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس » . وهذا الاصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وان لا يتفرق هو من اعظم اصول الاسلام ومما عظمت وصية الله به في كتابه[1] اهـ

يشترك في هذا الرأي مع شيخ الاسلام ، امام جليل هو الامام الشيخ ابو عبد الله بن ابي النصر الحميدي صاحب كتاب « الجمع بين الصحيحين » في رسالة له مخطوطة في مكتبة الأوقاف الاسلامية بحلب تحت رقم (مولوية ١٩٦) رأيت ان اذكر مقاطع منها كتلخيص لها :

وقد استشرف بعض الطالبين الى معرفة الأسباب الموجبة للاختلاف من بين الأئمة الماضيين ـ رضي الله عنهم ـ مع اجماعهم على الأصل المتفق عليه المستبين حتى احتيج الى تكليف التصحيح في طلب الصحيح ، وقربت على هذا الطلب معرفة بعض العذر في اختلاف المتأخرين لبعدهم عن المشاهدة وانما تعذر عليه معرفة الوجه في اختلاف ـ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع مشاهدتهم نزول التنزيل واحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصهم على الحضور لديه والقعود بين يديه والأخذ منه . . .

لم يكن كل واحد من الصحابة على علم بجميع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا شك ان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا بالمدينة حوله صلى الله عليه وسلم

(١) ـ نحن لا نشارك الامام الغزالي الذي جاء في تعليق الامام السيد رشيد رضا في ازالة الخلاف بالأخذ بالمجمع عليه ، انما تكون ازالة هذا الخلاف بالرجوع الى الكتاب والسنة !

مجتمعين وكانوا ذوي معايش يطلبونها ، وفي ضنك من القوت فمن محترف في الاسواق ومن قائم على نخله ، ويحضره صلى الله عليه وسلم في كل وقت طائفة منهم واذا وجدوا ادنى فراغ فيما هم بسبيله ، وقد نص على ذلك ابو هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقال : ان اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق ، وان اخواني من الأنصار كان يشغلهم القيام على نخلهم ، وكنت امرءاً مسكيناً أصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني . وقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : الهاني الصفق بالاسواق في حديث استئذان ابي موسى[1] . فكان صلى الله عليه وسلم يسأل عن المسألة ويحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل الشيء فيحفظه من حضره ويغيب عن من غاب عنه[2] وقد كنا ذكرنا فيما سبق من كلام ابن تيمية امثلة على ذلك عن ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ وذكر هذا المؤلف امثلة غيرها ـ تؤيد كلامه وكلام ابن تيمية في ان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكن كل منهم مطلعاً على جميع السنة ! .

تفرق الصحابة في البلاد بسبب الفتح

ومما قاله الشيخ الحميدي رحمه الله :

« . . . فلما ولي عمر ـ رضي الله عنه ـ فتحت الامصار وتفرق الصحابة في الأقطار ، فكانت الحكومة تنزل بمكة او بغيرها من البلاد ، فان كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به ، والا اجتهدوا في ذلك ، وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صاحب آخر في بلد آخر . وقد حضر المدني ما لم يحضر المصري ، وحضر المصري ما لم يحضر الشامي ، وحضر الشامي ما لم يحضر المدني ، كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه الحالة التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه ﷺ في بعض الأوقات وحضور غيره . . » .

وهكذا اختلف التابعون بعد الصحابة

ثم ينتقل المؤلف بعد كلام طويل الى الكلام على التابعين وائمة المذاهب ـ رحمهم الله

---

(١) ـ اخرجه البخاري ١٣/٢٧٤ ـ ٢٧٥ بشرح الفتح واحمد رقم ٧٢٧٣ ورقم ٧٦٦١ ومسلم ٢/٢٦١ وغيرهم .

(٢) ـ اخرجه البخاري ١١/٢٣ والدارمي ٢/٢٧٤ وابو داود رقم ٥١٨٠ وابن ماجه رقم ٣٧٠٦ وغيرهم .

تعالى ـ فيقول :

« فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم ، وكل طبقة من التابعين في البلاد التي ذكرنا ، فانما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة ، فكانوا لا يتعدون فتاويهم لا تقليداً[1] لهم ولكن لأنهم اخذوا وروا عنهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كاتباع اهل المدينة في الأكثر فتاوى ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ واتباع اهل مكة في الأكثر فتاوى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ واتباع اهل الكوفة فتاوى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ .

رفع الملام عن الأئمة الاعلام

ثم اتى من بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة وسفيان وابن ابي ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعمار البستي وسوار بالبصرة ، والأوزاعي بالشام ، والليث بمصر ، فجروا على تلك الطريقة من اخذ كل واحد منهم عن التابعين من اهل بلده وتابعوهم عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما كان عندهم ، وفي اختلافهم فيما ليس عندهم وهو موجود عندهم « ولا يكلف الله نفساً الا وسعها » وكل ما ذكرنا مأجور على ما اصاب فيه اجرين ، ومأجور فيما خفي عنه ولم يبلغه اجراً واحداً ، قال الله تعالى : « لانذركم به ومن بلغ ! . . . » .

زوال سبب الخلاف ولم يبق لأحد عذر في ترك السنة بعد ان جمعت

ثم قال الشيخ الحميدي :

« ثم كثرت الرحل الى الآفاق وتداخل الناس ، وانتدب اقوام لجمع حديث رسول الله

---

(١) ـ قال الأستاذ حمدي عبد المجيد الذي راجع احاديث هذه الرسالة تعليقاً على كلمة التقليد : « رحم الله المؤلف فانه لم يرض التقليد ! وعدم الرضا بالتقليد هو دأب السلف الصالح ، بل نهوا عن ذلك نهياً شديداً ، فخلف من بعدهم خلف نسوا ما بنى لهم اجدادهم من صروح الفكر وحرية الرأي ضمن نطاق الشريعة الاسلامية ، فرضوا بالتكاسل جناية على عقولهم وافكارهم »! .

ﷺ وضمه وتقييده ، ورحل من البلاد البعيدة الى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الاحاديث المبينة لصحة احد التأويلات المتأولة في الحديث ، وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي الى خلاف كلام رسول الله ﷺ ، والى ترك عمله ، وسقط العذر عن من خالف ما ابلغه من السنن ببلوغها اليه ، وقيام الحجة بها عليه ، فلم يبق الا الانقياد والتقليد[1] ا.هـ .

وقبل ختام هذه الموضوع لا بد من أن ارسلها صيحة مدوية في وجه الذين يزعمون ان للاختلاف فائدته ، استنادا الى الحديث الباطل « اختلاف امتي رحمة » قائلا لهم ان الاختلاف نقمة ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة (وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) ،(فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلاً) قال المزني : « فذم الله الاختلاف وامر عنده بالرجوع إلى الكتاب والسنة ، فلو كان الاختلاف من دينه ما ذمه ولو كان التنازع من حكمه ما امرهم بالرجوع عنده إلى الكتاب والسنة [2] » .

قال المزني ايضاً : « . . . وقد اختلف اصحاب رسول الله ﷺ ، فخطأ بعضهم بعضاً ، ونظر بعضهم في أقاويل بعض وتعقبها !! ولو كان قولهم كله صواباً عندهم لما فعلوا ذلك ، وغضب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من اختلاف ابي بن كعب وابن مسعود في حكم الصلاة في الثوب الواحد . . . فخرج عمر مغضباً ، فقال : اختلف رجلان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ينظر اليه ويؤخذ عنه !! وقد صدق ابي ، ولم يأل ابن مسعود ، ولكني لا اسمع احداً يختلف بعد مقامي هذا الا فعلت به كذا وكذا !! .

وجاء في كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله (ص ١٤٤) « عن اشهب قال سئل مالك عن اختلاف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خطأ وصواب ! فانظر في ذلك . وعن يحيى بن ابراهيم بن مزين عن اصبغ قال : قال ابن القاسم سمعت مالكاً والليث يقولان في اختلاف اصحاب رسول الله ﷺ ليس كما قال ناس فيه توسعة ! ليس كذلك انما هو خطأ وصواب » .

---

(١) ـ اي التقليد لرسول الله المعصوم ، لا لرجال غير معصومين . وهذا مما يفهم من كلام المؤلف (م) .
(٢) ـ مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٤٦ .

قال ابو عمر : الاختلاف ليس بحجة عند احد علمته من فقهاء الأمة الا من لا بصر له ولا معرفة عنه ولا حجة في قوله . قال المزني يقال لمن جوز الاختلاف وزعم ان العالمين اذا اجتهدوا في الحادثة ، فقال احدهما حلال والآخر حرام ، فقد ادى كل واحد منهما جهده وما كلف ، وهو في اجتهاده مصيب الحق ، (يقال له) : أبأصل قلت هذا ام بقياس !؟ فان قال بأصل ، قيل له كيف يكون اصلاً والكتاب اصل ينفي الخلاف ! او ان قال بقياس ، قيل كيف تكون الأصول تنفي الخلاف ويجوز لك ان تقيس عليها جواز الخلاف ، هذا ما لا يجوزه عاقل فضلاً عن عالم ! . . .

وملخص القول ان الله سبحانه امرنا بتحكيم القرآن والسنة ، وكذلك حثنا رسول الله ﷺ كما حثنا ائمة المذاهب انفسهم ونهونا عن تقليدهم وحضونا على طلب الدليل كما رأينا فيما سبق ، فان التقليد آفة العلماء ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة ، فهو يبعد المسلم عن دينه الصحيح في كثير من الاحيان ، ويؤدي الى جمود الذهن وبلادة النفس مما يسبب انحطاط الأفراد والجماعات ، وانني استطيع ان اجزم ان انهيار الأمة الاسلامية كانت بدايته يوم ان ترك علماؤها الاجتهاد واخلدوا الى الكسل والتقليد ! فكم ازدهرت الحضارة الاسلامية يوم كان العلماء وتلاميذ ائمة المذاهب يردون اقوالهم ويعارضونها بالأدلة .

ثم لما اخذ التقليد برقاب من يدعون العلم ويحسبون انهم علماء ومفات ، وما كان لعالم او لمفتي ان يقلد ، جمدت الأذهان وانحطت الهمم وضعفت الأمة وانهارت الدولة الاسلامية .

قامع البدع والأوهام

وجه الامام ابن تيمية اهتمامه العظيم الى تنقية الاسلام مما ألحق به الادعياء والخرافيون من البدع والأوهام التي اضاعت رونقه وبهاءه وقوته ، حتى ظنه الكثيرون عبارة عن طرق وحلقات رقص ، وطبول وزمور ، وتمائم ، كما ظنوه أذكاراً واوراداً مبتدعة وخلوات بطالة وحرمان من طيبات الدنيا واستسلام للأوهام واستغاثة بقبور الصالحين والنذر لها . وآمنوا بالجبر الذي لا يفيد معه العمل ، فزهد المسلمون وتواكلوا حتى غدوا في تأخر وانحطاط عظيمين .

وقد ألف شيخ الاسلام عشرات الرسائل في بيان مزايا الاسلام والرد على خصومه ، واوضح بكل جرأة وصراحة اعمال المضللين الذين حجبوا نور الاسلام الصحيح عن الناس

بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول ﷺ وما تمسكوا به من شرعة ، مما اخبر به وما امر به ، اما ما ابتدعوه فكله ضلالة » !! .

والحق ـ والحق اقول ـ ان من اعظم عوامل ضعف المسلمين هذه البدع والأوهام والخرافات المنتشرة بينهم التي بدلت مفهوم الاسلام القوي بمفهوم ضعيف سخيف ، هو اشبه بأفيون منه الى قوة الاسلام وعظمة الاسلام . فكان نتيجة ذلك انحطاط المسلمين ونومهم وتقهقرهم . واليوم لا نجاح لهم ولا نصر الا بالعودة الى الاسلام في صفائه الفطري واصله الأول الذي جعل منهم خير امة اخرجت للناس .

وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية مولعاً بمحاربة البدع بيده ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، شأن العلماء الحقيقيين ، عملاً بالحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

وقد صنف خادم ابن تيمية ، ابراهيم بن احمد الغياني ، رسالة صغيرة في هذا الموضوع يذكر فيها بعض الحوادث العملية في محاربة الامام للبدع والأوهام ، جاء في مطلعها :

« أما بعد فهذا فصل فيما قام به الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ وتفرد به دون غيره من العلماء ـ رضي الله عنهم ـ الذين كانوا قبله ، وفي زمانه وذلك بتكسير الاحجار[1] التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها ، ويقبلونها وينذرون لها النذر ، ويلطخونها بالخلوق ، ويطلبون عندها قضاء حاجاتهم ، ويعتقدون ان فيها ـ أو لها ـ سراً ، وان من تعرض لها بسوء ـ بقال او فعال ـ اصابته في نفسه آفة من الآفات .

« فشرع الشيخ يعيب تلك الأحجار ، وينهي الناس عن اتيانها ، او أن يفعل عندها شيء مما ذكر ، او ان يحسن بها الظن .

« فقال له بعض الناس : انه جاء حديث ان ام سلمة سمعت النبي ﷺ يقرأ بالتين والزيتون ، فأخذت تينة وزيتونة ، وربطت عليهما وعلقتهما حرزاً وبقيت كلما جاء اليها احد به مرض تحطه عليه فيبرأ من ذلك المرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك ،

---

(١) ـ مثل العمود المخلق الذي داخل « الباب الصغير » وبلاطة سوداء في العلافين في مسجد الكهف وصخرة مسجد النارنج .

فقالت : سمعتك تقرأ بالتين والزيتون ، فقلت : ما قرأ رسول الله ﷺ بذلك الا وفيه سراً ومنفعة ، فعملت تينة وزيتونة لي حرزاً ، واحسنت ظني به ، ونفعت بذلك الناس ، فقال لها النبي ﷺ ، : لو احسن احدكم ظنه بحجر لنفعه الله به !!

« فقال الشيخ : هذا الحديث كله ـ من اوله الى آخره ـ كذب مختلق ، وافك مفترى على رسول الله ﷺ وعلى ام سلمة رضي الله عنها والذي صح وثبت عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل انه قال : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا دعاني . . » الحديث و « وأنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي خيراً » وقال : « لا يموتن احدكم الا ويحسن ظنه بالله الذي تفرد بخلقه واوجده من العدم ، ولم يكن شيئاً ، وبيده ضره ونفعه ، كما قال امامنا وقدوتنا ابراهيم خليل الرحمن : « الذي خلقني فهو يهدين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين » فهذا الرب العظيم الكبير المتعال ، الذي بيده ملكوت كل شيء يحسن العبد به ظنه ، ما يحسن ظنه بالأحجار ، فان الكفار احسنوا ظنهم بالأحجار ، فأدخلهم النار . وقد قال الله تعالى في الأحجار وفيمن احسنوا بها الظن حتى عبدوها من دونه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة » . وقال : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون » وقد امر النبي ﷺ ان يستجمر من البول بثلاثة أحجار ، ماقال :احسنوا ظنكم بها ، بل قال : استجمروا بها من البول » وقد كسر النبي ﷺ الأحجار التي احسن بها الظن حتى عبدت حول البيت وحرقها بالنار » .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

رأى الامام ابن تيمية بثاقب فكره وبعد نظره ان الوحدة الوطنية تتم بالوحدة العقائدية ، فأخذ رضي الله عنه يسعى لتوطيد دعائم هذه الوحدة على اسس ثابتة بالبرهنة للنصارى على التوحيد الخالص ، وعلى صحة الاسلام وصدق نبوة محمد ﷺ من كتبهم نفسها فألف كتابه العظيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لهذه الغاية[1] وقد نقلت هذا البحث من كتاب « حياة شيخ الاسلام ابن تيمية »[2] للأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الذي مهد له بمقدمة قيمة :

وأنا لنأمل ان يكون في هذا البحث لاخواننا في الدين ، عون لمعرفة الحق وبيانه للناس ، كما يكون لاخواننا في الوطن شعلة للنجاة من تضليل المضللين خدام الاستعمار واعداء الوحدة الوطنية التي تقوم على اساس من العقيدة الواحدة والعاطفة المشتركة !

والغريب ان تستمر هذه الهوة بين المواطنين في وقت بشر السيد المسيح عليه السلام بمجيء نبي عربي بعده وميزه عن مدعي النبوة الكذبة بقوله : « من ثمارهم تعرفونهم » !

فهل في البشرية جمعاء من هو اعظم ثماراً من محمد عليه صلوات الله وسلامه ؟ .

لقد شهد بصدقه وعظمته حكماء الغرب والشرق ، فالى متى هذا الانتظار للنبي الموعود !؟ .

آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داود (التوراة والإنجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة الى توحيد الله تعالى ، والوعيد الشديد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة ، فأما تنزيه الآله

---

(١) - وكان الامام ابن تيمية تحقيقاً للهدف نفسه ، كتب الى سلطان المسلمين رسالة مطولة ذكرناها في هذا الكتاب ينصحه فيها بتصحيح عقيدة الباطنيين عن طريق القرآن والسنة فلا يعودون يتعاونون مع اعداء الوطن كالصليبيين والتتار ، نتيجة الخلاف الديني الذي اختلقه اعداء العروبة والاسلام لتمزيق الشمل وتفريق الجمع والقضاء على المجد وتسهيل عملية الاستعمار !

(٢) - وهو من مطبوعات المكتب الاسلامي .

والرب عن الوالد والولد ، وعن الند والضد ، فتراه في الفصول والاعداد ، (وهي كالسور والآيات) من اسفار التوراة ، كتثنية الاشتراع ، وسفر الخروج ، وأشعياء ، مثل قوله : « ان الرب هو الاله ، وليس آخر سواه » « لا يكن لك آلهة اخرى امامي » « لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني انا الرب إلهك اله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الأرض ومن مغربها ان ليس غيري انا الرب وليس آخر » .

وفي انجيل مرقس : فأجابه يسوع : ان اول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل : (الرب الهنا رب واحد) (الفصل ١٢ عدد ٢٩) . وفي انجيل يوحنا : « وهذه هي الحياة الأبدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي ارسلته » (الاصلاح ٣/١٧) .

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة ، ولا تقل البشائر التي لا تنطبق الا على النبي العربي محمد خاتم النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في كتابه (اظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ثماني عشرة بشارة ، وسبقه الى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا هذا الفصل للكلام على كتابه (الجواب الصحيح) ، وتبعه فيه تلميذه الامام ابن القيم في كتابه (ارشاد الحيارى) ، وحسبي الآن ان انقل شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الانجيل ، وكلمات قليلة من الزبور او المزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوحدة والسلام ، والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج اذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على اساس المساواة التامة بين ابناء الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليل ، ومطلب خطير ، يهم اهل الملل السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو الى الوحدة الصحيحة ، بلسان الكتب الإلـهية ، والعاملين بها ، ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

بشارة موسى بمحمد صلى الله عليه وسلم

جاء في العدد الخامس عشر من الأصحاح (او الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية[1] من التوراة) : « ويقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلي ، له

(١) - التثنية : اسم السفر الخامس من اسفار العهد القديم ، وقد اطلق عليه التثنية ، لأنه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

تسمون ! فهذه البشارة صريحة في محمد عليه افضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ، ومن اخوتهم بني اسماعيل غير النبي العربي محمد ، وابناء العم يسمون اخوة ، ومن ذلك تسمية ابناء عمهم (عيسو) اخوة لهم كما في ٢ : ٤ و ٨ من التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال : أقيمه منكم او من نسلكم ، لا من اخوتكم ، لأن يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١ : ١٦) فهو من نسل اسحق ، لا من نسل اسماعيل عليهم السلام .

بشارة الانجيل بالنبي العربي

جاء في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢ و ١٣): إن لي اموراً كثيرة ايضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن ، واما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم الى الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بامور آتية ، فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه ، قال تعالى : سورة النجم : ٣ و ٤ « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي » ومملكة محمد هي مملكة الله في الأرض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله ، وبملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها ، وامر عليه السلام ان يطلبوا اتيانها من الله في صلواتهم ، انظر متى (٣ : ٢ و ٤ : ١٧ ، ٢٣ و ٦ : ١٠ و ١٣ : ٣١ و ٣٢ و ٢٠ : ١ ـ ١٦ و ٢١ : ٣٣ ـ ٤٤ ولوقا : ١٠ : ٢٩ ، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد وبالخميرة وبحبة الخردل ، التي تصير أكثر البقول ، حتى ان طيور السماء تأتي ، وتتأوى في احضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل في أغصانها ، متى ١٣ : ٢٤ ـ ٣٥) وهي منطبقة على ما في القرآن الكريم في محمد واتباعه ، ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع اخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ﴾ (سورة الفتح الآية : ٢٩) شطأه : أي فراخه يقال : أشطأ الزرع ، اذا فرخ ، فآزره من المؤازرة ، وهي المعاونة ، اي فشد أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قصبه ، جمع ساق وهذا مثل ضربة الله لبدء امر الاسلام ، والنبي عليه السلام ، قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف به مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .

بشارة حبقوق وذكر بلاد العرب فيها

قال حبقوق[1] (٣ : ٣ و ٤) « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه[2] جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته » .

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لأنها جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة ايضاً الصحراء الجنوبية ، وتيماء ايضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥ : ١٥ و ١١ ي ١/٣٠) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي . اما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها اسماعيل ابو العرب (تك ٢١/٢١) فكأن حبقوق اشار بعبارته هذه الى مسكن رسول الله . وهو بلاد العرب (او التيمان) والى مسكن اهله ،أو جده اسماعيل . وهو برية فاران .

التصريح ببكة وهي مكة

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥ و ٦) « طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا » والأصل العبراني : وادي (بكة) فأبدل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في نص القرآن[3] .

التصريح باسم محمد

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ : حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ،

---

(١) ـ نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من اسفار العهد القديم حسب ترتيبها الأصلي ، واما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس .

(٢) ـ قال بعض المحشين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على اقوال ، ارجحها في رأينا وهو ما ذهب اليه اشهر المتأخرين من علماء العبرانية ـ انها عبارة عن الأمر بالسكوت او الوقف ـ ايعاز للمنشدين ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات باللحن .

(٣) ـ ضبطنا الألفاظ العبرية على اهلها ونقلنا بعض معانيها الى العربية بالتعاون معهم .

هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة اليسوعيين : حلقه اعذب ما يكون ، بل هو بجملته ، هذا حبيبي) .

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمد يم) والقواميس العبرانية تقول : ان هذه اللفظة لا تفيد مشتهيات ، ولكن تفيد ان محمود ، ونقول ان هذه صريحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقة حلاوة : كناية عن فصاحة كلامه ، لم يأت نبي بكلام احلى مما جاء به خاتم الأنبياء ، وقوله بعدها هذا حبيبي نص في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب الله عز وجل .

ومنه ما جاء في الفصل الثاني من النشيد : اسمعيني صوتك ، لأن صوتك لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الأصل العبراني : (عرب) بدل (جميل) اي عربي . ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجي او حجاي او حكاي ـ كما في الأصل العبري : ٧ وازلزل كل الامم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، اصلها العبراني (حمدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حمد) .

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ، ومحل ميلاده وهو مكة .

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة ؟ وهذا هو الأخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ، وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه ، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين ايديهم من الكتب المقدسة ، ـ دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي اصل العقيدة ومستندها ـ لاجتمعت الكلمة ، واحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين .

الجواب الصحيح . . . لمن بدل دين المسيح

« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » المطبوع بمصر (١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٥ م) يقع في اربعة اجزاء وهي تبلغ اكثر من الف واربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه انه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرص « فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى ان نذكر من الجواب ، ما يحصل به فصل الخطاب ، (ثم قال) : وانا

اذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها ـ فصلاً فصلاً ، واتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً واصلاً ، وعقداً وحلاً . . . فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهي مضافة الى بولص الراهب اسقف صيدا الانطاكي كتبها الى بعض اصدقائه ، وله مصنفات » .

وقد اشتمل رد شيخ الاسلام على ستة فصول :

١ ـ دعواهم ان محمداً ﷺ لم يبعث الا الى اهل الجاهلية من العرب .

٢ ـ دعواهم ان القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه .

٣ ـ دعوى ان نبوات الأنبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك .

٤ ـ فيه تقرير ذلك بالمعقول .

٥ ـ دعوى انهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من الألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة كالفاظ الأقانيم الخ . . .

٦ ـ ان المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال فلا حاجة بعد النهاية الى شرع مزيد على الغاية[1] .

والغرض الأول من تأليف « الجواب الصحيح » على ما يظهر ، هو بيان اصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة . (قال) وهذا اصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، او كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله »[2] والمنسوخ التي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة الى ما اتفقت عليه الكتب والرسل ، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[3] وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس وآل الر ـ هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين ،

---

(١) ـ ص ١٩ و ٢٠ .
(٢) ـ سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .
(٣) ـ سورة البقرة الآية : ٦٢ .

كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والأخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والانجيل والزبور ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد ﷺ يشهد هذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد ﷺ ومن دلائل نبوة اولئك الانبياء[1] .

الأبن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولا صفة ، ولا هو خاص بالمسيح ، وانما يراد به المصطفى المكرم ، (قال)[2] : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما انزل عليه من الوحي ، والملك الذي نزل به ، فيكون قد امرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما انزله على رسوله ، والملك الذي نزل به ، وبهذا امرت الأنبياء كلهم (قال)[3] : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الأنبياء ولا كلام غيرهم ان كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى ابناً ولا روح قدس ، ولا يوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً الا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة انه مصطفى محبوب الله ، كما ينقلونه انه قال لاسرائيل : انه ابنه بكره ، ولداود ابني وحبيبي ، وان المسيح قال للحواريين : أبي وابيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق . قال[4] : « وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبي وابيكم كقوله اني ذاهب الى ابي وابيكم ، والهي والهكم » فيسميه اباً كما يسميهم ابناً له ، فان كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك انه الرب المربي الرحيم ، فإن الله ارحم بعباده من الوالدة بولدها . . . فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه ، واما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك او بغير واسطة .

---

(١) - ج ٣ ص ٢٤٥ .
(٢) - ج ١ ص ٢٥٠ .
(٣) - ج ٢ ص ٦٥ .
(٤) - ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥ .

(وفي ص ٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح ، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره اكابر علماء النصارى .

وفي (ص ٣٣٢ من ج ٢) : بل افصح في كل الانجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ومبدي ما امر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من امره حواريوه وتلامذته ، ووصفوه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بانه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبي له قوة وفضل[1] .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الأنبياء لفظ (الابن) قط الا على مخلوق محدث ، ولا يطلق الا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم اسرائيل ابناً ، ولا داود ابناً لله ، والحواريون كذلك . فتبين ان العارف كلما تدبر ما قالته الانبياء وما قاله اهل البدع من . . . وغيرهم لم يجد لهم في كلام الأنبياء الا ما يدل على نقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) واعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم ، بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح ، وهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفرق ، واطلاعه على مقالاتها واحاطته بفلسفتها ، وقوة عقله في اظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول .

التوحيد الصحيح في كلامهم

ثم خلص الى افراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على ألسنة طوائف منهم ، (وقال ص ٣٠٩) : وقال الاريوسية : ان الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم انه قال : المسيح ليس بابن الله (اي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم انه ابن الله على التسمية والتقريب (الى ان قال) : وهذا الذي نقله عنهم ابو الحسن الزاغوني ، هو نحو ما نقله عنهم القاضي ابو بكر بن الطيب والقاضي ابو

---

(١) - ج ٢ ص ٣٣٢ .

يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال ابو محمد بن حزم : النصارى فرق ، منهم اصحاب آريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله : التوحيد المجرد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وانه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض (اي وهي كلمة « كن ») وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، واول من تنصر من ملوك الروم ، وان كان على مذهب آريوس هذا .

(قال ابن حزم) : ومنهم اصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريركاً بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الانبياء عليهم السلام ، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا إلهية فيه البتة ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس ، (قال) : وكان منهم اصحاب مقدينوس ـ وكان بطريركاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية ايام قسطنطين بانيها ـ وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرد ، وان عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وان روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

رسالة الحسن بن ايوب الى اخيه

وهذه الرسالة من اخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها الى اخيه ، وذكر له سبب اسلامه فيها ، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث ، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من امتع الرسائل وابلغها وفيها ادق المباحث واهمها ، لم تترك شبهة الا كشفتها ، ولا حجة الا حلتها ومن قرأها بتدبر وامعان علم ما علمناه منها ، فقد سبرت غور المسائل ، وقابلت بين الأشياء والنظائر ، واتت باحسن النتائج ، التي تسكن اليها النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الأديان ، وتجعل اهلها عباداً للرحمن ، لا لبني الانسان . وقد اوردها في (الجواب الصحيح) فبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢ ـ ٣٦٣) وصفحتين من اول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها ان مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وانه جرى عليه احكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وامن ، وتعلم وتعليم ، لا يتهيأ لكم انه كان منه في تلك المدة من اسباب اللاهوتية شيء ولا له من احوال الآدميين كلها ـ من حاجاتهم وضروراتهم ، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم ـ مخرج .

ابن الله ومعناه

(قال) : وقد علمتم ان من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك اقراركم انكم جميعاً ابناء الله بالمحبة ، وقول المسيح ابي وابوكم ، والهي والهكم في غير موضع من الانجيل ، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح اذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور ، ان يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك اياه الى ابيه داود ، تحقق ان اباه داود ، وان التسمية الأولى (اي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه على الجهة التي قالها متى التلميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم انتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم . فأخبر ان الروح تحل في القوم اجمعين وتتكلم فيهم .

عشرون الف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى !

ومن تمام كلام الحسن بن ايوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : واذا نظرنا في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجدنا نحواً من عشرين الف آية[1] مما فيه اسم المسيح . وكلها تنطق بعبودية المسيح ، وانه مبعوث مربوب ، وان الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات كثيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من اولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فاخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته ، وقال في أواخر هذه الرسالة :

ومن اعجب العجب ان تكون امة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً ، يتمسكون بامر المسيح عليه السلام ، وتلامذته ، وانجيله ، وسنته وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه اشد الاختلاف ، فمنهم من يقول انه عبد ومنهم من يقول انه الـهٌ الخ . . .

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في اول الجزء الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن ايوب ـ وهو ممن كان من اجلاء علماء النصارى ، واخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم اصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ـ

---

(١) ـ اي امارة او علامة .

ما يبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من ائمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجوهر) لابن البطريق بطريرك الاسكندرية وصفاً شاملاً لاخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب احداثهم ما احدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية ، والرد على من خالفهم (وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن اجل من جمع اخبارهم عندهم (اي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بطريرك الاسكندرية في اثناء المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البطريرك اقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام اقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة احد من الأنبياء قبل محمد ﷺ الا باخبار محمد ﷺ بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة احد من هؤلاء الا بعد التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ما اتفقت عليه الكتب والرسل

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الأصول الكلية العامة ، والى ما جاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام « تجلى الله من طور سينا ، واشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » والى بشارة السفر الأول من التوراة بمحمد ، وبشائر الزبور به وهو مزامير داود . وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة .

وفي الجواب الصحيح (٣٨٢/٣) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا انزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند اهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب ان يكون اشراقه من ساعير ، انزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير ارض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى ، وكما وجب ان يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب ان يكون استعلانه من جبال فاران ، انزاله القرآن على (محمد ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة . (قال) : وليس بين المسلمين واهل الكتاب خلاف في ان فاران هي مكة ، فان ادعوا انها غير مكة . . . قلنا أليس في التوراة ان ابراهيم اسكن هاجر واسماعيل (فاران) وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي انزل عليه كتاب بعد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن احد ان يدعي ان بعد

المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي ، فعلم انه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران الا ارسال محمد ﷺ ، وهو سبحانه ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر انزال التوراة ، ثم الانجيل ، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه والى اماكن هذه الكتب الثلاثة اشار القرآن الكريم ، وقال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦) ، فقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »[1] إقسام منه بالامكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وانزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

بشائر النبوات بالنبي العربي ، والتصريح باسمه

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي ، وفي أشعياء : « اسم محمد ، موجود الى الأبد » قال أشعياء : « يا محمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لزائغ مقال ، او لطاعن مجال ، (ص ٣٠٧) ! وفيه ايضاً التصريح باسمه (احمد) و (محمد) . وقال اشعياء : « انما سمعنا من اطراف الأرض صوت (محمد) !! » وهذا افصاح من اشعياء باسم رسول الله ﷺ (٣/٣١٠) . وفي حبقوق التصريح باسم محمد مرتين : « ان الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد اضاءت السماء من بهاء محمد ﷺ وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط بلاده بعزة (الى أن قال) وترتوي السهام بامرك يا محمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لا تليق الا بمحمد ، ولا تصلح الا له ، ولا تدل الا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

و في (ج ٤ ص ٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الإنجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيله : ان الفار قليط روح الحق الذي يرسله ابي هو يعلمكم كل شيء . وقال يوحنا التلميذ ايضاً عن المسيح انه قال لتلاميذه : ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وانا أطلب من الأب ان يعطيكم فارقليطاً آخر يلبث معكم إلى الأبد روح الحق !!! الخ . . .

وذكر بشارات اخرى من هذه الاناجيل ، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتها على النبي ﷺ وانطباقها عليه دون غيره ! (الى أن قال ص

---

(١) ٩٥ - ١

١٤/٤) : وايضاً فان معنى الفارقليط ان كان هو الحامد او الحماد او الحمد او المعز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فانه وامته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي امر بها ، والمغيبات التي اخبر عنها ، وما وصف به المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة ، قال : وكل ما ذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على اعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له . وعقد فصولاً اخرى في سيرة النبي ، وفي هديه واوصافه واخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (الى ص ١٢٠) ثم ما اخبر بوقوعه في الاحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد اخباره ﷺ بالمغيبات (ص ١٤٨) : وهذا وامثاله مما اخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما اخبر ، ورأى الناس ذلك ، واما ما اخبر به مما لم يقع الى الآن فكثير . ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ او السير ، او النحو ، او اللغة ، او الحديث دون غيرهم ، وبيان ان المحدثين اوثق واضبط من جميع هؤلاء ، وقال (ص ٢٣٥) : وعامة ما ذكرنا من آيات النبي ﷺ هي من موارد اجماعهم لا من موارد نزاعهم . وفي (ص ٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض ـ في صدق نبوة النبي ـ قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل اثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته ، وصد دعوته ، (قال) : وكفى هذا غير واحد في اسلامه والايمان به .

في اواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » ما نصه : وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه ان الرسول ﷺ يدعوه الى الاسلام فقال الجلندي : والله لقد دلني على النبي الامي انه لا يأمر بخير ! إلا وكان اول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان اول تارك له ، وانه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، واشهد انه نبي . وقال نفطويه في قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وان لم يتل قرآناً ، كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

الحكمة والتعليل والقدر

نريد الآن ان نعرف مذهب شيخ الاسلام ابن تيمية في علة صدور العالم . وهل هو لغرض وداع قام بذاته تعالى ام ان خلقه تعالى للعالم ومايجري فيه من الحوادث لا لعلة ولا لغرض . وذلك بعد ان نبين المذاهب المختلفة في هذه المسألة ايضاً وموقفه منها .

آ ـ ذهب الأشاعرة والفلاسفة الى انه تعالى لا يفعل شيئاً لغرض وليست له غاية يقصدها من فعله تكون باعثة له عليه ؟! بل صدور ما يصدر عنه تعالى اما بارادة قديمة اقتضت وقوع العالم على هذا الوجه دون غير عند الأشاعرة ! واما بتمثل النظام الكلي في علمه السابق مع وقته الواجب اللائق على رأي الفلاسفة[1] .

والفرق بينهما هو ان الفلاسفة ينفون عنه تعالى القصد الى الفعل ويرون ان كل فاعل بالقصد مستكمل وله غرض ، في فعله ، اما الأشاعرة فيثبتون القصد ولا يرونه مستلزماً للغرض لانهم يجوزون ترجيح القادر المختار لأحد مقدوريه بلا مرجح اصلاً كما سبقت الاشارة الى ذلك واحتج الأشاعرة والفلاسفة على نفي الغرض في فعله تعالى بأنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها !؟ فانه اما ان يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء ، او يكون وجودها اولى به ، فان كان الأول امتنع ان يفعل لأجلها وان كان الثاني ثبت ان وجودها اولى به ، فيكون مستكملاً ناقصاً[2] .

وابن تيمية يذكر هذه الحجة للأشاعرة وحدهم ، لأنه يرى ان الفلاسفة قائلون بالعلة الغائية كما قالوا بالعلة الفاعلية ، ولكن الحق ان هذه الحجة هي في الأصل للفلاسفة ، ثم اخذها الرازي عنهم . واحتج بها لمذهب الأشاعرة في كتابه المحصل وغيره .

ويشهد لهذا قول ابن سينا في الأشارات .

« تنبيه ـ اعلم ان الشيء الذي انما يحسن به ان يكون عنه شيء آخر ويكون ذلك اولى به واليق من ان لا يكون ، فانه اذا لم يكن عنه ذلك لم يكن ما هو اولى واحسن به مطلقاً . وايضاً لم يكن ما هو اولى واحسن به مضافاً ، فهو مسلوب كمال ، ما يفتقر فيه الى كسب[3] .

---

(١) الاشارات م ٢ ص ٧
(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩
(٣) الاشارات ج ٢ ص ٤

وقوله ايضاً بعد ذلك بقليل :

« فمن جاد ليشرف او ليحمد او ليحسن به ما يفعل ، فهو مستعيض غير جواد ، فالجواد الحق هو الذي يفيض منه الفوائد . لا لشوق منه وطلب قصدي لشيء يعود عليه .

واعلم ان الذي يفعل شيئاً لو لم يفعله قبح به او لم يحسن منه فهو بما يفيده من فعله متخلص[٢] » .

ولعل مما يؤيد هذا الذي قلناه من سبق الفلاسفة بهذه الحجة قول نصير الدين الطوسي في تعليقه على المحصل .

واما قوله « الفخر الرازي » الفاعل بفرض مستكمل بالغرض حكم اخذه من الحكماء استعمله في غير موضعه ، فانهم لا ينفون سوق الأشياء الى كمالاتها والا لبطل علم منافع الاعضاء وقواعد العلوم الحكمية من الطبيعيات وعلم الهيئات وغيرها وسقطت العلل الغائية بأسرها من الاعتبار[١] .

ومهما يكن من امر هذه الحجة وسواء أكان الأصل فيها هم الفلاسفة ام الأشاعرة فقد نقضها ابن تيمية من وجوه كثيرة منها :

١ ـ ان قولهم لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات . فانه يمكن ان يقال فيها ايضاً إما أن يكون وجودها وعدمه بالنسبة اليه سواء او لا يكون . فان كان الاول امتنع صدورها عنه . وان كان الثاني كان مستكملاً بها . فما كان جواباً في المفعولات كان جواباً عن هذا . ونحن لا نعقل في الشاهد فاعلاً الا مستكملاً بفعله .

٢ ـ ان مقتضى الكمال ان يكون الباري لا يزال قادراً على الفعل بحكمة فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصاً .

٣ ـ قول القائل انه مستكمل بغيره باطل . فان ذلك انما حصل بمقدرته ومشيئته لا شريك له في ذلك ، فلم يكن في ذلك محتاجاً الى غيره . واذا قيل كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه الى غيره . كان كما لو قيل كمل بذاته او صفاته فهو مثلاً اذا فرح بتوبة عبده

---

(٢) الاشارات ج ٢ ص ٥

(١) تلخيص المحصل ص ١٤٩

التائب واحب من تقرب اليه بالنوافل ورضي عن السابقين الأولين ونحو ذلك . لم يجز ان يقال انه مفتقر في ذلك الى غيره او مستكمل بسواه . فانه هو الذي خلق هؤلاء وهداهم وأقدرهم حتى فعلوا ما يحبه ويرضاه ويفرح به .

٤ ـ قول القائل كان قبل ذلك ناقصاً ان اراد به عدم ما تجدد فلا نسلم ان عدمه قبل ذلك الوقت الذي اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون ناقصاً . وان اراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه كمال . كما ان وجوده في وقت اقتضاء الحكمة وجوده كمال ايضاً . فليس عدم كل شيء ناقصاً . بل عدم ما لا يصلح وجوده هو النقص . كما ان وجود ما لا يصلح وجود نقص فتبين ان وجود هذه الأمور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص لا ان عدمها هو النقص[1] .

ب ـ واما المعتزلة فيثبتون الحكمة لله في خلقه وأمره : ولكنهم لا يجعلونها قائمة بذاته . بل يجعلونها مخلوقة منفصلة عنه . فيقولون مثلاً الحكمة في وجود الخلق هو الاحسان اليهم ، والحكمة في التكليف هو تعريض المكلفين للثواب ، ويقولون ان الاحسان الى الغير حسن محمود في العقل فخلق الله الخلق لهذه الحكمة من غير ان يعود عليه هو من ذلك مصلحة[2] .

ويرى ابن تيمية ان هذا القول متناقض لأن الاحسان الى الغير انما كان محموداً لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله . اما لتكميل نفسه بذلك ، واما لقصده الحمد والثواب بذلك . واما لرقة والم يجده في نفسه يدفع بذلك الاحسان الألم واما لالتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان ، فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها الى غيرها ، فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الأمور حكم يحمد لأجله ، اما اذا قدر ان وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يعلم ان هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثاً في عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلاً ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عبثاً ، ولم يكن محموداً على هذا ، ولذلك لم يأمر الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا احد من العقلاء احداً بالاحسان الى غيره ونفعه الا لما في ذلك من المنفعة والمصلحة . والا فأمر الفاعل بفعل لا يعود اليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٤ ص ١٦٢ ـ ١٦٣

(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩ والمواقف مع شرحه ج ٨ ص ٢٠٢ الى ٢٠٥ .

الآجل لا يستحسن من الآمر .

ج ـ واما عبد الله بن كلاب ومن وافقه فيثبتون حكمة وغاية قائمة بذاته تعالى ولكنهم يجعلونها قديمة غير مقارنة للمفعول ، ويقولون ان ارادته وحبه ورضاه وغضبه وسخطه ورحمته وكرمه ونحو ذلك قديم .

فهو سبحانه لم يزل راضياً عمن علم انه يموت مؤمناً ولم يزل ساخطاً على من علم انه يموت كافراً .

وهذا الرأي في نظر ابن تيمية باطل كسابقيه فاذا كان الله راضياً في ازله ومحباً وفرحاً بما يحدثه ، قبل ان يحدثه فاذا احدثه هل حصل له باحداثه حكمة يحبها ويرضاها ويفرح بها او لم يحصل الا ما كان في الأزل ، فان قلتم لم يحصل الا ما كان في الأزل قبل ذلك كان حاصلاً بدون ما احدثه من المفعولات فامتنع ان تكون المفعولات قد فعلت لكي يحصل ذاك . فهذا القول كما تضمن ان المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله يتضمن ايضاً انه يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها .

٤ ـ واذا كانت هذه الآراء في الحكمة والتعليل باطلة في نظر ابن تيمية فالصحيح عنده ما عليه جمهور اهل السنة وتشهد له النصوص الكثيرة من ان لله تعالى حكمة تتعلق به ويرضاها ويفعل لأجلها فهو سبحانه يفعل ما يفعل لحكمة يعلمها وهو يعلم العباد او بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك ، والامور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كارساله محمداً ﷺ فانه كما قال تعالى « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » فاذا قال قائل فقد تضر برسالته طوائف كثيرة من الناس كالذين كذبوه من المشركين واهل الكتاب فالجواب انه نفعهم بحسب الامكان حيث اضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار الحجج والآيات التي زلزلت ما في قلوبهم وبالجهاد والجزية التي اخافتهم واذلتهم حتى قل شرهم .

على ان ما حصل من الضرر هو امر مغمور بجانب ما حصل من النفع كالمطر الذي عم نفعه اذا خرب به بعض البيوت او احتبس به بعض المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصوداً ورحمة محبوبة وان تضرر به بعض الناس .

على ان ابن تيمية يرى ان جميع ما يحدثه الله في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة كما قال تعالى « صنع الله الذي اتقن كل شيء » وكما قال « الذي احسن كل

شيء خلقه » والضرر الذي تحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً وان كان شراً بالنسبة الى من تضرر به .

ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ اضافة الشر وحده الى الله وانما يذكر الشر على احد وجوه ثلاثة :

١ ـ فهو اما ان يدخل في عموم المخلوقات فاذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم وذلك مثل قوله تعالى « الله خالق كل شيء » ومن ذلك اسماء الله المقترنة مثل المعطي المانع والضار النافع والمعز المذل والخافض الرافع ونحو ذلك فلا يفرد اسم المانع عن قرينه ولا الضار عن قرينه ولان اقترانها يدل على العموم .

٢ ـ واما ان يضاف الى السبب كقوله « من شر ما خلق » وقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وقوله « ربنا ظلمنا أنفسنا » وقوله « او لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم اني هذا قل هو من عند انفسكم » وأمثال ذلك .

٣ ـ واما ان يحذف فاعله كقول الجن « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ام اراد بهم ربهم رشداً » وقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ويقول ابن تيمية ان العبد اذا علم من حيث الجملة ان لله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علما وايمانا ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله وتبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

هذا هو مذهب ابن تيمية في مسألة الحكمة والتعليل ينم عن نفس شديدة التفاؤل وقلب مفعم بحب الوجود وما فيه من آثار رحمة الله تعالى ومجالي حكمته حتى انه ليتلمس حكمة الله في الشر كما يترصدها في الخير ، ولعل هذه النزعة المبالغة في التفاؤل هي التي جعلت منه هذ الرجل الجلد الصابر على ما مني به في حياته من احداث ومصائب ما كان يطيقها لولا ثقته برحمة الله التي كانت تشيع في نفسه الأمل والرجاء وكانت له في حياته أجمل عزاء .

بقي علينا ان نعرف مذهب ابن تيمية في القدر وهو مذهب يقوم على الايمان بعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولكنه مع ذلك لا

يبطل الأسباب الكونية والقوى الطبيعية عن أعمالها كما انه لا ينكر فاعلية العباد واصدار

اعمالهم عنهم بما جعله الله فيهم من قدر وإرادات . ويرى ان ذلك كله من القدر ، لأن القدر لا يقوم على ابطال الأسباب بل على اعمال الأسباب ، كما سئل رسول الله ﷺ أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله[1]

وابن تيمية ينكر على المعتزلة جحدهم لعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وقولهم ان الحيوانات تصدر عنها أفعالها على سبيل الاستقلال من غير تأثير لقدرة الله ولا لمشيئته في شيء منها . ويرى تبعا للاشاعرة انهم أشبهوا في ذلك المجوس الذين يقولون بخالقين خالق للخير او النور وخالق للظلمة او الشر[2] .

كما أنه ينكر على الاشاعرة ايضا انهم مع تسليمهم بعموم القدرة وشمول المشيئة يثبتون ارادة بلا حكمة ومشيئة بلا رحمة ولا محبة ولا رضى ويجعلون المخلوقات بالنسبة اليه سواء كما انهم يجحدون تأثير الأسباب في مسبباتها ويعطلون ما خلقه الله في الأشياء من قوى الطبائع ويقولون ان قدرة العبد لا تأثير لها في شيء من فعله .

ولكن شر الطوائف في نظر ابن تيمية بالنسبة الى القدر طائفة يسميهم « بالقدرية المجبرة » يقولون ان الله جبر عباده على ما أراد ويحتجون بالقدر على إبطال الأمر والنهي والوعد والوعيد ولهذا يسوون بين المؤمن والكافر وبين البر والفاجر وبين الطاعة والمعصية فآدم وابليس عندهم سواء ونوح وقومه سواء وموسى وفرعون سواء والسابقون الأولون والكافرون سواء[3] .

ولئن كان المعتزلة في نظره يشبهون المجوس فهؤلاء يشبهون المشركين عباد الاصنام الذين يقولون « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤ نا ولا حرمنا من شيء » .

ويقول ابن تيمية ان هذا الضلال أكثر ما يكون في أهل التصوف والزهد والعبادة الذين يدعون التوحيد والفناء في التوحيد . ويقولون ان هذا نهاية المعرفة وأن العارف اذا صار الى هذا المقام لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة ولكنهم مع ذلك لا يعرفون توحيد الألوهية الذي يقوم على عبادة الله وحده لا شريك له ولا يعلمون ان مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه لا يكون

---

(١) المحصل للرازي ص ١٥٧

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٢٧

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ص ٣٣٤

توحيداً حتى تقترن به شهادة أن لا إله إلا الله كما قال تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » .

ويشتد ابن تيمية في نقد هؤلاء الناس حتى يجعلهم أكفر من اليهود والنصارى فيقول :

« ومعلوم ان من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن أحد منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاون عليه اثنان فان القدر إن كان حجة فهو حجة لكل أحد وإلا فليس حجة لأحد .

« فاذا قدر ان الرجل ظلمه ظالم او شتمه شاتم او أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك فمتى لامه او ذمه او طلب عقوبته فقد أبطل الاحتجاج بالقدر ومن ادعى ان العارف إذا شهد الارادة سقط عنه الأمر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه اليهود ولا النصارى بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع فإن الجائع يفرق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والسراب ، فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه مع أن الجميع مخلوق لله تعالى »[1]

« ولو جاز لأحد ان يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ولم يقتل مشرك ولم يقم حد ولم يكف أحد عن ظلم وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول »[2].

هذه هي خلاصة مذهب ابن تيمية في القدر يؤمن به ولا يحتج به ولا يتخذه وسيلة لمعارضة ما جاء به في الشرع من الأحكام والتكاليف .

وهذا فيما نعتقد المذهب الوسط بين من ينفي القدر ويكذب به وبين من يثبته ثم يعارض به النظام الشرعي او الطبيعي .

تلك أمثلة من آراء ابن تيمية ومناقشاته في أمهات المسائل الكلامية عرضناها لتكون نموذجاً يستعان به على تعرف نزعات الرجل ومنهجه في العقيدة والى أي حد كان انتصاره لمذهب السلف واحترامه للنصوص في كل مسألة عالجها: مع ما امتاز به من قدرة على العرض وقوة في النقد وخبرة واسعة بالمذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة بحيث كان

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٥ ص ١٣٣
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٥ ص ١٣٩

مضرب المثل في غزارة العلم وسعة الاطلاع[1] ، وكان أول ثلاثة قال فيهم الشاعر :

ثلاثة ليس لهم رابع ... في العلم والتحقيق والنسك
وهم اذا شئت ابن تيمية ... وابن دقيق العبد والسبكي

الغزالي وابن تيمية

لا يستطيع المؤلف ان يتحدث عن ابن تيمية رضي الله عنه دون ان يتطرق في بحثه الى الغزالي ، حيث انبرى له شيخ الاسلام في كثير من المواضيع وتعقبه في كثير من بحوثه حتى كاد يجرده من العلم ، بل من الايمان أيضاً !

قال الامام ابن تيمية[2] أثناء الكلام على الغزالي في كتابه « المضنون على غير أهله » : « وهو فلسفة محضة قوله : المشركين العرب خير منه ! . . . دع قول اليهود والنصارى ! » .

ولنسارع قبل ان يتهم شيخ الاسلام ابن تيمية بالمبالغة والشطط الى نقل عبارات للغزالي ، نترك الحكم فيها للقارىء .

« لا إله إلا الله توحيد العوام ! ولا هو إلا هو توحيد الخواص »[3] .

ومعنى قول الغزالي انه يعتقد بوحدة الوجود أو الشهود معتبرا إيمان الرسول ﷺ وأصحابه من بعده ، بل جميع الأنبياء من قبل ، إيمان عوام ! .

قال النبي ﷺ : أفضل ما قلت انا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده . . الحديث

ويتحدث الغزالي عن المحجوبين فيقول عن عبدة الأوثان : « هؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره[4]، وعن عباد الأشجار انهم محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس »[5] .

ويقول الغزالي عن عباد النار : « هؤلاء محجوبون بنور السلطة والبهاء ، وكل ذلك

---

(١) « ابن تيمية السلفي » للاستاذ محمد خليل هراس
(٢) في كتابه « الرسائل والمسائل » ص ٨١
(٣) « الجواهر الغوالي » ص ١٢٥
(٤) المصدر السابق ص ١٤٢
(٥) المصدر السابق ص ١٤٣

من أنوار الله تعالى ! » .

ويقول عن عباد النجوم : « هؤلاء محجوبون بنور العلو والاشراق والاستعلاء وهي من أنوار الله تعالى »[1].

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ومنهم ـ يقصد الصوفية ـ من يزعم انه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء، وأبو حامد (أي الغزالي) يكثر من مدح هذه الطريقة »[2] ثم يقول ابن تيمية في الصفحة نفسها : « وأبو حامد يقول : انه سمع الخطاب كم سمعه موسى » .

يقول الغزالي : « ان القلب له بابان بأحدهما يطلع على اللوح المحفوظ ، ويشبه القلب بالمرآة ، واللوح المحفوظ بالمرآة ، يتقابلان فينقش ما في اللوح المحفوظ في القلب »[3].

ويقول الغزالي[4] : « اذا جلس في مكان وعطل طريق الحواس وقال دائماً : أالله أالله بقلبه دون لسانه أبصر باليقظة الذي يبصره بالنوم ، فتظهر له أرواح الأنبياء والملائكة وانكشف له ملكوت السموات والأرض ورأى ما لا يمكن شرحه او وصفه »[5]

وقال الامام ابن تيمية : « إنه ـ ويقصد الغزالي ـ لم يعرف ما قاله احمد ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث » !

وكيلا نبهت القارىء بنفي معرفة الغزالي بالقرآن والحديث نسوق له بعض تفسيراته وعبثه بآي الذكر الحكيم !ـ

وقال الغزالي في تفسير « لعلي آتيكم منها بقبس او أجد على النار هدى » لعلك من سرادقات العز تنادي بما نودي به موسى أنا ربك »[6]

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٣

(٢) كتاب « الرسائل والمسائل » ص ٨٧

(٣) كتاب « الجواهر الغوالي » ص ١٤

(٤) المصدر السابق ص ١٥

(٥) ان لنا على هذا الكلام ملاحظات ثلاث :
الاولى : انه كذب واختلاق، وفي التجربة أكبر برهان .
الثانية : ان الذكر بكلمة الله الله ذكر مبتدع لم يعرف عن الرسول ﷺ ـ ولا أحد من أصحابه والتابعين، وقد كان الكفار يقولون (الله) ولم تنقذهم من النار : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ! »
الثالثة : ان الذكر لا يسمى ذكراً إلا اذا اشترك اللسان مع القلب .

(٦) « الاملاء الملخص لكتاب الاحياء » ص ٤٤ طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية .

وقال الغزالي : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » معناه « وإنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعساكر وجعلنا النفس مركبه حتى يسافر عليه من عالم التراب الى أعلى عليين »[1] .

ولا شك ان هذا التفسير من قبيل تحريف الكلم عن مواضعه!

وقال الامام ابن تيمية :

« ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال : كلام ابي حامد يشوقك فتسير خلفه ، ويشوقك فتسير خلفه منزلا بعد منزل ، فاذا هو ينتهي الى لا شيء ! »[2]

وإنني أشارك رأي شيخ الاسلام ابن تيمية والشيخ الجليل محدثه بان كلام الغزالي ينتهي الى لا شيء ! إنما ينتهي الى كل شيء وما نراه من أنصار الغزالي ودارسي كتبه من انحلال وجبر وصوفية ان هو إلا من آثار الغزالي وثمراته !

كيف لا وكلامه ـ كما يقول الامام ابن تيمية ـ « برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ، ففيه فلسفة مشوبة بالاسلام ، واسلام مشوب بالفلسفة »[3]

لقد كان ابن تيمية يعرض بمنهج الغزالي ويلحقه بالفلاسفة ويقول في ذلك[4] :

«والمتفلسفة يقولون القرآن جاء بالطرق الخطابية والمقومات الاقناعية التي تقنع الجمهور ، ويقولون ان المتكلمين جاؤوا بالطرق الجدلية ، ويدعوا انهم هم أهل البرهان اليقيني ، وهم أبعد عن البرهان في الالهيات من المتكلمين ، والمتكلمون أعلم بالعمليات البرهانية في الآلهيات والكليات ، ولكن المتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الآلهيات ، فإنهم من أجهل الناس بها ، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل ، وكثير الخطأ ، فهو لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فيقلى ! »

ويقول الامام ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » معرضاً بالغزالي : « وقول من يقول ان كلام الله يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض ، أما من العقل الفعال عند بعضهم ، وأما من غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين كابن سينا وأمثاله ، ومن

---

(١) « الجواهر الغوالي » ص ١١ .

(٢) كتاب « النبوات » ض ٧٩ ج طبعة السيد منير الدمشقي

(٣) المصدر السابق ص ٧٩

(٤) رسالة معراج الوصول في مجموعة الرسائل الكبرى .

دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم كأصحاب وحدة الوجود ، وفي كلام صاحب الكتب المضنونة بها على غير أهلها ورسائله مشكاة الأنوار[1] وأمثاله ، ومن دخل مع هؤلاء ما قد يشار به الى هذا ، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا ، ولكن كلامه يوافق هؤلاء تارة ، وتارة يخالفه ! »

ثم يقول الامام ابن تيمية بعد ذلك :

« وآخر أمره ـ أي الامام الغزالي ـ استقر على مخالفتهم ومطابقة الأحاديث النبوية » .

مما سلف يتبين لنا ان الامام ابن تيمية لا يرى العقل وحده كافياً للوصول الى حقائق الدين ، بل لا بد من الاستعانة بالنقل ايضا ، ويرى أن المعتمد في ذلك على الكتاب والسنة . ومعنى هذا ان العقل ينبغي أن يكون في ذلك تابعاً لا متبوعاً ، ومن اعتمد على العقل وحده كان كحاطب ليل .

وقد حمل الامام ابن تيمية على الامام الغزالي وأضرابه في سيره في تفسير صفات الله على التأويل كالاستواء مجاز على الاستيلاء ، واليد عن القدرة ، والعين عن البصر .

ويقول في ذلك :

« إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها ، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما رووه من الحديث ، ووفقت من ذلك على ما شاءالله تعالى من الكتب الكبار والصغار ، اكثر من مئة تفسير فلم أجد الى ساعتي هذه عن احد الصحابة انه تأول شيئاً من آيات الصفات او أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف »[2] .

---

(١) أي الامام الغزالي .

(٢) تفسير سورة النور لحجة الاسلام ابن تيمية ص ١٤٥

والغريب ان يحشر الاستاذ محمد ابو زهرة نفسه في هذا الخلاف بين الامامين الكبيرين فيقول في كتابه ابن تيمية (ص ٢٩٣) « بعد هذا العرض للأنظار المختلفة ننتهي الى اننا لا نميل الى طريقة ابن تيمية في فهم المتشابه ، لأنها تفضي بنا الى توهم التشبيه والتجسيم ، وخصوصاً بالنسبة للعامة ، ونرتضي بلا ريب طريقة الغزالي في تقريب الالفاظ ذلك التقريب الفكري المستقيم .

« ونرى ان تخريج كلام السلف على منهاج الغزالي أسلم ، ولا نسوغ لأنفسنا ان نقول متهجمين على ابن تيمية انه أحق وأصدق ، ولكن نقول بلا ريب انه أدق وأسلم ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

كيف نقول أسلم ، وكان السلف وهم في خير القرون يرفضونه ، وقد سئل الامام مالك عن الاستواء في قوله تعالى : « واستوى على العرش » الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ! ولم يعرف عن الرسول ـ ﷺ ولا عن أحد من أصحابه أنه أول صفات الله في القرآن او الحديث .

ومهما كان من أمر التأويل فانه عاجز عن التعبير كتأويل الاستواء بالاستيلاء ، وفي ذلك نسبة العجز =

لقد درس كل من الامامين الغزالي وابن تيمية الفلسفة ، ولكنهما مختلفان في الزاوية التي ينظر كل منهما فيها الى هذه الفلسفة . فالغزالي درسها ليطلب الحقيقة عن طريقها متخذاً الشك سبيله ومدعياً عدم الثقة بعلم كل من لم يدرسها فهي وحدها بنظره ميزان العلوم .

فقال في كتابه « المستصفى في علم الاصول » :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامهما على منهاج أو جزء بما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الاصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة معلومة أصلاً[1] » .

= اليه تعالى حيث لم يكن مستولياً ثم استولى !

ان الصواب كل الصواب في اتباع مذهب السلف البعيد عن التشبيه والتعطيل ، فان التأويل يؤدي الى التعطيل ، والتجسيم الى التشبيه ، والله ـ جل شأنه ـ منزه عن كل ذلك . إن تأويل الصفات يؤدي الى عبادة مخلوق . واذا قال بعض المتنطعين بان القول ان الله يدا أو عيناً فيه تشبيه ، نقول كذلك يقال ان نسبة السمع والرؤية الى الله فيه تشبيه ، وهذا لا يقول به عاقل ، ما دمنا نقول ان يده ـ تعالى ـ وعينه وسمعه ليست كيدنا وعيننا وسمعنا .

وقال الاستاذ ابو زهرة ايضا في موضوع آخر من كتابه المذكور (ص ٢٧٠) بعد أن ساق كلاما للامام ابن تيمية في النهي عن التأويل فيقول : « هذا كلام ابن تيمية بنصه ولا تتسع عقولنا لادراك الجمع بين الاشارة الحسية بالاصابع والاقرار بأنه في السماء، وأنه يستوي على العرش . وبين التنزيه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث .

« وأن التأويل بلا شك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية ، ولا يصح ان يكلف الناس ما لا يطيقون . واذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله ، للجمع بين الاشارة الحسية وعدم الحلول في مكان، او التنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل الى سعة أفقه ان كان كلامه مستقيما » .

وتعليقاً على كلام ابي زهرة نقول اذا كان عقله لا يتسع لما قاله ، فقد اتسع له عقل جارية مسترقة لما سألها رسول الله ﷺ أين الله ؟ فقالت : هو في السماء . وأشارت بإصبعها (أي في العلو المطلق) فشهد الرسول بايمانها .

وأما قول ابي زهرة ايضا « ان التأويل بلا شك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية، ولا يصح ان يكلف الناس ما لا يطيقون . . . » فكلامه هراء ، وقد كان عليه السلام لا يكلف الناس ما لا يطيقون ، مع ذلك لم يؤول هو ولا أحد من اصحابه والحقيقة ان التأويل هو الذي لا تحتمله العقول، فتسلم بما أنزل الله على رسول الله دون تأويل ولا تشبيه ، فمن أول فقد عبد عدماً ومن شبه فقد عبد صنما ! وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف !

(١) مقدمة المستصفى ج ١ ص ١٠ .

وهذا بخلاف حجة الاسلام ابن تيمية ، فقد درس الفلسفة ليبين ضلال ما يعارض الدين منها ، فهو لم يتخذ الشك سبيله ، بل أنه آمن بما جاء من عند الله على لسان رسوله محطماً ما جاء في الفلسفة معارضاً له ، فأبعد عن العقل الاوهام الفلسفية ، ليقبل على الشريعة الاسلامية حسب فطرته وعدم معارضته لصحيح المنقول ، ويقول ابن تيمية بهذه المناسبة :

« لما كان بيان مراد الرسول ﷺ في هذه الابواب لا يتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الانبياء ، بيّنا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، اذ كان أي دليل اقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع اذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ؛ بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به اخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الاخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات او بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه ، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلا[1] » .

مما تقدم يظهر الفرق واضحاً بين الامامين الغزالي وابن تيمية في مبلغ رسوخهما في الدين وحجتها البالغة ، لذا قال ابو بكر الرازي عن الغزالي « أنه دخل في بطن الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع !! » .

وكذلك قال عنه الامام ابن تيمية وقد أنصفه في كثير من المواضع :

« كان أبو حامد (الغزالي) مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من أشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وامور اضيفت توافق اصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ! بل المخالفة لصريح المعقول ! ، حتى تكلم فيه جماعات من علماء[2] خراسان والعراق والمغرب[3] » .

---

(١) عن كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » .
(٢) وعمدوا الى حرق بعض كتبه لهذه الاسباب .
(٣) شرح العقيدة الاصفهانية للامام ابن تيمية ص ١١٥ .

وقال الامام ابن تيمية عن الغزالي أيضا :

« وأبو حامد لا يوافق المتفلسفة على ما يقولون ، بل يكفرهم ويضللهم في موضع ، وان كان في الكتب المضافة اليه ما قد يوافق بعض اصولهم ، بل في الكتب التي يقال بأنها مضنون بها على غير أهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وان كان قد عبر عنها بعبارات اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول انها مكذوبة على أبي حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها ، ولا ريب أنه صرح في بعض المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال ، وغيره من كتبه بما في هذه من الضلال »[1] .

وينقل الامام ابن تيمية عن ابي عبد الله المازري الفقيه المتكلم فيقول :

قال ابن المازري :

« ووجدت هذا الغزالي يقول على ابن سينا في اكثر ما يشير اليه في علوم الفلسفة ، حتى انه في بعض الاحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير ، واحياناً يغيره ، وينقله الى الشرعيات اكثر مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم باسرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا[2] عوّل الغزالي في علم الفلسفة[3] .

قال الاستاذ محمد أبو زهرة الاستاذ في كلية الشريعة في جامعة القاهرة[4] :

« من هذا يتبين كيف عجز الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها ! لانه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نيته في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في اطارها . فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي . ففلسف الشريعة ، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر .

« أما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها ، فكان يقرؤها ويفهمها . وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، وأخذ يتتبع هفواته ويتقصى هناته .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٢) اخوان الصفا جمعية سياسية باطنية ظهرت في القرن العاشر الميلادي زعمت انها ترمي الى سعادة النفس ، كان لها نزعة فلسفية مقتبسة من اليونان والهند وفارس .ولاخوان الصفا كثير من الرسائل في مباحث مختلفة .

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥ .

(٤) في كتاب « ابن تيمية » ص ٢٣٩ .

ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك اصول العقيدة وفروع الفقه والاحكام العلمية . لان النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ولا طريق سواه ، ويرى أن اولئك الذين يصنعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها ، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة . ويقول في ذلك : « ويقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم . وان النظر يوجب العلم . وانه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل . ثم اذا صاروا الى ما هو الاصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الاعراض على حدوث الاجسام وهو دليل مبتدع في الشرع »[1] .

« وينتقد ابن تيمية هؤلاء ، لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها ثم يحكمون على الاوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها ويوجهونها بتوجيهها ،فما يوافقها اقروه كما ورد ، وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، وأولوه بتأويلها ، هم في هذا السبيل لم يلتفتوا الى السنة ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب ، مبينة لكل ما جاء فيه وانها الطريق الوحيد لتفسيره .

« ينقد ابن تيمية ذلك المسلك ، لأنه يجعل الحاكم محكوماً : فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكمة بها خاضعة » .

نقد المنطق

حمل الامام ابن تيمية على منطق ارسطو حملة شديدة في كتابه « نقض المنطق » وسخر من الذين يقولون أنه لا براهين الا ما يكون المنطق دليلها وطريقها . لما في ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبرهم المناطقة علومهم ظنية لانهم كانوا جاهلين بالمنطق ! ولم يحاولوا تأويل الصفات في القرآن .

فأخذ الامام ابن تيمية يثبت للملأ أن المنطق من علوم الصابئة ، وهو دخيل على العلوم الاسلامية ، ولام الغزالي لتصريحه بوجوب اتخاذ المنطق ميزاناً للعلوم مع أن الفقهاء من قبله كانوا ينظرون اليه نظرة بغض .

يقول ابن الصلاح عن المصطلحات الفلسفية والمنطقية : « ان هذا من المنكرات

---

(١) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي .

المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالاحكام الشرعية افتقار الى المنطق أصلاً ، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحد والبرهان فقاقيع قد اغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان »[1] .

وينقل الامام ابن تيمية بعد قراره فتوى ابن الصلاح ، استنكار العلماء لما جاء في مقدمة « المستصفى » للغزالي ، فقد اعتبر المنطق ميزان جميع العلوم وعممه في جميع علوم الدين ، ثم يقول الامام ابن تيمية :

« يحكى عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فابو بكر وعمر وفلان وفلان يعني ان اولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة واسبابها ، قال الشيخ ابو عمرو وقد ذكرت بهذا ما حكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (ابو حيان التوحيدي) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد باصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم ، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني ، فقال الوزير : اريد أن ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في قوله انه لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بما حويناه من المنطق ، واستفدناه من واضعه على مراتبه ، فانتدب أبو سعيد السيرافي ، وكان فاضلا ، وكلمه في ذلك حتى افحمه »[2] .

نكتفي بهذا القدر من بيان مبلغ ابتعاد الامام الغزالي عن الاسلام الصحيح بنظر الامام ابن تيمية وبنظر الحق ، وليس شيخ الاسلام وحده الذي انبرى له بالنقد والتجريح ، فهناك علماء فحول غيره امثال ابن رشد وابن الجوزي[3] في كتابيه « تلبيس ابليس » و « صيد الخاطر » .

لهذا كله نرى أنه لم يعد يستحق لقب حجة الاسلام ، وان كان لا يزال خليقاً بلقب حجة المسلمين المقلدين والمبتدعة المستسلمين الذين يعرفون الحق من الرجال ، لا الرجال من الحق ! .

---

(١) « فتاوى ابن الصلاح » ص ٤٣٥ .

(٢) « العقيدة الاصفهانية » ص ١١٦ .

(٣) راجع كتابنا الذي صدر من مدة بعنوان الامام الغزالي في ميزان : ابن تيمية وابن الجوزي .

وليس غرضنا الحط من قدر الامام الغزالي ، فهو الآن في عالم استوى لديه فيه الثناء والذم ، انما غرضنا تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائه وحض العوام وطلاب العلم على عدم دراسة كتبه التي اختلط فيها ـ كالأحياء مثلا ـ الشر القليل بالخير الكثير ، قبل التعمق في معرفة الاسلام الصحيح ، وتمييز الحق من الباطل .

ان لقب حجة الاسلام[1] جدير بالامام ابن تيمية لما عرفناه من سعة علمه وفضله وجهاده ، فهو مجدد القرن الثامن الهجري الذي اخبر عنه النبي ﷺ بقوله « ان الله يبعث على رأس مئة كل عام من يجدد لهذه الامة أمر دينها » . فقد ولد عام ٦٦١ هـ وتوفي في عام ٧٢٨ هـ ، ولا يصدق هذا الحديث بالامام الغزالي المولود عام ٤٥٠ هـ والمتوفى عام ٥٠٥ هـ .

والقصد من التجديد في الحديث الشريف دعوة المسلمين الى النبع الاسلام الصافي الاول وتطهيره مما لحق به من البدع ، وقد قام حجة الاسلام ابن تيمية بهذا الدور خير قيام ، بعكس الامام الغزالي الذي خالف أهل السنة في كثير من الامور ذكرنا بعضها ونذكر فيما يلي بعضها الآخر :

١ ـ اعتناقه مذهب الاشاعرة وفيه الجبر الكثير والقول بتكليف ما لا يطاق .
٢ ـ دعوته الى التصوف البعيد عن روح الاسلام الصحيح .
٣ ـ انكاره السببية وتعطيله بذلك الحكمة من ايجاد الكائنات .

٤ ـ قوله بعلم الشريعة وعلم الحقيقة « فيسمي دين الله شريعة ، ويسمي الأساطير الباطلة حقيقة ، أو يسمي المعاني الحقيقية بكلمات الله : ظاهراً ، ويسمي ما يفتريه من معاني باطلة لهذه الكلمات : باطنا » وبهذا يفسد العقيدة والفكر والاخلاق .

٥ ـ ادعاؤه بامكان الوصول الى الحاسة الدينية وهي ما تعرف بالكشف والذوق عن طريق الخلوة[2] والاذكار المبتدعة ، ولو صحت نتائج هذه الحاسة لكانت اوصلت الغزالي

---

(١) بمعنى حجة المسلمين ، فليس للاسلام حجة الا كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ ﷺ ـ

(٢) حدثت قضية طريفة في مهرجان الغزالي الذين اقيم بدمشق في شهر شوال ١٣٨٠ هـ وفق آذار ٩٦١ م نرويها للتفكهة والعبرة وملخصها أن أحد المحاضرين تحدث عن الغزالي بدمشق وعن خلوته في زاوية في احدى منارات الجامع الاموي عرفت فيما بعد بالزاوية الغزالية .

وبعد الظهر من اليوم نفسه كان دور المناقشة ، فقام الدكتور عبد الرحمن بدوي الوجودي المعروف في الاقليم الجنوبي ـ الاستاذ بجامعة عين شمس ـ وعلق على المحاضرة المذكورة بقوله : انني الآن جئت من الجامع الاموي وصعدت المنارة الى آخرها بدرجها الطويل ، فلم اجد مكاناً يمكن للغزالي ان يخلو =

الى التمييز بين الاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة التي جاءت في كتبنا وخاصة الأحياء منها .

النصير الطوسي وابن العلقمي وابن تيمية

قال الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار :[1]

= به بنفسه . ورد عليه بعضهم بأن المنارة تهدمت بحريق الاموي ، وقد كان فيها مكان لخلوة الغزالي .

وقد ادهشنا الاستاذ عبد الرحمن بدوي بتحقيقه فيما لا طائل وراءه ، وقد كنا نود ان نرد عليه ، ولكن حال ضيق وقت المناقشة دون ذلك ، فنثبت فيما يلي ما كنا نريد ان نقوله له :

« ليت الاستاذ بدوي بدلا من اضاعة وقته في التحقيق التجريبي لمعرفة موضع خلوة الغزالي - غير الشرعية - قدم للملأ تحقيقاً عن نتائج المذهب الوجودي ، وما أدى اليه من اباحية وانهيار خلقي مريع .

كيف لا تكون له هذه النتائج الهدامة وامامه الدكتور بدوي يقول في رسالة صدرت بالقاهرة عام ٩٥٣ بعنوان « هل يمكن قيام اخلاق وجودية » :

« الوجودي الحق . . اعدى اعدائه القانون ، انه الحرية نفسها . . فلا معنى للواجب في عالمها . ولا تقييد لدى انطباعها وانطلاقها ، انه الفعل الدائم أياً كان نوعه ونتائجه ، فان معاني الاثم والصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب .

« اننا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق في احلام البراءة والبكارة والطهارة ، بل نصيح ملء فينا : افعلوا !! افعلوا ! حتى لو أدى ذلك الى الخطا !! » .

- وسرعان ما كان لنداء وفلسفة الاستاذ بدوي صداها في الشباب الطائش الاحمق ، فاعلن تلميذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة التصريح الآتي الذي نشرته جريدة « الجمهورية » مقروناً باسمه ومستنكرة جريمته قال : « . . . أنا اؤمن بالوجودية وشعاري سأعلم ابني كيف يصبح بلطجياً ، وابنتي كيف تصبح فاجرة ان شاءت ! » .

اننا نقسم ان المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ومعسكر الشياطين لو اجتمعوا بعضهم لبعض ظهيراً لهدم كيان هذه الامة ، لما استطاعوا باكثر مما يقوم به الاساتذة الوجوديون وامثالهم من الاباحيين والملاحدة . وهكذا لم تعد الصليبية الحديثة تحاربنا بالسلاح ، بل بابنائنا !

اننا جد آسفون لهذا الاستطراد في الكلام على الوجودية . ولنا بعض العذر في ذلك . ان الوجودية والصوفية الحلولية مدار بحثنا تكاد ان تكونان صنوين متشابهين في الاباحية نتيجة عقيدة وحدة الوجود والحلولية ، ألم يكن الصوفي العفيف التلمساني لا يحرم فرجا ويبيح نكاح الام والاخت ويقول لمن اعترض عليه : انت محجوب ! (راجع كتاب «مصرع التصوف » ص ١٦٧) .

(١) « حياة شيخ الاسلام ابن تيمية » للأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ص ١٨٦ . طبع المكتب الاسلامي ، والتعليقات في هذا المنقول هي من كلام الشيخ بهجة ، او تعليق الناشر .

وقفت على ما كتبه زميلنا العلامة الشيخ سليمان ظاهر بعنوان : (نصير الدين الطوسي الحكيم الرياضي الفلكي) ومدار بحثه على ان النصير امامي اثنا عشري ، لا نصيري ولا اسماعيلي ، كما يرى ابن تيمية في رسالته التي يرد بها على النصيرية .

ومن حجته في ذلك أنه ألف في أصول المذهب الامامي وفروعه ، وأنه مدفون بمشهد الامام الكاظم موسى بن جعفر الصادق ، (الذي تنكر امامته الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ويرونها محصورة في اسماعيل أو ولده الحبيب) .

وأجاب بأنه كان مكرها على صلته بهولاكو حفيد جنكيز التتري ، وصحبته له ، كما كان مكرها من زعيم الاسماعيلية ركن الدين على المقام معه في قلعته برتبة الوزير والمشير ، وكان له من هولاكو مثل هذه الرتبة .

قال الاستاذ (الظاهر) « أما ما كان للنصير من أثر مبرور ، وعمل مشكور ، في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم فقد بلغ عشرات الالوف ، وما استبقى عليه من الثروة العلمية وكتبها المعرضة للحريق والغرق ، فقد بلغت مئات الألوف (قال :) وأما ما خدم به علم الافلاك فحسبه ابتناؤه قبة ورصداً عظيماً في مراغة ، وقد ولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده » .

ونقل عن شمس الدين العرضي أن نصير الدين أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه الا الله تعالى خارجاً عن الجوامك (الرواتب) التي للحكماء والقومة .

ثم قال : فأنت ترى من هذا العرض القليل من مآثر النصير التي ما كان يتوقع تحقيق جزء منها لولا صحبته واستيزاره لهولاكو اللذان كانا للمسلمين رحمة لا نقمة ، وخيراً لا شراً .

ثم عجب لما ذهب اليه ابن تيمية من خلال هذا ، فقال : « وان من العجب أن نرى الامام العلامة ابن تيمية وهو معاصره ، وممن لا يتعذر عليه تمحيص الحقائق ، فلا يبخسه حقه . .

فيقول فيه في رسالته الرد على النصيرية « ثم ان التتار ما دخلوا بلاد الاسلام ، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين الا بمعاونتهم ومؤازرتهم ، فان مرجع هؤلاء الذين

كان وزيرهم وهو النصير الطوسي ، كان وزيراً لهم بالملوك وهو الذي أمر بقتل الخليفة !! » .

قال الزميل (الكريم) : ومن يقابل ما عزاه الامام ابن تيمية الى النصير . بما كتبه العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي المتوفي ٧٦٤ قبل وفاة النصير بثمان سنين بكتابه « فوات الوفيات » يجد أن الكتبي وقد تأخر عصره عن عصر ابن تيمية ستا وثلاثين سنة ـ كان ما كتبه وقد سكنت العاصفة . . هو المعقول وهو الأحق بالاتباع وبراءة النصير مما عزي اليه ، وهو ما لم يعرض له الكتبي بقليل أو كثير .

وأخيراً عزا الاستاذ سقوط الخلافة العباسية الى لهو الخليفة المستعصم ولعبه ، وكلفه بسماع الاغاني وطربه ، ناقلا ذلك عن المؤرخ ابن الطقطقي في كتابه : « الفخري في الآداب السلطانية » الى قوله : وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أراذل العوام ، الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس ! وعقلاء الرجال !! وكان مكفوف اليد مردود القول ، يترقب العزل والقبض صباح مساء » .

وختم الزميل الاستاذ مقاله بان الحافز له الى هذا البحث هو عزو البحاثة العزاوي النصير الطوسي الى الفرقة الاسماعيلية قال : وكأنه تابع ابن تيمية في ذلك ، والنصير من أقطاب علماء الامامية كما أوضحناه (قال) : وللكاتب الشكر على تنبيهنا بمقاله الممتع على دفع تلك الشبهة ، ودحض ما حام حول النصير من التهم في سقوط الخلافة العباسية ، وهو منها بريء والحق أحق بالاتباع . اهـ .

وهنا يجول في الخاطر أمور ، أرى لزاماً علي أن أوجه اليها نظر الاستاذ العزيز ، ولو بالكلم الوجيز فأقول :

١ ـ انه سها بجعله وفاة ابن شاكر الكتبي قبل وفاة النصير الطوسي بثمان سنين ، لأن النصير توفي سنة ٦٧٢ هـ وصاحب (الفوات) سنة ٧٦٤ هـ فيكون توفي بعده بـ (٩٢) عاماً لا قبله بثمان سنين ! .

٢ ـ لما توفي النصير كان لابن تيمية أحد عشر عاماً ، اذ ولادته كانت سنة ٦٦١ فهو لم يعاصره معاصرة صحبة ولا مكاتبة .

٣ ـ استطرد عند ذكر موسى الكاظم الى الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ومن الاسماعيلية من ليسوا باطنية ولا حلولية ، فما معنى التقييد (بالآغاخانية) وهم وزعيمهم من رأينا وعرفنا ؟ ومثلهم البهرة في الهند ؟ .

٤ ـ لم ينفرد الامام ابن تيمية بما ذكره من أمر النصير الطوسي ، بل كتب التاريخ قد صرحت بهذا ، واني ابدأ منها بما صرح به ميرزا محمد باقر الموسوي المؤرخ الشيعي في تاريخه (روضات الجنات) عن النصير الطوسي في ترجمته له ، قال ما نصه :

« ومن جملة امره المشهور والمعروف والمنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم ! في محروسة ايران هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان من عظماء سلاطين التاتارية وأتراك المغول ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد ، الى دار السلام بغداد ، لارشاد العباد ! واصلاح البلاد وقطع دابر سلسلة البغي والفساد ! واخماد ثائرة الجور والالباس ، بابداد دائرة ملك بني العباس ، وايقاع القتل العام ، من اتباع أولئك الطغام ، الى أن أسال من دمائهم الاقذار ! كأمثال الانهار فانهار ، بها في ماء دجلة ومنها الى نار جهنم ! دار البوار ، ومحل الاشقياء الاشرار ! وقد كفينا مؤونة تفصيل هذه الواقعة المشتهرة ، بما رسمه أرباب التواريخ المعتبرة ، في أحوال السلاطين المغولية المستطرة اهـ .

هذا ما قاله هذا المؤرخ الشيعي والظاهر أن اصلاح الحال (بنظره) ، هو بالابادة والاستئصال !! وهذه شماتة ظاهرة في الدنيا والآخرة ، والى الله المصير ! .

وقال المؤرخ السبكي في الطبقات : « وأما الخليفة فقيل أنه (أي هولاكو) طلبه ليلا ، وسأله عن أشياء ، ثم أمر به ليقتل ، فقيل لهولاكو أن هذا ان أريق دمه تظلم الدنيا ، ويكون سبب خراب ديارك ، فانه ابن عم رسول الله ﷺ ، فقام الشيطان المبين ، نصير الدين الطوسي وقال : يقتل ولا يراق دمه ، وكان النصير من أشد الناس على المسلمين » .

وبعد أن قتلوا الخليفة والامراء عن آخرهم ، « مدوا الجسر وبذلوا السيف ببغداد ، واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوماً ، ولم ينج الا من أختفى . . « ثم حفرت الدور وأخذت الدفائن والاموال التي لا تعد ولا تحصى . . « فألزم المسلمون بالفطر في رمضان وأكل الخنزير وشرب الخمر !! . . « وأعطى دار الخليفة لشخص من النصارى ، وأريقت الخمور في المساجد والجوامع !! ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط من منذ قامت الدنيا مثله » ا هـ .

فأين من أنقذه النصير من سيف هذا الظالم بعد هذا القتل العام الذي أجراه في دار السلام ؟! وهل ما أخذه من هولاكو من المال الذي لا يحصيه الا الله تعالى ـ بسبب عمارة الرصد ـ خارجاً عن الجوامك (الرواتب) التي للحكماء والقومة ، هل هو الا من الأموال

التي نهبها هولاكو (بعد التقتيل العام) وهي لا تعد ولا تحصى ؟ فأين عدل الفلاسفة وحكمتهم ؟ وأين نصحهم لهولاكو وتأثيره ؟؟ وهل الكتب التي استبقاها النصير ـ وقد بلغت مئات الألوف ـ الا من المنهوبات أيضاً كالأموال ؟!ـ ولو نقل الأستاذ عن ابن شاكر في فواته ، كما نقل عنه الاستاذ الزركلي في أعلامه وسركيس في معجمه ، لظهر الحق للعيان ، وتبينت الاساءة من الاحسان !! ففي (ج ٣ ص ٩٧٤) من الأعلام : « واتخذ خزانة عظيمة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، اجتمع فيها نحو أربعمائة الف مجلد » ومثلها في معجم سركيس (ص ١٢٥٠) وانظر (ص ١٤٩ ج ٢) فالاستاذ لم يصرح بأنها من المنهوبات ، أو بأنها أمانة بيد الطوسي ومن معه ، يجب ردها الى أهلها .

وأين هذا مما نشرناه في مجلة المجمع العلمي تحت عنوان شجاعة الامام (ابن تيمية) وغيرته على الدين والوطن وهو : « أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبذل السلطان غازان ـ وهو اول من أسلم من ملوك المغول ـ أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره ، وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة . . . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراد ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، ولما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟؟ ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية ، وسعيه في اطلاق اسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، واصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط :

اذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى !

سقوط الخلافة العباسية على يد الوزير ابن العلقمي

نقل الاستاذ الزميل قول من قال في وصف أصحاب الخليفة المستعصم : « وكلهم جهال من أراذل العوام (قال) الا وزيره مؤيد الدين محمد ابن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال !! وكان مكفوف اليد ، وأراني مضطراً أن أذكر ما أغفله الزميل من كتب التاريخ حفظاً للحقيقة أن تضيع قال الاسحاقي في تاريخه أخبار الاول (ص ١٠٨) : وكان سبب زوالها ـ أي الخلافة العباسية ـ استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم ، وتفويض أمور المملكة اليهم ، وامتهانهم غاية الامتهان ، الى ان صاروا أسماء بلا

مسميات ، وصوراً هيولى يتصرف فيها بالمحو والاثبات ، ومن أعظم أسباب زوالها أن مؤيد الدين العلقمي كان وزير المستعصم ، وكان رافضياً مستولياً على المستعصم عدواً له ولأهل السنة !! يداريهم في الظاهر وينافقهم في الباطن ! وكان يريد ازالة الخلافة من بني العباس واعادتها الى العلويين . . . وصار يكاتب هولاكو ويطمعه في ملك بغداد !! ويطالعه باخبارها ، ويعلمه كيفية أخذها ، ويخبره بضعف الخليفة وانحلال العسكر عنه ! وصار الوزير يحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر ، فقطع أرزاقهم وشتت شملهم ! بحيث انه أذن مرة لعشرين الف مقاتل ان يذهبوا الى اين ارادوا ، ووفر علوفاتهم في الخزينة ، وأظهر للمستعصم انه وفر من علوفات العسكر اموالاً عظيمة في بيت المال ، فأعجب المستعصم رأيه ، وكان يحب المال ويجمعه ، وما كان يعلم انه يجمعه لعدوه :

يخبر كم انه ناصح وفي نصحه ذنب العقرب !!

الى أن قال (ص ١١٠) : ثم ان المستعصم ومن معه لم يزل في غفلته لاخفاء ابن العلقمي سائر الاخبار عنه الى أن وصل هولاكو الى بلاد العراق واستأصل من بها ، وتوجه الى بغداد ، فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور ، وندم على فعلته حيث لا ينفعه الندم ، وجمع من قدر عليه وبرز الى قتال هولاكو ، فوقع المصاف والتحم القتال ، ووقع الطراد والنزال ، واستمر من اقبال الفجر الى ادبار النهار » ، الى آخر ما قاله .

وانقل هنا ما سجله في كتابه الاسلام والحضارة العربية ، رئيس مجمعنا السابق الاستاذ كرد علي رحمه الله ، فكتابه جامع التواريخ وخلاصتها ، وقوله فصل في مثل هذه النوازل وأسبابها ، قال (ص ٣٠٢ ج ١) :

وبينما كانت في هذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن سرة بلاد الاسلام مصر والشام فتخرب مدن وحصون ، وتدك معالم وجوامع كان جنكيز ـ يخرب في اواسط آسيا وبلاد المسلمين ، ولم تكد تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد ـ يخربها ويقتل الخليفة المستعصم . ويقضي على جلة الفقهاء ورجال الدولة ويضع السيف في دار السلام[1] اربعين يوماً ويستخرج الاموال والتحف بأنواع العذاب ، ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة ، وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة الف ، عدا الاطفال ومن هلكوا في السراديب والقنى والآبار ، واحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم ! وبنى بكتب

---

(١) « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، في المائة السابعة » لابن القوطي .

العلماء اصطبلات الخيول ! وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن . وقيل ان ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والاوراق ! وقيل انه اقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة ! .

هذا عدا ما نهب من البلاد التي احتلها فملأ في مراغة خزانة عظيمة من الاسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة الف[1] مجلد .

(قال) ومن أعظم البلاء في القضاء على الخلافة العباسية بدار السلام أن الرافضة عاونوا[2] هولاكو على المسلمين لما جاء خراسان والعراق والشام ، كما كانوا عاونوا جده جنكيز ، قال ابن تيمية : وكان العلقمي وزير الخليفة منهم ، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم ، وينهى العامة عن قتالهم ، ويكيد أنواعاً من الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال انه بضعة عشر الف الف انسان ![3] او أكثر او اقل ، ولم يرد في الاسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر . ا هـ .

قلت : فأين كان النصير الطوسي ، وماذا عمل في هذه المذابح العامة ، وأين ما كان له (من أثر مبرور ، وعمل مشكور في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم ، فقد بلغ عشرات الألوف) وما ندري من أين نفحه الزميل الكريم هذه المبرة ، وهو وزير الكفرة الفجرة ونصيرهم على الاسلام وأهله ، وقد رأينا له مأثرة لم يذكرها الاستاذ لأنها مزرية بالحكماء ، وهي من ترجمته في فوات الوفيات ، ومجملها أن هولاكو غضب على علاء الدين الجويني صاحب الديوان فأمر بقتله ، فتوجه النصير وبيده عكاز وسبحة ثم اصطرلاب ، وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً وناراً ، فرآه خاصة هولاكو فأخبروه ، فأدخل عليه فأشار النصير عليه باطلاق من في الاعتقال والعفو عمن له جناية ، فأمر هولاكو بذلك خوفاً على ملكه ، وانطلق صاحب الديوان في جملة الناس « ولم يذكره النصير الطوسي ، وهذا غاية في الدهاء ، بلغ به مقصده ودفع عن الناس أذاهم » قلت هذه المسألة شخصية لم يرد بها الوزير النصير غير علاء الدين ، وهو زميله ، ولو استطاع تخليصه وحده بأية وسيلة ، لما أجرى هذه الحيلة ، ثم أليس في العفو عن أصحاب الجنايات مضيعة لحقوق المجنى عليهم ؟

---

(١) فوات الوفيات للكتبي .
(٢) منهاج السنة لابن تيمية .
(٣) اي مجموع ما قتله التتر .

ونختم القول بكلمة كاشفة عن مراد ابن تيمية في وصفه للنصير ـ في رده على النصيرية ـ بما وصفه به ، نوردها بلسان تلميذه الامام ابن القيم ، قال في اغاثة اللهفان الكبرى :[1]

ولما انتهت النوبة الى . . . النصير الطوسي وزير هولاكو ، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه ، فعرضهم على السيف ، حتى شفا اخوانه من الملاحدة ، واشتفى هو ، فقتل الخليفة[2] والقضاة والفقهاء والمحدثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم وجعلهم خاصته وأولياءه . (الى أن قال) :

وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم وانكار المعاد ، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم ، فقام له نصير الالحاد وقعد ، ونقضه بكتاب سماه « مصارعة المصارعة » ووقفنا على الكتابين ـ نصر فيه (أي النصير) أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأنه لا يعلم شيئاً ، وأنه لا يفعل شيئاً بقدرته واختياره ، ولا يبعث من في القبور » ا هـ .

ومن أخف ما قيل في النصير ما جاء في مفتاح السعادة (ج ١ ص ٢٦١) : الا أنه تجاوز الله عنه ، كان غالياً في التشيع ، كما يفصح عنه المقصد السادس في التجريد . وكان يحكى عنه مع ذلك أمور لا تناسب رتبته في العلم حيث كان في معنى الوزير للكافر المسمى بهولاكو ملك الترك الطغاة ، وهو الذي أغار على بلاد المسلمين وخربها وانقطعت بسببه سلسلة الخلافة العباسية في بغداد ، وجرى ما جرى مما اشتهر أمره ويطول شرحه » .

وجملة القول : ان اصرح ما قرأناه في ترجمة النصير وعقيدته هو كلام ميرزا محمد الباقر صاحب روضات الجنات المؤرخ الاصفهاني . فالله أعلم بحقيقة حاله ومآله .

سبب موت الحسن وشهادة الحسين

لما كان شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يسعى لدعم الوحدة الاسلامية على أساس من التفاهم متين ، لذلك تحدث عن فتنة الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ بشيء من التفصيل ، بغية ازالة سوء التفاهم بين المسلمين[3] :

---

(١) ص ٢٦٧ .

(٢) علق الاستاذ المصحح على هذا بما محصله ان التتار الذين دخلوا بغداد هم الذين قتلوا الخليفة بمعالأة ابن العلقمي وزير المستعصم ، وكان النصير الطوسي قاضي التتار ومشيرهم .

(٣) المنتقى وهو مختصر منهاج السنة للامام الذهبي ص ٢٦٦ و٢٦٧ بقليل من الاختصار .

قال الباطني المردود عليه :

« وشتم معاوية الحسن » فهذا قيل ولم يثبت . فيقال : ان امرأته سمته ، وكان مطلاقاً رضي الله عنه فلعلها سمته لغرض . والله أعلم بحقيقة الحال . وقد قيل أن أباها الاشعث ابن قيس أمرها بذلك ، فانه كان يتهم بالانحراف في الباطن عن علي وابنه الحسن . واذا قيل أن معاوية أمر أباها كان هذا ظناً محضاً ، والنبي ﷺ قال « اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث » . وبالجملة فمثل هذا لا يحكم به في الشرع باتفاق المسلمين ، فلا يترتب عليه أمر ظاهر لا مدح ولا ذم ، ثم أن الاشعث بن قيس مات سنة أربعين ، وقيل سنة احدى واربعين ، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة ، وهو عام احدى واربعين . وكان الاشعث حما الحسن بن علي ، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك . واذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته ؟

وأما يزيد فلم يأمر بقتل الحسين (باتفاق أهل النقل) ، ولكن كتب الى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق ، والحسين ـ رضي الله عنه ـ كان يظن أن أهل العراق ينصرونه ويوفون له بما كتبوا اليه[1] فارسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، فلما قتلوا مسلماً وغدروا به وبايعوا ابن زياد اراد الرجوع فادركته السرية الظالمة ، فطلب أن يذهب الى يزيد أو يذهب الى الثغر ، أو يرجع الى بلده ، فلم يمكنوه من ذلك حتى يستأسر لهم . ولكنه ـ رضي الله عنه ـ أبى أن يسلم نفسه ، وأن ينزل على حكم عبد الله بن زياد ، وقاتل حتى قتل شهيداً مظلوماً ـ رضي الله عنه ـ ولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع ، وظهر البكاء في

---

(١) وقد علق الاستاذ محب الدين الخطيب على ذلك بالابيات التالية :

غداة استغاثت بالحسين جموعهم ... اذا خف منهم تابع حل تابع
ان اقدم الينا يا ابن احمد اننا ... لغير ابن بنت المصطفى لا نبايع
ومذ نزلوا في عرصة الطف وانجلت ... حقيقة ما يخفى من الغدر خادع
فباءوا بذل مهطعين رؤوسهم ... حيارى وما في الجمع للنصح سامع
ولم يرعووا بل صاح صائح جمعهم ... بصوت له تستك منه المسامع
ان انزل على حكم الامير مبايعاً ... والا فما غير الاسنة شافع

هكذا شهد أحد شعراء الشيعة المعاصرين لنا وهو محمد جواد خضرة فأجرى الله الحقيقة على لسانه . ولما انصرف علي بن الحسين بالذرية من كربلاء ودخل الكوفة خرج لهم شيعتهم الخائنون ونساؤهم يندبن متهتكات الجيوب كما يفعل القوم الآن في كل عاشوراء ، فقال لهم علي بن الحسين سلام الله عليه : « يا أهل الكوفة ، انكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟! » .

داره ، ولم يسب لهم حريماً أصلاً بل جهزهم وأعطاهم وبعثهم الى وطنهم . وكان معاوية وصى يزيداً برعاية حق الحسين واجلاله .

وقال الامام ابن تيمية في موضع آخر[1] معلقاً على هذا الحادث المؤسف والمؤلم

ولهذا استقر امر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الائمة وترك قتالهم ، وان كان قد قاتلهم في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين . وباب قتال أهل البغي ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر يشتبه بالقتال في الفتنة ، وليس هذا موضع بسطه . ومن تأمل الاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الباب ، واعتبر أيضاً اعتبار أولي الابصار ، علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الأمور . ولهذا لما اراد الحسين ـ رضي الله عنه ـ ان يخرج الى أهل العراق لما كاتبوه كتباً كثيرة ـ أشار اليه أفاضل أهل العلم والدين كأبن عمر وابن عباس وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ان لا يخرج ، وغلب على ظنهم انه يقتل ، حتى ان بعضهم قال : استودعك الله من قتيل ! وقال بعضهم ؛ لولا الشفاعة لامسكتك ومنعتك من الخروج ! وهم بذلك قاصدون نصيحته ، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين . والله ورسوله انما يأمر بالصلاح لا بالفساد ، ولكن الرأي يصيب تارة ويخطىء اخرى . فتبين ان الأمر على ما قاله اولئك ، اذ لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، بل تمكن اولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً ، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده ، فان ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء ، بل زاد الشر بخروجه وقتل ونقض الخير بذلك وصار سبباً لشر عظيم ، وكأن قتل الحسين مما اوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان مما اوجب الفتن ، وهذا كله مما يبين ان ما امر النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم ، هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد ، وان من خالف ذلك معتمداً او خطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد ، ولهذا اثنى النبي ﷺ على الحسن بقوله « ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » ولم يثن على احد لا بقتال ولا فتنة ولا بخروج على الأئمة ولا نزع من طاعة ولا بمفارقة الجماعة .

وقد ثبت في البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : « أول جيش يغزون

---

(١) ص ٢٨٧ .

القسطنطينية مغفور لهم » فأول من غزا من القسطنطينية جيش بعثهم معاوية وعليهم ابنه يزيد ، وفيهم من سادات الصحابة أبو أيوب الأنصاري فحاصروها . . .

وأما قول الباطني المردود عليه « والسبي والحمل على الجمال بلا اقتاب ، فهذا من الكذب الواضح ، ما استحلت امة محمد ﷺ سبي هاشمية ، وانما قاتلوا الحسين خوفاً منه ، من أن يزيل عنهم الملك ، فلما استشهد فرغ الامر وبعث بآله الى المدينة ، ولكن جهل الباطنيين اليه المنتهى ، ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي عنه مستحق للعقاب ، ولكن ليس قتله باعظم من قتل ابيه ، وقتل زوج اخته عمر ، وقتل زوج خالته عثمان !! » اهـ .

القضاء والقدر

للعقيدة في نفوس الناس أثر عميق ، ايجاباً أو سلباً ، حسب ما تكون هذه العقيدة صحيحة أو باطلة ، أو كانت صحيحة في الأصل ، ولكن تسرب اليها الفساد والضلال بعد ذلك ، فجعلها آلة هدم وتخريب ، بدل أن تكون وسيلة للسعادة والقوة والرقي .

هذه عقيدة القضاء والقدر في الاسلام ، فقد كانت مصدر قوة المسلمين الاولين وسبب مجدهم ، وعظمتهم ، حينما اعتقدوا باختيار المرء وحريته ومسؤوليته في الحياة ، فاعتمدوا على انفسهم وشدوا من عزائمهم وشحذوا افكارهم فانطلقوا في آفاق العلوم وميادين الجهاد .

أما اليوم فان اكثر المسلمين ـ ويا للأسف ـ نتيجة التصوف ومذاهب علم الكلام الباطلة آمنوا بالجبر ، وهو كفر صراح ، فتركوا العمل واستسلموا للكسل ، واعتقدوا أن الله تعذيب الطائع واثابة العاصي ، وهو كفر صراح أيضاً ما دام الله سبحانه قد حرم الظلم على نفسه ، ففقدوا الامل وتسرب الشك الى نفوسهم في العدل الالهي وهكذا غدوا في فوضى واضطراب ولا ينقذهم منها الا الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر .

يقول بعضهم ان الانسان في العالم مسير ولا فائدة من جده ما دام ان الله قد قدر على العبد عمله قبل ان يخلقه ، فهو كالورقة المندفعة في المجرى المائي ليس له شيء من الاختيار ، ألم يقل الله سبحانه « والله خلقكم وما تعملون »[1] .

---

(١) جاء في كتاب الفلسفة القرآنية (١٥٣) ان استشهاد الجبريين بان الله يقول « والله خلقكم وما تعملون » فالكلام فيه موجه الى قوم ابراهيم اذ قال لهم اتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما

هذا الاعتقاد وهم فاحش ، وفيه سوء ظن بالله ، اذ ليس من المعقول أبداً أن يجبر الانسان ويقيده ثم يعاقبه ! ﴿وما ربك بظلام للعبيد ـ ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ـ ولا يرضى لعباده الكفر﴾ .

ان تقدير الله سبحانه هو بمثابة العلم السابق تقريباً ، فقد علم تعالى ان زيداً مثلاً سيعطى عقلاً وتدبيراً ولكنه سيجري مع هواه فكتبه من الاشقياء . وبعكسه عمرو مثلا فانه سيعطى كزيد من العقل والتدبير غير انه سيتبع الهدى فكتبه من السعداء . . والى هذا يشير تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

يقول الفيلسوف ديكارت « أن الجسد محكوم بقوانين طبيعية كسائر الاجسام المادية ، ولكن الروح طليقة من سلطان هذه القوانين وعليها أن تجاهد الجسد وتلتمس العون من الله بالمعرفة ، والقداسة في الجهاد . ومن تلاميذه من يقول : ان الانسان حر في كل فعل من افعاله ولكن الله يعلم منذ الأزل ما سيفعله كل انسان لأنه عليم خبير .

هذا ملخص معضلة القضاء والقدر وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت ذلك :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » .

« ستجزون ما كنتم تعملون » .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

« وأن ليس للانسان الا ما سعى » .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« كل امرىء بما كسب رهين » .

ولو كان الامر بخلاف ذلك لكان من العبث ارسال الانبياء وانزال الكتب السماوية .

أما الآيات التي يدل ظاهرها على عكس ذلك فهي تعين مشيئة الله العليا في القضايا العامة فليس المرء حراً في التصرف في العالم كما يشاء ! .

= تعملون ! اي خلقكم وخلق هذه الاصنام التي تنحتونها وليس المقصود به نسبة معاصي العباد الى الله !! .

وكثير من الآيات التي يشتم منها رائحة الجبر ذكرت بعد نضال المؤمنين أو بعد عناد الكفار واصدارهم فحقت عليهم العماية وغضب الله سبحانه . لنتأمل في قوله تعالى « من يهدي الله[1] فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً » نجده ذكر بعد نضال أهل الكهف وفرارهم من الكفر . ولنتأمل أيضاً في قوله تعالى : « من يهدي الله[1] فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً فأولئك هن الخاسرون » . جاء بعد قوله سبحانه « ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »[2] .

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين » . « فان الله لا يهدي من يضل » « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

والخلاصة ينبغي للمرء أن يعتقد أن له جزءاً اختيارياً يسمى الكسب وهو مناط الثواب والعقاب . وقد كان هذا الاعتقاد قديماً بين المسلمين حافزاً لهم للوثوب والتقدم .

وقد شعر حجة الاسلام ابن تيمية بثاقب رأيه انحراف المسلمين في فهم عقيدة القضاء والقدر فألف رسالة هامة في ذلك ننشرها فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام حسنة الايام أوحد المجتهدين قامع المبتدعين تقي الدين احمد بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي ـ رضي الله عنه ـ عن قوم يحتجون بالقدر ويقولون قد قضي الامر من الأزل ، فالسعيد سعيد والشقي شقي من الأزل ويحتجون بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون » ويقولون مالنا في جميع الافعال قدرة ، وانما القدرة لله تعالى ، قدر الخير والشر وكتبه علينا والمراد بيان خطأ هؤلاء بالأدلة القاطعة . ويقولون من قال لا اله الا الله دخل الجنة . ويحتجون بالحديث الذي فيه قوله ﷺ وان زنا وان سرق وبغير ذلك . فما الجواب من هذا جميعه افتونا مأجورين .

فأجاب نفعنا الله بعلومه :

الحمد لله رب العالمين . هؤلاء القوم اذا صبروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من

---

(١) سورة الكهف آية ١٧ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٧٦ .

اليهود والنصارى ! فان النصارى واليهود يؤمنون بالامر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال الله تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فاذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقاً فكيف بمن كفر بالجميع ومن لم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده بل ترك ذلك محتجاً بالقدر فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض . وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه :

احدها أن الواحد من هؤلاء اما أن يرى القدر حجة للعبد وإما أن لا يراه حجة للعبد . فان كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس فانهم كلهم مشتركون في القدر وحينئذ يلزمه ان لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل ، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون فان احدهم لا يزال يذم هذا ويبغض هذا ويخالف هذا حتى أن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه ، فاذا كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا احداً ولا يبغضوا أحداً ولا يقولوا عن احد أنه ظالم ولو فعل ما فعل ومعلوم أن هذا لا يمكن احداً فعله ولو فعل الناس هذا لهلك العالم فتبين أن قولهم فاسد في العقل كما أنه كفر في الشرع وأنهم كذابون مفترون في قولهم ان القدر حجة للعبد .

الوجه الثاني : أن هذا يلزم منه أن يكون ابليس وفرعون وقوم نوح وقوم هود وكل من أهلكه الله بذنوبه معذورين ! وهذا من الكفر الذي اتفق عليه ارباب الملل !

الوجه الثالث : أن هذا يلزم عنه أن لا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا أهل الجنة وأهل النار . وقد قال تعالى « وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الأموات » . وقال تعالى « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » وقال تعالى « ام حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . وذلك أن هؤلاء جميعاً سبقت لهم من الله تعالى السوابق وكتب الله تعالى مقاديرهم قبل أن يخلقهم وهم مع هذا قد انقسموا الى سعيد بالايمان والعمل الصالح ، والى شقي بالكفر والفسوق والعصيان، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله تعالى .

الوجه الرابع : أن القدر نؤمن به ولا نحتج به فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبول لقبل من ابليس وغيره من العصاة . ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق ولا قتل قاتل ولا اقيم حد على ذي جريمة ولا جوهد في سبيل الله ولا امر بمعروف ولا نهي عن منكر !! .

الوجه الخامس : « أن النبي ﷺ سئل عن هذا فانه قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة . فقيل : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه البخاري ومسلم . وفي حديث آخر في الصحيح انه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون . أفيما جفت به الاقلام وطويت به الصحف فقيل . ففيم العمل . فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

الوجه السادس : أن يقال إن الله تعالى علم الامور وكتبها على ما هي عليه فهو سبحانه قد كتب أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة وفلاناً يفسق ويعصي فيدخل النار كما علم وكتب أن فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد ، وأن فلاناً يأكل ويشرب فيشبع ويروى . وأن فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع . فمن قال أن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان قوله قولاً باطلا متناقضاً لما علمه الله وقدره . ومثل من يقول أنا لا أطأ امرأة فان كان الله قضى لي بولد فهو يولد فهذا جاهل فان الله تعالى اذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل وتلد . فأما الولد بلا حبل ولا وطء فان الله لم يقدره ولم يكتبه ، كذلك الجنة انما أعدها الله تعالى للمؤمنين فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا ايمان كان ظنه باطلاً واذا اعتقد أن الاعمال التي أمر الله بها لا يحتاج اليها ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافراً والله قد حرم الجنة الا على أصحابها .

(فصل) وأما قوله تعالى « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى » الآية فمن سبقت له من الله الحسنى فلا بد أن يصير مؤمناً تقياً فمن لم يكن من المؤمنين لم تسبق له من الله الحسنى ، لكن الله اذا سبقت للعبد منه سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به الى تلك السابقة كمن سبق له من الله تعالى أن يولد له ولد فلا بد أن يطأ امرأة يحبها فان الله سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات فسبق منه هذا وهذا ، فمن ظن أن أحداً سبق له من الله الحسنى بلا سبب فقد ضل بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات وهو قدر فيما مضى هذا وهذا .

(فصل) ومن قال أن آدم عليه الصلاة والسلام ما عصى فهو مكذب للقرآن يستتاب

فان تاب وإلا قتل ، فان الله تعالى قال : « وعصى ادم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » فالمعصية هي مخالفة الامر الشرعي . فمن خالف أمر الله الذي أرسل فيه رسله وأنزل به كتبه فقد عصاه ، وان كان داخلا فيما قدره الله وقضاه وهؤلاء ظنوا ان المعصية هي الخروج عن قدر الله . فان لم تكن المعصية الا هذا فلا يكون ابليس وفرعون وقوم نوح وقوم عاد وثمود وجميع الكفار عصاة أيضاً لأنهم داخلون في قدر الله تعالى . ثم قائل هذا يضرب ويهان فاذا تظلم ممن فعل ذلك به قيل له هذا الذي فعل هذا ليس هو بعاص لله تعالى فانه داخل في قدر الله عز وجل كسائر الخلق . وقائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال .

(فصل) أما قول القائل ما لنا في جميع أفعالنا قدرة فقد كذب فان الله تعالى فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع وقال (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وقال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) والله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة وفعلا كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن الا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل فانه لا رب غيره ولا اله سواه وهو خالق كل شيء وربه ومليكه .

(فصل) وأما قول القائل الزنا من المعاصي مكتوب فهو كلام صحيح لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به ، فان الله تعالى كتب أفعال العباد خيرها وشرها وكتب ما يصيرون اليه من السعادة والشقاوة وجعل الاعمال سبباً للثواب والعقاب وكتب ذلك كما كتب الأمراض وجعلها سبباً للمرض والموت فمن اكل السم فانه يمرض او يموت والله تعالى قدر وكتب هذا وهذا كذلك من فعل ما نهي عنه من الكفر والفسوق والعصيان فانه فعل ما كتب عليه وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك ، وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين الذين قال الله تعالى عنهم (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم !) وقال تعالى (سيقول الذين اشركوا ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم تخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) .

(فصل) وأما قول القائل من قال لا اله الا الله دخل الجنة واحتجاجه بالحديث المذكور فيقال لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد . وقد قال تعالى (ان الذين

يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة ، والعبد عليه ان يصدق بهذا وهذا لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهؤلاء المشركون ارادوا ان يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد ، والحرورية والمعتزلة ارادوا ان يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما خطأ والذي عليه أهل السنة والجماعة الايمان بالوعد والوعيد وكما ان ما توعد الله به العبد من العقاب قد يبين سبحانه انه مشروط بان لا يتوب فان تاب تاب الله عليه وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فان الحسنات يذهبن السيئات وبأن لا يشاء الله ان يغفر له فان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهكذا الوعد له تفسير وبيان فمن قال بلسانه لا اله الا الله وكذب الرسول ﷺ فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك ان جحد شيئاً مما انزل الله تعالى . فلا بد من الايمان بكل بكل ما جاء به الرسول ﷺ ثم ان كان من أهل الكتاب[1]فأمره الى الله تعالى ان شاء غفر له وان شاء عذبه . وان ارتد عن الاسلام ومات مرتداً كان في النار ، فالسيئات تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة . ومن كان له حسنات وسيئات فان الله تعالى لا يظلمه بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى يتفضل عليه ويحسن اليه بمغفرته ورحمته ومن مات على الايمان فانه لا يخلد في النار . فالزاني والسارق لا يخلد في النار لا بد أن يدخل الجنة ، فالنار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وهؤلاء المسؤول عنهم يسمونه القدرية المباهية المشركية وقد جاء في ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا الجواب . اهـ .

من مظاهر الشرك

التوحيد أصل عظيم من أصول الدين ، وقد كان السبب الأول في انطلاقة المسلمين في ميادين الفتح والمجد ، وفي آفاق العلم والحضارة حتى غدوا سادة العالم ومحرري الانسانية من الطواغيت والطغاة مما حقق قول الرسول ﷺ حينما نادى بالعرب : « كلمة واحدة تعطونها ، تدين لكم بها العرب وتخضع لكم بها العجم : « تقولون لا اله الا الله » وتخلعون ما تعبدون من دونه ! » .

---

(١) لعله من أهل الاسلام .

ومن حكمة ذلك أن توحيد الله في الربوبية والألوهية والصفات ، يفتح ذهن المسلم ويقوي شخصيته ، ويثير في نفسه شرارة تحرق الأساطير والأوهام والخضوع لعباد مهما سمت مكانتهم ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فيغدو مستقل الفكر ، منطلقاً الى العظمة ، راغباً في الخلود ، مستعذباً بالشهادة في سبيل الله .

هذه بعض آثار التوحيد في الامة الاسلامية ، ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر انحرفوا عن هذا التوحيد واتخذوه لفظاً فقط يتمتمون به في تسابيحهم وصلواتهم ، فعششت الخرافات في نفوسهم وانحطت بهم في مهاوي الكسل والاستسلام .

في مثل هذا العصر جاء حجة الاسلام ابن تيمية ، فوجد المسلمين يتساقطون على قبور الأنبياء والأولياء يستغيثون بهم ويدعونهم في الشدائد وينذرون لهم . لا هم لهم الا شد الرحال اليهم وتقديم الشموع والزيوت والبخور والقرابين لهم والتمرغ بترابهم ، مما ادى الى انحطاطهم وتهافت الاعداء عليهم ، فهاله أمرهم وسارع الى انقاذهم ، متحملا جميع الأذى منهم ، فألف الكتب والرسائل الكثيرة ، داعياً المسلمين الى تطهير عقائدهم من الشرك وفي الصفحات التالية مقتطفات من كتابه القيم « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » تكشف عن آرائه في التوحيد الخالص .

النهي عن اتخاذ القبور مساجد

واتخاذ[1] المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً انما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وان كان القاصد لذلك انما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة الى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان الا لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله . والفعل اذا كان يفضي الى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهي عن الصلاة في الاوقات الثلاثة[2] لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي[3] يفضي الى الشرك ، وليس في قصد الصلاة في

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) الاوقات الثلاثة وقت طلوع الشمس واستوائها في وسط السماء وغروبها .

(٣) المراد التشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها ويعظمون الاوقات الثلاثة .

تلك الاوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات ، ولهذا تنازع العلماء في ذوات[1] الاسباب فسوغها كثير منهم في هذه الاوقات ، وهو أظهر قولي العلماء ، لأن النهي اذا كان لسد الذريعة ابيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الاسباب يحتاج اليه في هذه الأوقات ، ويفوت اذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة بخلاف ما لا سبب[2] له فانه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهي عنه . فاذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الاوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك الى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ، كان معلوماً أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي الى دعاء الكواكب ـ كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك الى دعائهم والسجود لهم ، كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد .

زيارة القبور المشروعة والبدعية

ولهذا[3] كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام[4] على قبره من جنس الصلاة عليه . قال الله تعالى في المنافقين (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة ، ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره ، اذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من

---

(١) أي في الصلوات التي لها أسباب كالفائتة والسنة المؤقتة وسنة الوضوء وتحية المسجد وتوابع الفرائض ونحو ذلك فلا تحرم في هذه الاوقات .

(٢) مالا سبب له هو النفل المطلق الذي يتطوع به المصلي لوجه الله من غير ان يرد فيه نص بتوقيت .

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٥ ـ ٢٧ .

(٤) المراد بالقيام على قبره زيارته وليست الزيارة مقيدة بالقيام بل اذا زار المرء للقبر جالساً أو مضجعاً جاز والتعبير بالقيام للغالب .

السنة المتواترة ، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان اذا دفن الرجل من امته يقوم على قبره ويقول : « سلوا له التثبيت فانه الآن يسأل » رواه أبو داود وغيره . وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خرج الى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون » والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال « أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وبكى من حوله » ثم قال « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع الا في حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء .

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الانبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ، ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . وقال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » فاذا كان هذا محرماً وهو سبب لسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء[1] عنده وبه

---

(١) دعاء الميت هو رجاؤه نفسه أن يقضي الحاجات كمن يقول يا سيدي يا بدوي اشف لي مريضي أو اقض لي حاجتي او انصرني على عدوي أو اقصف عمر عدوي ونحو ذلك ، والدعاء عنده أن يعتقد الداعي أن هذا المكان الذي فيه القبر مكان طاهر يجاب فيه الدعاء فيدعو الله فيه ، وهذا ايضاً حرام لان فيه سبيلاً الى دعاء الميت في المستقبل أو اعتقاد أن للميت اثراً في اجابة الدعاء . والدعاء به أن يتوسل به الى الله حتى يجاب دعاؤه كمن يقول يا سيدي ابراهيم يا دسوقي نفسك قريب من الله اطلب =

وأعتقد أن ذلك من أسباب اجابة الدعوات ونيل الطلبات[1] وقضاء الحاجات ؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس :كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق ونسرا) ان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس ثم صارت هذه الاوثان في قبائل العرب .

من هم أولياء الله ؟

وأولياء[2] الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثمرة ايمانهم وتقواهم لا ثمرة الشرك والبدعة والفسوق ، وأكابر الاولياء انما يستعملون هذه الكرامات بحجة الدين أو لحاجة للمسلمين ، والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات ، وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه متعد حد ربه ، وان كان سببها الايمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان فهذا المال وان ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقه في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه فكيف اذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو الى كفر آخر وفسوق وعصيان ، ولهذا كان ائمة هؤلاء معترفين بأن اكثرهم يموتون على غير الاسلام . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الاوثان كاخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فاذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلمه ظن أن ذلك هو النبي المقبور ، والقبر لم ينشق وانما

= لي منه أن يشفيني أو ينصرني او يخرج ابني من السجن أو يقول يا الله اتوسل اليك بجاه الامام الحسين أن تقضي لي حاجتي فهذا كله شرك وضلال وينبغي ألا يقصد غير الله فهو أعلم بعبده وأقرب اليه من حبل الوريد ، ولا تنفع عنه الوساطات ولا يصعد اليه أحد بالدعوات وانما هو كما قال « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

(١) الطلبات بفتح الطاء وكسر اللام جمع طلبة وهي الحاجة .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٣٥ ـ ٣٧ .

الشيطان مثل له ذلك كما يمثل لاحدهم ان الحائط انشق وانه خرج منه صورة انسان ، ويكون هو الشيطان تمثل له صورة انسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر ، نحن لا نبقى في قبورنا بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة ويمشي ويأخذ بيده الى أنواع اخرى معروفة عند من يعرفها . وأهل الضلال اما أن يكذبوا بها وأما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته . وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره أو أمثاله أو روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الانسي .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الانبياء الصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه . ان عذاب ربك كان محذوراً) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) . ومثل هذا كثير في القرآن ينهي أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الانبياء ولا غيرهم فان هذا شرك أو ذريعة الى الشرك ، بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فانه لا يفضي الى ذلك ، فان أحداً من الانبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فانه ينهي من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم ، فان ذلك ذريعة الى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة الى الشرك ، فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له « ادع لي » لم يفض ذلك الى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه ، فان ذلك يفضي الى الشرك به كما قد وقع فان الغائب والميت لا ينهي من يشرك بل اذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعي وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه

المشركون ، ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الذين يحملون العرش من حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) . وقال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روي أن النبيﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للاخيار من امته ، هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد . واذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الانبياء والصالحين ولا أن تطلب منهم الدعاء والشفاعة ، وان كانوا يدعون ويشفعون لوجهين (أحدهما) أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وان لم يطلب منهم وما لم يؤمرون به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم . (الثاني) ان دعاءهم وطلب الشفاعة ، منهم في هذه الحال يفضي الى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة ، فلو قدر ان فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة ، فكيف ولا مصلحة فيه ، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فانه لا مفسدة فيه فانهم ينهون عن الشرك بهم ، بل فيه منفعة وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فانهم في دار العمل والتكليف وشفاعتهم في الآخرة في اظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

الاستغاثة بغير الله

ومعلوم[1] أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى (فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب) فهو ﷺ لا يرغب الى غير الله ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال « يدخل من امتي الجنة سبعون الفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء . وكان هو ﷺ يرقى نفسه

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٣٩

وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى في هذا « لا يرقون » ضعيفة غلط ، فهذا مما يبين حقيقة أمره لامته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ، فان من لا يسأل الناس ، بل لا يسأل الا الله أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم اجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل اخلاصاً ، وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاءمن يدعو لغيره بلا سؤال منه ، الى دعاء من يدعو الله بسؤال وهو حاضر ؟ وفي الحديث « أعظم الدعاء اجابة دعاء غائب لغائب » وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يدعو لاخيه بظهر الغيب بدعوة ، الا وكل الله ملكاً كلما دعا لأخيه بدعوة ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله » وذلك ان المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والافعال التي يقدر عليها .

فاما ما لا يقدر عليه الا الله تعالى ض، فلا يجوز ان يطلب الا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ، ولا من الانبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لي ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك ، ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاؤ وا اليه فقال « انه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله »[1] وهذا في الاستعانة مثل ذلك .

فأما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفي دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد ، واليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بك » وقال أبو يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذوراً) قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والانبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، ويرجون رحمتي كما ترجون

---

(١) (حديث ضعيف) .

رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون الي كما تتقربون الي . فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والانبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء في قبورهم ، وان قدر أنهم يدعون للاحياء ، وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فانه لا يفضي الى الشرك ، ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الانبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع اجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً ، ايأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) بين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين ارباباً فهو كافر . وقال تعالى (قل : ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) وقال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) وقال تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) وقال تعالى(ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى عن صاحب يس (ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . اني اذاً لفي ضلال مبين . اني آمنت بربكم فاسمعون) .

فالشفاعة نوعان : احدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى ، كالتي اثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الامة ، والثاني : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التي اثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء اذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد . قال « فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن . فيقال أي محمد ! ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » فاذا أذن له في الشفاعة شفع صلى الله عليه وسلم .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ، بمعنى أن يكون هو داعياً للمتوسل به ، أن يشرع ذلك في مغيبه وبعد موته ، مع أنه هو لم يدع للمتوسل به ،

بل المتوسل به أقسم به او سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ، وذلك لأنه في حياته يدعو هو لمن توسل به ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ومن لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل ، كهذا التوسل فهو من اضل الناس ! .

وأيضاً فانه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو التوسل بدعائه ضرر ، بل هو خير بلا شر ، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة . فان أحداً من الانبياء عليهم السلام لم يعبد في حياته بحضوره ، فانه ينهى من يعبده ويشرك به ، ولو كان شركا أصغر ، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له ، وكما قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم ما شاء محمد » وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والاشراك به ، كما اشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم وغير قبورهم ولهذا قال النبي ﷺ « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » اخرجاه في الصحيحين وقال « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وبالجملة فمعناه اصلان عظيمان ، أحدهما : أن لا نعبد الا الله ، والثاني : أن لا نعبده الا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الاصلان هما تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، كما قال تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . قال الفضيل بن عياض : اخلصه وأصوبه قالوا : يا ابا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ! حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ انه قال « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي لفظ في الصحيح « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ، فهو رد » وفي الصحيح وغيره ايضاً يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً

اشرك فيه غيري ، فانا منه بريء وهو كله للذي اشرك » ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف[1] كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب انه قبل الحجر الاسود وقال : « والله اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك » والله سبحانه امرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته وان يكون الله ورسوله احب الينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته ، محبة الله وكرامته . فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (وان تطيعوه تهتدوا) وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فان له جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) وأمثال ذلك في القرآن كثير .

الادعية البدعية

. . . والمراتب[2] في هذا الباب ثلاث (احداها) ان يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الانبياء والصالحين او غيرهم فيقول : يا سيدي فلان اغثني أو انا استجير بك او استغيث بك او انصرني على عدوي . واعظم من ذلك ان يقول : اغفر لي وتب علي . كما يفعله طائفة من الجهال المشركين . واعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي اليه ويرى الصلاة اليه افضل من استقبال القبلة . حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام . وأعظم من ذلك أن يرى السفر اليه من جنس الحج حتى يقول ان السفر اليه مرات يعد حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة اليه مرة افضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وان كان يقع كثير من الناس في بعضه .

(الثانية) أن يقال للميت أو الغائب من الانبياء والصالحين : ادع الله لي ، أو أدع لنا ربك أو أسأل الله لنا ، كما تقول النصارى لمريم وغيرها ، فهذا أيضاً لا يستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الامة ، وان كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم اصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا اجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » . وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد

---

(١) أي على النص والتعليم لا على الاجتهاد .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٥٣ ـ ١٥٧ .

عليه السلام » وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال « ما من مسلم يسلم عليّ الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لادعاء ولا غيره . وفي موطأ مالك ان ابن عمر كان يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبه[1] ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبيﷺ فيصلي على النبي ﷺ ويدعو لابي بكر ، وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم انهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ فاذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة ، وان كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب الى ذلك امام متبع في قوله ولا من له في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الائمة الاربعة : مالك وابي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الاسلام ان الرجل اذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ، واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعي وأحمد : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه . وقال ابو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم في مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره فهذا تنازعهم في وقت السلام وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه انما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . كذب على مالك ليس لها اسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه ، كما ذكره اسماعيل بن اسحاق القاضي وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم . فأنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم باحسان . وقال : لا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قال له مالك . فان الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم . ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا أسبق اليه ممن بعدهم ، والداعي يدعو الله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى ،

---

(١) اصلها يا ابي .

كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » فلا يجوز أن يصلى الى شيء من القبور لا قبور الانبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة الى القبر ، بل هذا من البدع المحدثة . وكذلك قصد شيء من القبور لاسيما قبور الانبياء والصالحين عند الدعاء اذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى ان لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلي مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الاولى ، فعلم انه لا يجوز ان يسأل الميت شيئاً ، لا يطلب منه أن يدعو الله ولا غير ذلك ، ولا يجوز ان يشكى اليه بشيء من مصاب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكى اليه ذلك في حياته فانه ذلك في حياته لا يفضي الى الشرك ، وهذا يفضي الى الشرك ، لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب ، وبعد الموت ليس مكلفاً بل ما يفعله من ذكر الله تعالى ودعائه نحو ذلك . كما أن موسى يصلي في قبره وكما صلى الانبياء خلف النبي ﷺ ليلة المعراج ببيت المقدس ، وتسبيح اهل الجنة والملائكة ـ فهم يمتعون بذلك وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم ، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلا له هو يفعله وان لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به وهم انما يطعيون امر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) فهم لا يعملون الا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته . فان بيته كانت الصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز ان يجعل مسجداً ، ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً كما ان في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . ولولا ذلك لابرز قبره ولكنه كره أن يتخذ مسجداً ، وفي صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك » وقد كان ﷺ في حياته يصلى خلفه وذلك من افضل الاعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر وأن يفتي وأن يقضي ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته وأمثال ذلك كثيرة .

وقد كره مالك أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ !! لأن هذا اللفظ لم يرد .

والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به الزيارة البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله او يسأل الله به او يسأل الله عنده .

والزيارة الشرعية هي ان يزوره لله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلى على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لا يقصد بالزيارة الا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من ايهام المعنى الفاسد الذي يقصده اهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهى عنه . وتقدم أيضاً ان هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه الى التوسل بدعاء العباس وغيره ! .

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فان لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز ان يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وان كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قال « اذا اعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذل ومفترى على النبي ﷺ باجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت ، وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الأسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي ﷺ عما هو اقرب من ذلك ـ على اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ، ولعن اهله تحذيراً من التشبه بهم ، فان ذلك اصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق ونسراً) فان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الاصنام على صورهم كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف .

من حيل شياطين الجن[1]

واذا تبين ما أمر الله به ورسوله وما نهى عنه ورسوله في حق اشرف الخلق ، وأكرمهم

---

(١) « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » ص ١٥٨ ـ ١٦٢

على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى ـ تبين أن من دونه من الانبياء والصالحين اولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا المائتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلاناً اغثني وانصرني وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالأضطرار من دين الاسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الاوثان ، صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كمايضل عباد الأوثان ويغويهم ، فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخاطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب ، بل الكذب اغلب عليه من الصدق ، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحدهم ان الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن ان الله تعالى صور ملكاً على صورته فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله . وانما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند غيرهم .

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك انما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين[1] وهذا من أكبر الاسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان . وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاس يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الانبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي

---

(١) وقد وقع أن بعض المصابين بالصرع ونحوه رأوني أدفع عنهم الجن الذين يؤذونهم . ومن الناس من يعلل ذلك بأن الرائي يتمثل صورة منيعتقد صلاحه في خياله فيراه في الخارج وهو مستقيظ مأخوذ عن حسه كما يراه في النوم . وهذا التعليل قريب ، ولابن القيم كلام فيه حسن في بحث الرؤ يا ينحل به رؤ ية الكفار لبعض الانبياء والصالحين .

ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي الى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وانما ذلك كله من الشياطين ، وهذا من أعظم الاسباب التي عبدت بها الأوثان . وقال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن كثيراً من الناس) كما قال نوح عليه السلام . ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس الا بسبب اقتضى ضلالهم . ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل انما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لاسباب : منهم من صورها على صور الانبياء والصالحين ، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر ، ومنهم من جعلها لأجل الجن ، ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم انما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس أو القمر ، وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين ، فهي التي تقصد من الأنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهم الى ذلك ، كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) واذا كان العابد مما لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه أنما يدعو الانبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به . وأما ان كان مما لا يحرم عبادة الجن عرفوه انهم الجن . وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الانسان أن يسجد له أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك . بل يظنون أن من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء لله غائبون عن أبصار الناس . وأولئك جن تمثلت بصور الانس أو رئيت في غير صور الانس ، قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) كان الانس اذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، وكانت الأنس تستعيذ الجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن ، وقالت : الأنس تستعيذ بنا ! .

وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه ، فتعطيهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من احد حتى يقولا : انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما

يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق . ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملتهم وتذهب به الى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله ، وانما يقترن به أولئك الشياطين لما أنه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى اذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات ، وأنا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وانما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور اسبابها ، فحيث قوي الايمان والتوحيد ونور الفرقان والايمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية ، والشخص الواحد فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال . والمشركون الذين لم يدخلوا في الاسلام مثل البخشية والطوانية والبدى ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون الكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بامور غائبة ويبقى الدف[1] الذي يغنى لهم به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون أحداً يضرب له ، ويطوف الأناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمزله ، ويكون احدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاماً يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة ، وكذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة او من غيرها وتأتي به وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً او ناقص الايمان من الترك وغيرهم وعند التتار من هذا انواع كثيرة .

وأما الداخلون في الاسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات

---

(١)هو المعروف عندنا (بالطار) .

مع الحجاج من غير أن يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ولا يطوف طواف الافاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به ، فان مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين . ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل . ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل قدراً من ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية الى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحاج فقال : كتبتموني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبني على أصلين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ! وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فالاله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء واجلالاً واكراماً . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ، ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله ؟

ابن تيمية والحيل الشرعية

لقد قيل عن الامام محمد بن الحسن تلميذ الامام أبي حنيفة ، أن له كتاباً في الحيل ، وللحصاف كتاب مثله يسمى : « الحيل والمخارج » وقد اختلف في صحة ذلك ، وخاصة عن الامام محمد .

وقد حمل شيخ الاسلام ابن تيمية على الحيل في الشريعة ومنعها منعاً باتاً سداً للذريعة ونادى ببطلانها لما تؤدي اليه من التحايل على الدين وتعطيله وتحليل محرماته . وكان مما قاله : « إعلم ان تجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة ، فان الشارع سد الطريق الى ذلك المحرَّم بكل طريق ، والمحتال يريد أن يتوسل اليه ، ولهذا لما اعتبر الشارع في البيع والصرف والنكاح وغيرها شروطاً سد ببعضها طريق الزنى والرباء وكمل بها مقصود العقود ، لم يكن لمحتال الخروج منها في الظاهر ، فاذا أراد الأحتيال ببعض هذه العقود على ما منع الشارع منه ، أتى بها مع حيلة اخرى توصله بزعمه الى نفس ذلك الشيء الذي سد

الشارع ذريعته ، فلا يبقى لتلك الشروط التي يأتي بها فائدة ولا حقيقة ، بل يبقى بمنزلة اللعب والعبث » .

وقد ذكر الامام ابن تيمية أمثلة على بعض الحيل فقال :

« اذا تواطأ على بيع أو هبة لاسقاط الزكاة ، وان كان الاحتيال من واحد مثل أن يهب لأبنه هبة يريد أن يرجع فيها لئلا تجب عليه الزكاة ، فان وجود هذه الهبة كعدمها ليت هبة في شيء من الأحكام . ولكن ان ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهراً وباطناً ، والا بقيت فاسدة في الباطن فقط ، وان كانت حيلة لا يستقل بها مثل أن ينوي التحليل ، ولا يظهر للزوجة ، او يرتجع المرأة ضراراً بها ، او يهب ما له ضراراً لورثته ، ونحو ذلك كانت هذه العقود بالنسبة له ولمن علم غرضه عقوداً باطلة فلا يحل له الدخول بالمرأة ، ولا يرثها اذا ماتت ، واذا علم الموهوب له أو الموصى له غرضه لم يحصل له الملك في الباطن ، فلا يحل له الانتفاع به ، بل يجب رده الى مستحقه »[1] .

وأهم الحيل التي حاربها شيخ الاسلام ، وقد كانت منتشرة في عهده ، ولا تزال باقية الى يومنا هذا !! حيلة اباحة تحليل الزوجة المطلقة ثلاث طلقات ، وذلك عن طريق المحلل ، مما هو زنى صريح ـ وقد ألف هذا الامام كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه (اقامة الدليل على ابطال التحليل) قال فيه :

« نكاح المحلل حرام باطل لا يفيد الحل ، وصورته أن الرجل إذا طلق امرأته ثلاثاً[2] ، فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره كما ذكره الله تعالى في كتابه وكما جاءت به سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأجمعت عليه أمته ، فاذا تزوجها رجل بنيته أن يطلقها لتحل لزوجها الأول كان هذا النكاح حراماً باطلاً سواء عزم بعد ذلك على امساكها أو فارقها ، وسواء شرط عليه ذلك في عقده النكاح أو شرط عليه قبل العقد أو لم يشرط عليه لفظاً ، بل كان ما بينهما من الخطبة وحال الرجل والمرأة والمهر نازلاً بينهم منزلة اللفظ بالشروط ، أو لم يكن شيء من ذلك ، بل أراد الرجل أن يتزوجها ثم يطلقها لتحل للمطلق ثلاثاً من غير أن تعلم المرأة ولا وليها شيئاً من ذلك سواء علم الزوج المطلق ثلاثاً أو لم يعلم ، مثل أن يظن المحلل أن هذا فعل خير ومعروف مع المطلق وامرأته باعادتها

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ١٤٦ .

(٢) يشرط في هذا الطلاق ألا يكون بدعياً ، في ثلاثة طهور لا يمس الرجل زوجته فيها ، وألا يكون في حالة غضب او سكر .

اليه ، كما أن الطلاق أضر بها وبأولادهما وعشيرتها ونحو ذلك ، بل لا يحلل للمطلق ثلاثاً أن دلسة ، نتزوجها حتى ينكحها رجل مرتغباً لنفسه نكاح رغبة لا نكاح دلسة ويدخل بها بحيث تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها ثم بعد هذا اذا حدث بينهما فرقة بموت أو طلاق أو فسخ جاز للأول أن يتزوجها . ولو أراد هذا المحلل أن يقيم معها بعد ذلك ، استأنف النكاح . فان ما مضى عقد فاسد لا يباح المقام به معها .

هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وهو المأثور عن اصحاب الرسول ﷺ وعامة التابعين لهم بإحسان وعامة فقهاء الاسلام »[1] .

هذا ومن الحق والانصاف أن يقال أن استخدام الحيل لا يقتصر على المذهب الحنفي فقط ، بل تعداه الى سائر المذاهب الأخرى ، فقد قال الامام ابن تيمية :

« . . . وان كثيراً ممن يخالف المشرقيين في مذهبهم ويرى أنه أتبع السنة والأثر وآخذ بالحديث منهم من يتوسع في الحيل ويرق الدين وينقض عرى الاسلام ويفعل في ذلك قريباً أو أكثر مما يحكى عنهم حتى دب الداء الى كثير من فقهاء الطوائف ، حتى أن بعض أتباع الامام أحمد مع أنه كان من أبعد الناس عن هذه الحيل تلطخوا بها ، فأدخلها بعضهم في الايمان وذكروا طائفة من المسائل التي هي بأعيانها من أشد ما أنكر الامام أحمد على المشرقيين وحتى اعتقد بعضهم جواز خلع اليمين وصحة نكاح المحلل ، وجواز بعض الحيل الربوية ، وحتى أن بعض الأعيان من أصحابه سوَّغ بعض الحيل في المعاملات مع رده على أصحاب الحيل ! وذلك في مسائل قد نص الامام أحمد على إبطال الحيلة فيها الى اشياء أخر .

وكثر ذلك في بعض المنتسبين الى الشافعي رضي الله عنه وتوسع بعض أصحاب أبي حنيفة فيها توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه ! وحتى أن بعض الائمة من أصحاب مالك تزلزل فيها تزلزل من يرى أن القياس جواز بعضها ، وحتى صار من يفتي بها كأنه يعلم الناس فاتحة الكتاب أو صفة الصلاة ، لا يبين المستفتي أنها مكروهة بالأتفاق ، وأنها محرمة عند كثير من العلماء ، بل أكثرهم ، وعند عامة السلف رضي الله عنهم ، وحتى ألقوا في نفوس كثير من العامة أو أكثرهم أنها حلال وأنها من دين الله سبحانه !

فنجد المؤمن الذي شرح الله صدره للاسلام يكرهها وينفر قلبه منها ، والمفتي بغير علم يقول له هذا حلال ، وهذا جائز ، وهذا لا بأس به وهو مخطىء في هذه الأقوال

---

(٢) تابع المجلد الثالث من الفتاوى ص ٤ .

باتفاق العلماء ، فإن أقل درجات أكثرها الكراهة !

وقد ذكرنا اتفاقهم على كراهة التحليل المتواطأ عليه .

وأعلم أن غاية ما يبلغك من الكلمات الشديدة من بعض الفقهاء ، فإن أصل ذلك قاعدة الحيل ، فإن القلوب دائماً تنكرها لا سيما قلوب أهل الفقه والعلم والولاية والهداية ، ويجدون ينبوعها عن بعض المفتين ، فيتكلمون بالانكار عليهم ، ولهذا كان منشأ هذه الحيل من اليهود ، صار الغاوي من المتفقهة متشبهاً بهم ! وصار أهل الحيل تعلوهم الذلة والمسكنة لمشاركتهم اليهود في بعض أخلاقهم »[1] .

هذا ـ وقد ذكر الاستاذ محمد أبو زهرة في كتابه (أبو حنيفة) بحثاً مطولاً عن هذه الحيل وكان مما قاله :

« إن الدراسة الفاحصة العميقة لكتاب الحيل والمخارج للحصاف ، ولكتاب الحيل لمحمد تنتهي بأن حيل أئمة المذهب الحنفي من النوع الثاني[2] ، لا من النوع الأول ، فهي من القسم الثالث في الأقسام التي ذكرها ابن القيم وبيناها آنفاً ، يحتال بها على التوصل الى الحق ، او على دفع الظلم بطريق مباحة لم توضع موصلة لذلك ، ولكن قصد بها ذلك التوصيل .

وقبل أن نخوض في تقسيم هذه الحيل المأثورة ، نذكر ملاحظة لاحظناها ، وهي تزكي ما قررناه ، وتلك الملاحظة هي إننا لم نجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين ، إلا حيلة واحدة في الزكاة سنذكرها ، وان ابعاد العبادات عن نطاق الحيل في المأثور عن اولئك الأئمة الأعلام ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع . والاستمساك بظاهر من التكليفات ، إذ أن العبادات أساسها النيات ، وهي بين العبد وربه فهو الذي يحاسب عليها ، وهو العليم الخبير »[3] . .

---

(١) الفتاوى ج ٣ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) كان الأستاذ ابو زهرة قدم لكلامه عن الحيل بكلام لابن القيم نلخصه فيما يلي : يقسم هذا العلامة الحيل عند الفقهاء الى ثلاثة اقسام :

(القسم الاول) الطرق الخفية التي يتوصل بها الى ما هو محرم في نفسه .

(القسم الثاني) ان تكون الحيلة مشروعة وما تفضي اليه مشروع .

(القسم الثالث) ان يحتال على التوصل الى الحق أو على دفع الظلم بطريق مباحة ، لم توضع موصلة الى ذلك ، بل وضعت لغيره .

(٣) ص ٤٢٢ الطبعة الثالثة .

ونقول في الرد على الشيخ أبي زهرة أنه إذا كان من السهل تبرئة بعض ائمة المذهب الحنفي من حيل النوع الثاني ، فلا يمكن تبرئتهم جميعاً مما حدا بالامام ابن تيمية الى أن يقول في الكلام الذي سقناه سابقاً : « وتوسع أصحاب أبي حنيفة فيها (أي في الحيل) توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه » فلو لم تكن تلك الحيل من القسم الأول ، فلماذا يحاول شيخ الاسلام تبرئة الامام أبي حنيفة منها ؟! .

إن من يدرس كتب الأحناف يجد العجب العجاب من الحيل التي يحرمها الشرع تحريماً مطلقاً وقد ذكرنا بعضها فيما سبق ، وخاصة حيلة التحليل المنكرة المذكورة في كثير من كتب الحنفية . والتي اثبت شيخ الاسلام بطلانها كما رأينا في كتابه « اقامة الدليل على ابطال التحليل » ، وما رأينا من حيلهم في بيع العينة ، والبيع لأجل مما هو احتيال على مزاولة الربا صريح ، وسقوط الصلاة والحج والصوم والزكاة بالحيلة المعروفة التي يجريها اهل الميت ، كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من الرد على أبي زهرة .

وأما قول ابي زهرة « بأنه لم يجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين الا حيلة واحدة في الزكاة . . . وأن ابعاد العبادات عن نطاق الحيل . . . ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع . . . اذ أن العبادات أساسها النيات » . .

ان في قوله هذا تقليلاً من شأن المعاملات وخطورتها ، مع أنها أهم من العبادات من حيث تعلقها بحقوق العباد التي لا تغفر ذنوبها الا بترضية أصحابها والمعاملات كما لا يخفى هي التي تصار فيها الحيل على الغالب بسبب ما يصحبها من المال وهو من الفتن المخيفة !

قال الامام ابن تيمية ما ملخصه :

« ان النبي ﷺ أخبر أن أول ما يفقد من الدين الأمانة وآخر ما يفقد منه الصلاة ، وحدث عن رفع الأمانة من القلوب الحديث المشهور ، وقال خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم ذكر أن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون . .

والحيل (أي في المعاملات) توجب مزج العهود والأمانات وهو قلقها واضطرابها ، فان الرجل اذا سوغ له من يعاهد عهداً ثم لا يفي به أو أن يؤتمن على شيء ، فيأخذ بعضه بنوع تأويل ، ارتفعت الثقة به وأمثاله »[1] . .

---

(١) الفتاوى . ج ص ١١٩ .

والاحاديث الواردة في المعاملات وعلم الغش والغبن والتغرير فيها ، أكثر من أن تحصى ، وهي ان دلت على شيء ، فإنما تدل على حرص الشارع على بيان خطورتها لمنع التلاعب والحيل فيها !

فتاوى شيخ الاسلام

خرج الامام ابن تيمية على الناس بفتاويه العظيمة التي خالف فيها ما تعارف عليه العلماء فأقاموا عليه النكير شأنهم في كل زمان مع المصلحين المتحررين من القيود المذهبية ، فسعوا في سجنه من أجل كثير منها ، مع أنه رحمه الله كان يأتيهم بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة .

واذا كان هنالك بعض الاجتهادات له ، فانه قد توفرت فيه جميع شروط الاجتهاد ، ولا ينكر ذلك الا معاند أو جاهل .

وهذه خلاصة بعض هذه الفتاوى :

● القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً ، سواء كان طويلاً أم قصيراً ، وفقاً لقول بعض الصحابة ما دامت السنة لم تبين حدود المسافة .

● القول بأن البكر لا تستأمر (اي لا يطلب منها التلفظ بالرضاء) وان كانت كبيرة ، كما هو قول ابن عمر ، واختاره البخاري .

● القول بان سجود التلاوة لا يشترط له وضوء ، كما يشترط للصلاة وهو قول ابن عمر ، واختاره البخاري أيضاً .

● القول بأن من أكل في رمضان معتقداً أنه ليل ، فبان نهاراً لا قضاء عليه ، كما هو قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وذهب اليه بعض التابعين ، والفقهاء من بعدهم .

● القول بجواز بيع الاصل بالعصير ، كالزيتون بالزيت والسمسم بالشيرج .

● القول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة ، باستعمال الماء .

● القول بجواز بيع ما يتخذ منه الفضة للتحلي وغيره ، كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً ، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة .

● وكان يقول بتوريث المسلم من الذمي ، وله في ذلك مصنف وبحث طويل لم نعثر

عليه . وهذه الفتوى فيها نظر ! .

● القول بكفارة اليمين في الحلف بالطلاق (كأن يقول عليَّ الطلاق لأفعلن كذا أو لامتنعن عن كذا . . او علي الطلاق اشتريتها بكذا . . » فيكون ما صدر عنه يميناً يجب عليه كفارة ، وهي اطعام عشرة مساكين ، أو صوم ثلاثة أيام ولا يقع الطلاق به .

يقول الامام ابن تيمية أن علماء المذاهب الاربعة لهم في ذلك قولان أحدهما أنه يقع الطلاق ، والثاني أنه لا يقع ، وقاله طائفة من أصحاب الشافعي كالقفال ، وابي سعيد المتولي ، ويقول به يفتي ويقضي في بلاد الشرق والجزيرة والعراق وخراسان والحجاز والشام وبلاد المغرب ، وهو قول داود وأصحابه كابن حزم وكثير من علماء المغرب المالكية وغيرهم ، وقد دل عليه كلام الامام أحمد المنصوص عنه ، واصول مذهبه تؤيد ذلك في غير موضع » .

● لا يقع الطلاق المعلق على شرط ، ان كان لا يقصد الطلاق عند وقوع الشرط ، كأن يقول الرجل لزوجته انك طالق اذا ذهبت الى مكان كذا ، وكان يقصد تخويفها فقط ولا ينوي طلقها ، فذهبت فان الطلاق لا يقع .

● الطلاق المحرم البدعي لا يقع ، كالطلاق في الحيض ، او طهر مس الرجل زوجته فيه ، وكل ذلك طلاق محرم لا يقع . ودليله حديث النبي ﷺ اذ قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد علم أن عبد الله بن عمر طلق امرأته ، وهي حائض : « مره فليراجعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر » . وقد رد الامام ابن تيمية على القائلين بوقوع طلاق ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ في كلام طويل خلاصته أنه جاء خلافاً للسنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ! » .

● القول بان طلاق الثلاث لا يقع الا واحدة ودليله من الكتاب قوله تعالى : « الطلاق مرتان فأمساك بمعروف او تسريح باحسان » فلم يقل طلقتان . وكذلك قوله في سورة الطلاق (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) فكيف يحدث هذا الأمر بالرجوع اذا أغلق المخرج عليه ؟ .

ودليله من السنة ما ورد عن عبد الله بن عباس انه قال كان « الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . . » .

● عدم وقوع طلاق الغضبان والسكران والمكره لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا طلاق في اغلاق » .

لقد أنقذ ابن تيمية الاسرة الاسلامية من التفكك والأولاد من التشرد بهذه الفتاوى ، وفي سبيل الله ما لاقاه من اجل هذه الفتاوى الحقة الجريئة من التعذيب في أعماق السجون ، وقد شعر علماء المسلمين المتأخرين بصواب آرائه وفتاويه فألفت عام ١٩٢٠ لجنة من أصحاب السماحة شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية وغيرهم من الفقهاء وآمنت بصحة أقوال الامام ابن تيمية وقررت العمل بها في المحاكم المصرية ، وندكر فيما يلي القانون المصري للمحاكم الشرعية تحت عنوان « الطلاق » :

المادة الأولى : لا يقع طلاق السكران والمكره ! .

المادة الثانية : لا يقع الطلاق غير المنجز اذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

المادة الثالثة : الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو اشارة لا يقع الا واحدة .

المادة الرابعة : كنايات الطلاق ، وهي ما تتحمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق الا بالنية .

ثم تبعت الجمهورية السورية بتاريخ ١٧ ـ ٩ ـ ١٩٥٣ فأصدرت قانون الأحوال الشخصية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٥٩ بالتاريخ السابق ، فتقرر ما يلي :

مادة ٨٩ ـ ١ ـ لا يقع طلاق السكران ولا المدهوش ولا المكره .
٢ ـ المدهوش هو الذي فقد تميزه من غضب او غيره فلا يدري ما يقول .

مادة ٩٠ ـ لا يقع الطلاق غير المنجز اذا لم يقصد به الا الحث على فعل شيء أو المنع منه او استعمل استعمال القسم لتأكيد الاخبار لا غير .

مادة ٩١ ـ يملك الزوج على زوجته ثلاث طلقات .

مادة ٩٢ ـ الطلاق المقترن بعدد لفظاً او اشارة لا يقع الا واحدة .

وهكذا انقلبت فتاوى شيخ الاسلام بعد سبعة قرون من وفاته سجيناً في قلعة دمشق بسببها ، الى قوانين مقننة مثار اعجاب الناس اجمعين ؟؟ فليت الأدعياء والمخرفين من أعداء الاسلام الصحيح يأخذون درساً من هذا الحادث ، فلا يقاومون في هذا العصر ، المصلحين الذين يدعون الى وجوب الرجوع الى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ولو خالف الأئمة

الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ لأن ذلك وفق رغباتهم ، فقد أجمعوا على لزوم الأخذ بالحديث ولو خالف المذهب ! .

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة « المطلقة » للشاعر الكبير معروف الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه ابن تيمية عليهما الرحمة والرضوان . وقد نشرت في آخر « اغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » ومطلعها :

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود ... من الخفرات آنسة عروب

ومنها :

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يميناً ... وتلك ألّيَّة خطأً وحوب
وطلقها على جهل ثلاثاً ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بت ... ذوو فتيا تعصبهم عصيب
فبانت منه لم تأت الدنايا ... ولم يعلق بها الذام المعيب
فظلت وهي باكية تنادي ... بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا نجيب صرمت حبلي ؟ ... وهل أذنبت عندك يا نجيب ؟

ومنها :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ... وقال ودمع عينيه سكوب
نجيبة اقصري عني فأني ... كفاني من لظى الندم اللهيب
وما والله هجرك باختياري ... ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله :

الا قل في الطلاق لموقعيه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غلواً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب !
وقد حلت بأمتكم كروب ... لكم فيهن لاهم الذنوب
وَهَى حبل الزواج ورق حتى ... يكاد اذا نفخت له يذوب

كـخيط مـن لـعـاب الـشمس ادلـت ... بـه في الجـو هـاجـرة حـلوب
يمـزقـه مـن الأفـواه نـفـث ... ويـقـطعـه مـن الـنـسـم الهـبـوب

●●●

فـدى ابـن الـقـيـم الـفـقـهـاء كـم قـد ... دعـاهـم لـلـصـواب فـلم يجـيـبـوا
فـفـي اعـلامـه لـلـنـاس رشـد ... ومـزدجـر لمـن هـو مـسـتـريـب
نـحـا في مـا أتـاه طـريـق عـلم ... نـحـاهـا شـيـخـه الحبـر الأديـب[1]
وبـيـن حـكـم ديـن الله لـكـن ... مـن الـغـالـين لم تـعـه الـقـلـوب
لـعـل الله يحـدث بـعـد أمـراً ... لـنـا فـيـخـيـب مـنهـم مـن يخـيـب

●●●

● ومن فتاوى ابن تيمية واختياراته عدم صرف الزكاة لأهل المعاصي حتى يتوبوا . وقد قال شيخ الاسلام : « انه لا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله تعالى ، فانه سبحانه فرضها معونة على طاعته لمن يحتاج اليها من المؤمنين كالفقراء والغارمين ، أو لمن يعاون المؤمنين ، فمن لا يصلي من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ، ويلتزم الصلاة »[2] .

وقد خالف الاستاذ محمد أبو زهرة[3] ابن تيمية في هذا لثلاثة أسباب نلخصها فيما يلي :

(أولها) عموم نصوص القرآن في مصارف الزكاة من غير تخصيص بين مطيع وعاص ، وليس لأحد أن يخصص لمجرد استحسانه من غير نص مخصص .

(ثانيها) أن الزكاة معونة على الحياة ، فهي تُعطى للحي لتقوم حياته وتوفر له الضروري من حاجاته .

(ثالثها) أن النبي ﷺ كان يعين المشركين في ضرائهم وذكر مساعدة الرسول لأهل مكة بعد صلح الحديبية بسبب جائحة اصابتهم .

ونقول في الرد عليه أما حجته الأولى ، فتدفع اذا علمنا أن الاسلام أمر بدفعها

---

(١) هو الامام ابن تيمية .
(٢) الاختيارات العلمية ص ٦١ طبع الكردي .
(٣) كتاب ابن تيمية لأبي زهرة رضي الله عنه .

للمؤلفة قلوبهم من المشركين الذين يكون في اسلامهم مصلحة في تقوية المسلمين ، وليس للمشركين عامة ! .

وأما حجته الثانية ، فتدفع أيضاً بأن دفعها للعصاة يؤدي الى معاونتهم على المعصية وتماديهم فيها ، ولا يخفى أن جل المعاصي بحاجة الى مال ، فلو لم يكن هذا المال متوفراً لديهم لما ارتكبوها .

وأما حجته الثالثة ، فتدفع كذلك بأن مساعدة ﷺ لأهل مكة وقبل الفتح ربما كان يقصد من ورائه غايتين اثنتين :

الأولى : تأليف قلوبهم .

الثانية : مساعدة المؤمنين الذين كانوا يكتمون ايمانهم خشية من مجرمي المشركين ، فلا بد أن يصيبهم شيء من هذا المال الذي ارسله النبي صلى الله عليه وسلم .

واننا نرى رأياً وسطاً بين حجة الاسلام ابن تيمية ، وبين محمد أبي زهرة ، فاذا كنا نشعر بميل من العصاة على الطاعة والعودة الى احضان الفضيلة بسبب نصحنا أو نصح غيرنا لهم ، فلا مانع من اعطائهم من الزكاة رحمة بهم وتأليفاً لقلوبهم ، وأما أن نحس عنادهم ونطبق رأي أبي زهرة على اطلاقه وندخل على العصاة (المصرين) في المواخير والحانات ونوادي القمار ، فندفع لهم الزكاة فيها ، او بعد خروجهم منها ، فكلام لا يقبل به عاقل ! لا سيما ونحن نعلم ان الفقراء كثيرون ، فأيهم نفضل في دفع الزكاة والصدقة : الفقير التقي الصابر ، أم العاصي الفاجر[1] ؟! .

ألا يذكر الأستاذ أبو زهرة قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تصاحب الا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك الا تقي !! » .

ان الترغيب والترهيب من أهم مناهج الاسلام وتطبقه الجماعات والأفراد في أعمالهم ، فيكافؤون المحسنين ويهملون أو يعاقبون المسيئين تشجيعاً للأولين وحضاً للاخرين على تحسين سلوكهم ، وفي ذلك بلاغ لمن ينادي بمجتمع أفضل وتحقيق المدينة الفاضلة .

---

(١) ليست هذه أولى اخطاء الاستاذ أبي زهرة في هذا الموضوع فهو يبيح دفع مال الزكاة ليس للعصاة فحسب ، بل لغير المسلمين من الكفرة والمشركين رحمة بهم كما أعلن رأيه هذا في احدى الحلقات الاجتماعية . وهكذا زاد في الرقة . . .

سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق

وفي اليوم الثاني والعشرين من رجب من سنة عشرين وسبعمائة ، عقد مجلس بدار السعادة حضره النائب والقضاة ، وجماعة من المفتين ، وحضره الشيخ[1] وعاودوه في الافتاء بمسألة الطلاق ، وعاتبوه على ذلك وحبسوه بالقلعة ، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

ثم ورد مرسوم السلطان باخراجه ، فأخرج منها يوم عاشوراء ، من سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، وتوجه الى داره .

ولم يزل الشيخ بعد ذلك يعلِّم الناس ويلقي الدرس بالحنبلية أحياناً ، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاصين ، في أنواع من العلم .

الكلام على شد الرحال الى القبور

فلما كان في سنة ست وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شدِّ الرحال ، وأعمال المطيِّ الى قبور الأنبياء والصالحين ، وظفروا للشيخ بجواب سؤال في ذلك ، كان قد كتبه من سنين كثيرة ، يتضمن حكاية قولين في المسألة ، وحجة كل قول منهما .

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم أقدم من الجواب المذكور بكثير . ذكره في كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » وغيره . وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به .

وكثر الكلام ، والقيل والقال ، بسبب العثور على الجواب المذكور وعظم التشنيع على الشيخ ، وحُرِّف عليه ، ونُقل عنه ما لم يَقلْه . وحصل فتنة طار شررها في الآفاق ، واشتد الأمر ، وخِيفَ على الشيخ من كيْدَ القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية ، وكثر الدعاء والتضرع والابتهال الى الله تعالى ، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة ، وجَبُن منهم من كانت له همة .

وأما الشيخ ـ رحمه الله ـ فكان ثابت الجأش ، قوي القلب . وظهر صدق توكله

---

(١) هو شيخ الاسلام ابن تيمية .

واعتماده على ربه .

ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فقال أحدهم : ينفى . فنفي القائل .

وقال آخر : يُقطع لسانه ، فقطع لسان القائل .

وقال آخر : يُعَزَّر ، فعزر القائل .

وقال آخر : يُحْبَس ، فحبس القائل .

واجتمع جماعة آخرون بمصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ، واجتمعوا بالسلطان ، وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ . فلم يوافقهم السلطان على ذلك .

أمر السلطان بحبس الشيخ بقلعة دمشق

ولما كان يوم الاثنين بعد العصر ، السادس من شعبان من السنة المذكورة ، حضر الى الشيخ من جهة نائب السلطنة بدمشق مِشَدَّ الأوقاف ، وابن خطير ، أحد الحجاب . وأخبراه : أن مرسوم السلطان ورد بأن يكون في القلعة وأحضرا معهما مركوباً . فأظهر الشيخ السرور بذلك ، وقال : أنا كنت منتظراً ذلك . وهذا فيه خير عظيم .

وركبوا جميعاً من داره الى باب القلعة ، وأخليت له قاعة حسنة ، واجري اليها الماء ، ورسم له بالاقامة فيها . وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بأذن السلطان ورُسم له بما يقوم بكفايته .

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد بذلك ، وبمنعه من الفتيا .

وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم ، وذلك بمرسوم النائب واذن له في فعل ما يقتضيه الشرع في أمرهم .

واوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم ، ثم أطلقوا ، سوى الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر امام الجوزية ، فانه حبس بالقلعة . وسكنت القضية .

ملخص صورة الفتيا

وهذا ملخص صورة الفتيا وموافقة البغاددة له وغيرهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على محمد وآله .

أما بعد ، فهذه فتيا أفتى بها الشيخ الأمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه .

ما يقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، نفع الله بهم المسلمين ، في رجل نوى السفر الى زيارة قبور الانبياء والصالحين ، مثل نبينا محمد ﷺ وغيره ، فهل يجوز له في سفره أن يقصر الصلاة ؟ وهل الزيارة شرعية أم لا ؟؟ .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال « من حج ولم يزرني فقد جفاني » « من زارني بعد موتي ، كمن زارني في حياتي » وقد روي عنه ﷺ أيضاً أنه قال « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

أفتونا مأجورين رحمكم الله .

خلاصة الجواب

الحمد لله رب العالمين .

أما السفر الى بقعة غير المساجد الثلاثة ، فلم يوجب أحد من العلماء السفر اليه اذا نذره ، حتى نص العلماء على أنه لا يسافر الى مسجد قباء ، لأنه ليس من المساجد الثلاثة ، مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان في المدينة . لان ذلك ليس بشد رحل . كما جاء في الحديث الصحيح : « من تطهر في بيته ، ثم أتى مسجد قباء ، لا يريد الا الصلاة فيه ، كان كعمرة » .

قالوا : ولأن السفر الى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أمر بها رسول الله ﷺ ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة ، وفعله ، فهو مخالف للسنة ولاجماع الأئمة !

وهذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطّه في الابانة الصغرى من البدع المخالفة للسنة

والاجماع .

وبهذا يظهر بطلان حجة أبي محمد المقدسي ، لأن زيارة النبي ﷺ لمسجد قباء لم تكن بشد رحل ، ولأن السفر اليه لا يجب بالنذر .

وقوله : بأن الحديث الذي مضمونه « لا تشد الرحال » : محمول على نفي الاستحباب ، يجاب عنه بوجهين :

أحدهما ـ أن هذا ـ ان سلم : فيه أن هذا السفر ليس بعمل صالح ، ولا قربة ، ولا طاعة ، ولا هو من الحسنات . فإذاً من اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين قربة وعبادة وطاعة ، فقد خالف الاجماع واذا سافر لاعتقاد أن ذلك طاعة ، كان ذلك محرماً باجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر اليها الا لذلك .

وأما اذا نذر الرجل أن يسافر اليها لغرض مباح ، فهذا جائز ، وليس من هذا الباب .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث يقتضي النهي ، والنهي يقتضي التحريم . وما ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبي ﷺ فكلها ضعيفة ، باتفاق أهل العلم بالحديث ، بل هي موضوعة !! لم يرو أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها ، ولم يحتج أحد من الأئمة بشيء منها ، بل مالك ـ أمام أهل المدينة النبوية الذين هم أعلم الناس بحكم هذه المسألة ـ كره أن يقول الرجل : زرت قبر النبي ﷺ ، ولو كان هذا اللفظ معروفاً عندهم ، أو مشروعاً ، أو مأثوراً عن النبي ﷺ لم يكرهه عالم أهل المدينة !!

والامام أحمد أعلم الناس في زمانه بالسنّة ، لما سئل عن ذلك ، لم يكن عنده ما يعتمد عليه في ذلك من الأحاديث ، الا حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يسلم عليَّ الا رد الله الا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام » .

وعلى هذا اعتمد أبو داوود في سننه .

وكذلك مالك في الموطأ ، روي عن عبد الله بن عمر : « أنه كان اذا دخل المسجد قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ، ثم ينصرف » .

وفي سنن أبي داوود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ ،

فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

وفي سنن سعيد بن منصور « ان عبد الله بن حسن بن علي ابن أبي طالب ، رأى رجلاً يختلف الى قبر النبي ﷺ فقال له : ان رسول الله ﷺ قال « تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا علي ، فان صلاتكم حيثما كنتم تبلغني »فما أنت ورجل بالاندلس منه الا سواء » ! .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكنه كره أن يتخذ مسجداً .

وهم دفنوه ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها ، خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحراء . لئلا يصلي أحد عند قبره ويتخذه مسجداً ، فيتخذ قبره وثناً .

وكان الصحابة والتابعون ـ لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد ، الى زمن الوليد بن عبد الملك ـ لا يدخل أحد اليه ، لا لصلاة هناك ، ولا تمسح بالقبر ، ولا دعاء هناك . بل هذا جميعه انما كانوا يفعلونه في المسجد .

وكان السلف من الصحابة والتابعين اذا سلموا على النبي ﷺ وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة ، ولم يستقبلوا القبر !

وأما الوقوف للسلام عليه ، صلوات الله عليه وسلامه ، فقال أبو حنيفة : يستقبل القبلة أيضاً ، ولا يستقبل القبر ! .

وقال أكثر الائمة : يستقبل القبر عند الدعاء .

وليس في ذلك الا حكاية مكذوبة ، تروى عن مالك ، ومذهبه بخلافها .

واتفق الائمة على أنه لا يمس قبر النبي ﷺ ولا يقبله .

وهذا كله محافظة على التوحيد ، فان من اصول الشرك بالله : اتخاذ القبور مساجد ، كما قال طائفة من السلف في قوله تعالى : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن وداً ، ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً » قالوا « هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا على صورهم تماثيل ، ثم طال عليهم الامد فعبدوها » .

وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا المعنى عن ابن عباس .

وذكره محمد بن جرير الطبري وغيره في التفسير عن غير واحد من السلف وذكره

وثيمة[1] وغيره في قصص الانبياء ، من عدة طرق .

وقد بسطت الكلام على اصول هذه المسائل في غير هذا الموضع[2] .

وأول من وضع هذه الاحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور : أهل البدع ، من الرافضة ونحوهم ، الذين يعطلون المساجد ، ويعظمون المشاهد ، ويدعون بيوت الله التي أمر أن يذكر فيها اسمه ، ويعبد وحده لا شريك له ، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ويكذب ، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً ، فان الكتاب والسنة ، انما فيهما ذكر المساجد ، دون المشاهد ، كما قال تعالى « قل أمر ربي بالقسط ، واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين » .

وقال تعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » .

وقال تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » .

وقال تعالى : « وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً » .

وقال تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ؟ » .

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح : أنه كان يقول « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك » .

هذا آخر ما أجاب به شيخ الاسلام ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وله من الكلام في مثل هذا كثير ، كما أشار اليه في الجواب .

ولما ظفروا في دمشق بهذا الجواب كتبوه ، وبعثوا به الى الديار المصرية وكتب عليه قاضي الشافعية :

قابلت الجواب عن هذا السؤال ، المكتوب على خط ابن تيمية . فصح ـ الى أن قال : وانما المحرف جعله : زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الانبياء صلوات الله عليهم معصية بالاجماع

---

(١) بفتح الواو وكسر الثاء واسكان الياء وفتح الميم .

(٢) في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وفي الرد على الاخنائي والبكري ، وفي اقتضاء الصراط المستقيم ، وفي منهاج السنة . وغير ذلك كثير .

مقطوع بها :

هذا كلامه . فانظر الى هذا التحريف على شيخ الاسلام ، والجواب ليس فيه المنع من زيارة قبور الانبياء والصالحين ، وانما ذكر فيه قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة اخرى .

والشيخ لا يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل ، بل يستحبها ، ويندب اليها . وكتبه ومناسكه تشهد بذلك . ولم يتعرض الشيخ الى هذه الزيارة في الفتيا ، ولا قال : انها معصية ، ولا حكى الاجماع على المنع منها . والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية .

ولما وصل خط القاضي المذكور الى الديار المصرية ، كثر الكلام وعظمت الفتنة ، وطلب القضاة بها ، فاجتمعوا ، وتكلموا ، وأشار بعضهم بحبس الشيخ ، فرسم السلطان به[1] .

قال الاستاذ محمد ابو زهرة معلقاً على هذه القضية :

هذه احدى القضايا التي اثار غبارها ابن تيمية في قوة وعنف ، وقرع بها مشاعر معاصريه قرعاً شديداً وأزعجهم بها ازعاجاً شديداً .

والاساس الذي بنى عليه ابن تيمية قوله ، هو افراد الله وحده بالعبادة ، والبعد عن الوثنية وكل ذرائعها ، ثم حمل نصوص النهي عن الوثنية على زيارة القبور ، وخصوصاً قبر الرسول .

ونحن قد نميل الى قوله في زيارة قبور الصالحين ، اما زيارة قبر النبي ﷺ فانما نخالفه فيه مخالفة تامة ، وذلك لان الاساس الذي بنى عليه قوله هو الوثنية ، فان كان يريد ان زيارة القبر الشريف هو في ذاته نوع من الوثنية فهو غريب ، فانك كما تفسره بأنه وثنية يصح ان تفسره بأنه وحدانية ومبالغ فيها ، لان زيارة قبر نبي الوحدانية استشعار لحقيقتها ، وتقديس لمعناها ، فان التقديس الذي يتصل بالرسل انما هو من فكرتهم ، وهدايتهم ، فالتقديس لمحمد تقديس للمعاني التي دعا اليها وحث عليها ، وكيف يتصور من مؤمن

---

(١) العقود الدرية ص ٣٢٦ باختصار .

يعرف حقيقة الدعوة المحمدية انه يكون مستشعراً لأي معنى من معاني الوثنية ، وهو يستعبر العبر ، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة ؟

واذا كان خوف ابن تيمية من ان يؤدي ذلك الى الوثنية بمضي الاعصار والدهور ، فانه خوف في غير مخاف ، لان الناس كانوا يزورون قبر الرسول الى اول القرن الثامن ، ثم بتوالى العصور من بعده الى يومنا هذا . ومع ذلك لم ينظر احد اليه نظرة عبادة ، او وثنية ، نعم تفرط من العامة عبارات كالتوسل بجاهه ، او الاستشفاع بشفاعته وهي عبارات لا وثنية فيها ، بل تؤول بأقرب تأويلاتها ، ويفهم الجاهلون ، ولا تمنع تلك الذكريات العطرة لاجل عبارات من العوام يحسن ارشادهم لا منعهم من الزيارة ، وتفهيمهم لا تكفيرهم ، وان الله سبحانه قد صان التوحيد الى يوم القيامة ، وقد ذكر ذلك محمد ﷺ في آخر حياته ، وبشر به المؤمنين ، وهو ان الشيطان قد يئس ان يعبد في ارض العرب ، فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد .

وان الآثار عن السلف الصالح تثبت انهم ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يتبركون بزيارة قبره الشريف ، ولم يجدوا فيه وثنية ولا ما يشبهها . ألم يكن الشيخان الجليلان ابو بكر وعمر حريصين على ان يدفنا بجوار جثمانه الكريم ﷺ ولم يريا في ذلك وثنية او ما يشبه الوثنية .

ولقد روى ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ ان السلف الصالح ـ رضوان الله تبارك وتعالى عليهم ـ كانوا يسلمون على النبي ﷺ كلما مروا على الروضة الشريفة ، قال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر ـ رأيته مائة مرة او اكثر يجيء الى القبر ، فيقول السلام على النبي ﷺ ، السلام على ابي بكر ، السلام على أبي ، ورؤي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

ولقد قال ابن وهب ان الامام مالكاً ـ رضي الله عنه ـ قال : « لا بأس لمن قدم من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل : فإن اناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ، ولا يريدونه يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين او اكثر عند القبر ، فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال مالك لم يبلغني ذلك عن اهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح بها اولها ، ولم يبلغني عن اول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ويكره الا لمن جاء من سفر او أراده »[1] .

---

(١) « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » ص ٥٥ .

ولقد حكى ابن تيمية عن اكثر الائمة انهم يرون ان يستقبل القبر الشريف عند الدعاء[1] .

هذه النقول وغيرها مما جرى على قلم ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ تدل على جواز زيارة قبر الرسول ﷺ ، وقد دل من هذه الاخبار :

(١) كثرة زيارتهم لقبره عليه السلام ، حتى ان ابن عمر زاره اكثر من مائة ، وان نافعاً تلميذه رآه يضع يده على مقعد رسول الله ﷺ على منبره ثم يضعها على وجهه .

(٢) تجويز بعض الائمة ان يدعو الزائر للقبر متجهاً الى القبر ، وعلى ذلك اكثر الائمة .

(٣) وان مالكاً ـ رضي الله عنه ـ يحث على زيارة القبر عند السفر ، وعند العزم عليه . . وهكذا مما نقل تقي الدين .

واذا لم يكن هذا مسوغاً للزيارة والتذكر بالقرب من الروضة الشريفة فماذا يكون المسوغ ؟ وان الحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد » هو دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ حياً ، ودفن فيها ميتاً ، فقد كان شرف الكعبة انها بيت الله واول بيت وضع للناس ، وشرف المسجد الاقصى ، لانه مسجد الانبياء السابقين وموضع الاسراء ، ومنه كان المعراج ، فماذا يكون شرف المسجد المحمدي ؟ انما شرفه من اقامة الروضة وكان مكان النور المحمدي ، والهدى الاسلامي . وان شد الرحال اليه ليرى الرائي موطن الوحي ، ومنازل النبوة ، وان تلك الذكريات كما تتحقق في المسجد الشريف تتحقق في الروضة الشريفة ، بيد ان هذا يصلى فيه ، وتلك لا يصلى فيها ، لموضع النهي من ان يتخذ القبر مسجداً ، فيقتصر على مورد النهي .

يسأل ابن تيمية لماذا اختار النبي ﷺ ان يكون مدفنه في مسكنه وهو حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ؟ ويختار الجواب ، وهو ألا يتخذ قبره مسجداً ، ولا يكون موضع عبادة ، وقد يكون ذلك جواباً سلبياً ، او هو جزء من جواب صحيح ، والجزء الثاني ان يكون قبره قريباً من مسجده ، وان يكون قبره معروفاً غير مجهول ، فانه لو دفن بالبقيع في الصحراء فقد يجهل موضعه ، ويكون بعيداً عن مسجده ، اما اذا دفن في حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فانه يكون قريباً من مهبط الوحي ، ومبعث الدعوة ، ومكان التنزيل .

---

(١) « العقود الدرية » ص ٣٢٨ .

وبعد ، فانا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول والمناجاة عنده ، وعدم الندب اليها ، وان التبرك الذي نريده ليس هو العبادة او التقرب الى الله بالمكان ، وانما التبرك هو التذكر والاعتبار والاستبصار ، اي امرىء مسلم علم حياة النبي ﷺ وسيرته وهدايته ، وغزواته وجهاده ، ثم يذهب الى المدينة ، ولا يحس بأن في هذا المكان كان يسير الرسول ، ويدعو ، ويعمل ويدبر ويجاهد ، او لا يعتبر ولا يستبصر ، او لا يحس بروحانية الاسلام ، وعبقرية النبي الامين او لا تهز اعطافه محبة الله ورسوله ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتهاء عما نهى عنه ، الا من أعرض عن ذكر الله ، ولم يكن من أولي الابصار . ان الزيارة الى قبر الرسول هي الذكرى والاعتبار ، والهدى والاستبصار . والدعاء عند القبر ، دعاء والقلب خاشع ، والعقل خاضع ، والنفس مخلصة ، والوجدان مستيقظ ، وان ذلك أبرك الدعاء »[1] ! .

ونستطيع ان نلخص رد الاستاذ محمد أبي زهرة السابق على حجة الاسلام ابن تيمية بالنقاط التالية :

(اولها) ان شيخ الاسلام يقول بتحريم زيارة قبر صالح بعينه . ويميل ابو زهرة الى تأييده في ذلك ، ويخالفه في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

ان هذا الكلام جهل بقصد ابن تيمية ، طالما كرره الاستاذ ابو زهرة في كتابه ، وفي محاضرته التي ألقاها في مهرجان الامام ابن تيمية في دمشق ، انه لم يميز بين نهي شيخ الاسلام عن شد الرحال الى زيارة قبور الصالحين ، وبين زيارتهم ، فان زيارتهم مندوبة ! وشتان بين الزيارة وبين شد الرحال للزيارة المنهي عنها في الحديث المشهور ، لما فيها من الغلو في الدين ، وهو محرم ، لقوله ﷺ : « لا تجعلوا قبري عيداً ، صلوا علي أينما شئتم » . .

والغريب ان يوافق ابو زهرة حجة الاسلام ابن تيمية على حد رأيه ـ في زيارة قبور الاشخاص العاديين ويخالفه في زيارة قبور غيرهم من الانبياء والاولياء ، مع ان الفتنة أشد !! .

(ثانيها) ان زيارة قبر الرسول تستشعر العبر ، ولا تحصل فيها وثنية .

كيف يقول الاستاذ ابو زهرة ذلك ، وقد ضج المخلصون العارفون مما يحصل عند قبر

---

(١) عن كتاب ابن تيمية للاستاذ ابي زهرة ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨ .

النبي ﷺ وقبور غيره من الانبياء والاولياء من مظاهر الشرك كالاستعانة بهم والدعاء والنذر لهم والتمسح بقبورهم !؟ .

(ثالثها) قال الاستاذ ابو زهرة : ان الله سبحانه صان التوحيد الى يوم القيامة بقوله عليه الصلاة والسلام « الشيطان يئس ان يعبد في ارض العرب » فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد ! .

غريب ان يصدر مثل هذا الكلام عن الاستاذ أبي زهرة ، انه جهل بمعنى هذا الحديث المقصود منه اليأس من عبادة الشيطان عبادة عامة ، فتنقلب الامة الى امة وثنية مشركة ، اما ان تنقلب طائفة او اكثر منها ، فتعبد الانبياء والاولياء ، فذلك واقع ، بل قد وقع فعلا ، وقد أنبأ الله ـ سبحانه ـ نبيه بذلك في حديث : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ! » ومن سنن من كان قبلنا هذه الشركيات التي ظهرت في كثير من المسلمين قديماً وحديثاً . ولولا خشية الشرك لما نهى الرسول ﷺ عن رفع القبور والبناء عليها ، واتخاذ الصور . ولولا خشية الشرك لما قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد ! » ولولا خشية الشرك لما سارع الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى قطع شجرة الرضوان لما رأى صلاة الناس عندها ، فلماذا فعل امير المؤمنين ذلك ؟ لماذا لا يضع يديه في الماء البارد بناء على الحديث الذي ذكره الاستاذ ابو زهرة ؟

حقاً انه استنتاج غريب !

ويحسن بنا اتماماً للبحث وتثبيتاً لما قلناه ان نسوق للشيخ ابي زهرة الحديث الصحيح الآتي ، لعله يرجع عن رأيه قال النبي ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس (قبيلة عربية) حول صنم لها يقال له ذو الخليصة » ! .

وهل نسي ابو زهرة الحديث القائل : الشرك في امتي أخفى من دبيب النمل ؟

(رابعها) قوله : رئي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

ان هذا ، ان صح ، فليس بحجة ، فان ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ ليس مشرعاً ،لا سيماوقد روى عنه ـ كما ذكر الاستاذ ـ كثرة الزيارات لقبر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو من الغلو كما قال الامام مالك في الكلام الذي نقله الاستاذ ابو زهرة .

قال : قال ابن وهب ان الامام مالكاً ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : « لا بأس بمن قدم

من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل فان ناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين ، او اكثر عند القبر ، فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال مالك : لم يبلغني ذلك عن اهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ! ولا يصلح آخرهذه الامة الا بما صلح به اولها ! ولم يبلغني عن اول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر او أراده[1] .

(خامسها) ومن قوله : والحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد » هو دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ ودفن فيها ميتاً .

لقد نسي الاستاذ ان النبي ﷺ لم يدفن في المسجد ، انما دفن في حجرة عائشة ، ثم أدخلت فيه ـ ويا للأسف ـ زمن الوليد بن عبد الملك .

كيف يمكن ان يدفن ﷺ في المسجد ، والصحابة يعلمون انكاره ذلك في مثل قوله : « اشتد غضب الله على قوم جعلوا قبور أنبيائهم مساجد » ! .

(سادسها) وقوله : ويسأل ابن تيمية لماذا اختار النبي ﷺ ان يكون مدفنه في مسكنه ، وهو حجرة عائشة رضي الله عنها .

ان الذي اختار ذلك هو الله تعالى لا النبي ﷺ ، بقوله عليه الصلاة والسلام : « ما من نبي مات او يموت الا دفن في الموضع الذي مات فيه ! » وقد ذكر ابو بكر الصديق الصحابة بهذا الحديث لما اختلفوا في موضع دفنه !

(سابعها) وقوله : وعبقرية النبي الامين . .

ان كلمة عبقرية تقال للابطال والعظماء ، وقياس الانبياء عليهم فيه ايهام بأن النبوة هي عنصر كسبي لا فطري ، ومن مواهب البشر ، واذا صدرت امثال هذه التعابير من الاستاذ عباس محمود العقاد فله بعض العذر اما ان يصدر ذلك من استاذ كلية الشريعة ، فأمر غير مقبول .

(ثامنها) وقوله : وبعد فإنا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول ﷺ والمناجاة عنده وعدم الندب اليها . .

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٥٥ .

يظهر ان الشيخ أبا زهرة أغلق عليه فهم كلام الامام ابن تيمية حتى راح يقول : إنا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

نقول : حاشا شيخ الاسلام ابن تيمية أن يقول بمنع زيارة قبر النبي ﷺ[1] مما لا يتصور ان يقول به مؤمن ! وخلاصة قول حجة الاسلام انه يذكر بما نهى عنه الرسول ﷺ عن شد الرحال للزيارة . أما من شد الرحال الى مسجده ﷺ ، فيترتب عليه زيارة قبره والدعاء له ، ومن لم يفعل ذلك كان ملاماً ؟

قال الامام مالك رحمه الله ، لسائل سأله : انه نذر ان يأتي قبر النبي ﷺ ، فقال : « ان كان أراد مسجد النبي ﷺ ، فليأته ، وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء « لا تعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد »[2] .

صدى سجنه في العالم الاسلامي

وبعد فانه لما قرع اسماع اهل البلاد الشرقية والضواحي العراقية التضييق على شيخ الاسلام ابن تيمية ، عظم ذلك على المسلمين ، وشق على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس الملحدين ، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، ولما رأى علماء اهل هذه الناحية ، عظم هذه النازلة من شماتة اهل البدع الأهواء ، بأكابر الأفاضل وأئمة العلماء ، أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع ، الى الحضرة الشريفة السلطانية ، . . . . وكتبوا اجوبتهم في تصويب ما اجاب به الشيخ في فتاواه ، وذكروا من علمه وفضله ، بعض ما هو فيه ، وحملوا ذلك الى بين يدي ملك الأمراء ، غيرة منهم على هذا الدين ، ونصيحة للاسلام وامراء المؤمنين .

فقد ارسل كبار علماء بغداد ودمشق من الشافعية والمالكية والحنابلة رسائل كثيرة الى السلطان ينتصرون فيها لشيخ الاسلام ابن تيمية ويؤيدونه في مسألة شد الرحال للقبور بالادلة القاطعة والحجج الدامغة ، وقد ذكرت هذه الأجوبة مفصلة في كتاب العقود

---

(١) لقد أعاد الشيخ ابو زهرة مثل هذه العبارة في كتابه المذاهب الاسلامية (ص ٣١٧) عن السلفيين اتباع ابن تيمية فقال « ويعتقدون ان زيارة الروضة الشريفة مستقبلا لها مناف للرحدانية » وهو غير صحيح الغاية منه اثارة العوام والغوغاء على السلفيين وهم اكثر المسلمين احتراماً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتباعاً له والسلفيون يمنعون استقبال القبر في الدعاء ، لا مجرد استقباله ! وذلك ، لان الدعاء عبادة ، والعبادة لا يستقبل بها القبر ؟

(٢) العقود الدرية ص ٣٥٤ .

الدرية[1] .

وقد عقد العلامة محمد كرد علي رحمه الله في كتابه « كنوز الأجداد » فصلاً عن ابن تيمية قال فيه بمناسبة حادثة شد الرحال :

« ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين ، وفي غير ذلك من البدع التي أقروها ، والشريعة تنكرها إنكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدي ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتياظهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة ، كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الأمة على إقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة[2] !

وكأنهم اخترعوا شريعة اخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الأصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، وهو لم يأت ببدع ، وهم سلموا بكل البدع ، فكان العالم العامل حقاً وكانوا عبدة أوهام وضلالات ، أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم قد تساوت عندهم النقاوة والنفاية ، لأنهم يقصدون من مناقشتهم الظهور ، وكسب قلوب الغوغاء ، على كل حال لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده حارة ، وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تحريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا احداً في الدنيا والاسلام يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى بالتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخيال والخبال » .

حال الامام في السجن

ذكر صاحب الكواكب الدراري :

ولما ورد امر بسجن شيخ الاسلام ابن تيمية بقلعة دمشق اظهر السرور بذلك وقال : اني كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم . ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه ، في كتابه « الكلم الطيب والعمل الصالح »[3]

(١) ـ العقود الدرية ٣٤٢ ـ ٣٦٠ .

(٢) ـ ما عدا الديار السعودية بفضل خلف ابن تيمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

(٣) ـ وقد حققه استاذنا الالباني ، وكذلك اختصره . وقام المكتب الاسلامي بطبع الكتابين طبعة انيقة جميلة .

انه قال :

ما يصنع اعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني ! أنا حبسي خلوة ! وقتلي شهادة ! وإخراجي من بلدي سياحة !

وكان يقول في مجلسه في القلعة :

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ، ما عدل عندي شكر هذه النعمة .

او قال : ما جزيتهم على ما تسببوا الي فيه من الخير . . ونحو هذا .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس :

اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله !

وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه !

والمأسور من اسره هواه !

ولما دخل ووصل القلعة وصار داخل سورها نظر اليه وقال :

« فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » !

وعلم الله ما رأيت احداً اطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارجاف ، وهو مع ذلك اطيب الناس عيشاً ، واشرحهم صدراً ، واقواهم قلباً ، واسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا اذا اشتد بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، اتيناه فما هو الا ان نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة .

فسبحان من اشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم ابوابها في دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة اليها .

وكان بعض العارفين يقول :

لو علم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف » . ا.هـ .

صنيع الامام في سجنه

لم يحل السجن بين الامام ابن تيمية وبين فكرته الاصلاحية ، ولم تفتر له همة طوال مدة سجنه ، فقد انصرف الى التأليف والتصنيف والرد على خصوم الاسلام ، وعلى المبتدعين ، وكتب في تفسير القرآن العظيم معانٍ لطيفة ونفائس دقيقة ، وبين ذلك في مواضع كثيرة[1] .

وقد كان عمله المفيد هذا ، يغضب خصومه من المقلدين والمبتدعين ، بدل أن يسرهم ، فكانوا يسعون لدى الدولة لنقله من سجن الى آخر ليصرفوا عنه حتى السجناء ، ولكنه كان يزداد شهرة وتألقاً ، واخيراً شكوا امره الى السلطان وطالبوا بقتله مراراً ، ! غير أن السلطان لم يصغ لكلامهم واكتفى بأن أصدر مرسوماً باخراج ما عند الامام من الكتب ، ولم يبق عنده ولا ورقة ولا محبرة ولا قلم ! فكان بعد ذلك اذا كتب شيئاً الى اصحابه وتلامذته ، كتبه بفحم ! وقد وجدت رسائل مكتوبة بالفحم ، وفيما يلي نذكر احدى هذه الرسائل ، وهي ان دلت على شيء ، فانما تدل على جميل صبره ، ورضاه بقدر الله سبحانه ، وعلى مبلغ خبث خصومه وعدائهم للعلم والاسلام الصحيح !

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، متوفرة ، وجميع ما يفعله الله ، فيه نصر الاسلام ، وهو من نعم الله العظام . و « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . فإن الشيطان استعمل حزبه في افساد دين الله ، الذي بعث به رسله ، وانزل كتبه .

---

(١) ـ ولما كان في سجنه في مصر خصص للمساجين قسماً من وقته : « فقد وجدهم مشتغلين بانواع اللعب يتلهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات ، فانكر الشيخ عليهم ذلك اشد الانكار ، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه الى الله تعالى في الأعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون اليه ، ورغبهم في اعمال الخير ، وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط والخوانق والمدارس وصار خلق من المحابيس اذا اطلقوا يختارون الاقامة عنده ، وكثر المترددين اليه حتى كان السجن يمتلىء بهم » العقود الدرية ص ٢٦٩ .

ومن سنة الله : أنه اذا أراد اظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق !

والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين ابراهيم ، وموسى ، والمسيح ومحمد خاتم النبيين ـ صلى الله عليهم أجمعين ـ[1] .

وقد أشار ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ في هذه الرسالة الى حادثة اخراج كتبه وتصانيفه من السجن ، فقال :

وكانوا (أي المقلدة والخرافيون) قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور الاخنائية[2] فاستعجلهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك واعظم ، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته ، ومقصودهم اظهار عيوبه ، وما يحتجون به ، فلم يجدوا فيه الا ما هو حجة عليهم ، وظهر لهم جهلهم ، وكذبهم وعجزهم ، وشاع هذا في الأرض ، وان هذا مما لا يقدر عليه الا الله ، ولم يمكنهم ان يظهروا علينا فيه عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم : انه خولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائن من كان ، اذا خالف امر الله تعالى ورسوله ، لم يجب ، بل ولا يجوز طاعته ، في مخالفة امر الله ورسوله باتفاق المسلمين !

وقول القائل (عني) : انه يظهر البدع ، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ، ويعلم ان الأمر بالعكس ، فان الذي يظهر البدعة ، اما أن يكون لعدم علمه بسنة الرسول ، او لكونه له غرض وهوى يخالف ذلك ! وهو اولى بالجهل بسنة رسول الله ، واتباع هواهم بغير هدى من الله (ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى الله) ، ممن هو اعلم بسنة الرسول منهم ، وابعد عن الهوى والغرض في مخالفتها (ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون . انهم لم يغنوا عنك من الله شيئاً ، وان الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين) .

وهذه قضية كبيرة لها شأن عظيم « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

(ثم ذكر ابن تيمية في الورقة كلاماً لا يمكن قراءته جميعه بسبب انطماسه بالفحم

---

(١) ـ ويقصد بذلك شد الرحال الى القبور والاستعانة بها والنذر لها والخوف منها ، مما يخالف ابسط مبادىء التوحيد ، وفي بعضه كفر ، العياذ بالله ! .

(٢) ـ رسالة في الرد على ابن الاخنائي قاضي المالكية بمصر . وقد طبعت بمصر في المكتبة السلفية .

جزى الله الخرافيين عنه بما يستحقون !!) .

وبعد ذلك وصف شيخ الاسلام عمله في ميدان الاصلاح الديني وضد المبتدعة فقال :

بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية ، والجهمية ، والاتحادية (حينما قاتلهم مع السلطات الحكومية) وامثال ذلك ، وهذا من اعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون !

وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيمية اخراج الكتب والأوراق من عنده من اعظم النكبات بسبب ضياع كثير مما كان يجول في نفسه ، ويود نشره على الناس ! .

واقبل الامام بعد ذلك على العبادة وتلاوة القرآن والذكر والتهجد حتى وافته منيته . وختم القرآن مدة اقامته بالقلعة ثمانين او احدى وثمانين ختمة ، انتهى في نهاية ختمة الى آخر سورة اقتربت الساعة (ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وكان كل يوم يقرأ ثلاثة اجزاء ، يختم في عشرة ايام ، هكذا اخبر اخوه زين الدين ، وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً ، ومدة سجنه الأخير في قلعة دمشق سنتان وثلاثة اشهر وأياماً ، لم يقبل خلالها ـ ولا قبلها لما سجن في مصر ـ شيئاً من الكسوة السلطانية ، ولا من الأدرار السلطاني ، ولا تدنس بشيء من ذلك ، كما اخبر بذلك نائب السلطنة بدمشق[1] .

ابتهالات

وقد أنشد شيخ الاسلام في سجنه هذه الأبيات التي وجدت بخطه في القلعة :

أنا الفقير الى رب السموات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي ، وهي ظالمتي ... والخير ، إن جاءنا ، من عنده يأتي
لا استطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس في دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع الى رب البريات
ولست املك شيئاً دونه ابداً ... ولا شريك انا في بعض ذراتي

(١) ـ العقود الدرية باختصار .

ولا ظهير له كيما اعاونه ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم ابداً ... كما الغنى ابداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق اجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلباً من دون خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون اجمعه ... ما كان منه ، وما من بعده يأتي
ثم الصلاة على المختار من مضر ... خير البرية من ماضٍ ومن آتي

وفاة شيخ الاسلام رحمه الله بالقلعة

بقي الشيخ رحمه الله تعالى مقيماً بالقلعة سنتين وثلاثة اشهر وأياماً ، ثم توفي الى رحمة الله ورضوانه ، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة والتلاوة ، وتصنيف الكتب والرد على المخالفين . . . .

وقد رثاه الشيخ الامام زين الدين ، ابو حفص ، عمر بن محمد بن ابي الفوارس بن علي ابن الوردي ، الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بقصيدة قال فيها :

عتا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط
تقي الدين احمد خير حبر ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له الى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به احاطوا
قضى نحباً وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط
فتى في علمه اضحى فريداً ... وحل المشكلات به يناط
وكان الى التقى يدعو البرايا ... بوعظ للقلوب هو السياط
فيا لله ما قد ضم لحد ... ويا لله ما غطى البلاط
همو حدوه ، لما لم ينالوا ... مناقبه فقد فسقوا وشاطوا
وكانوا عن طرائفه كسالى ... ولكن في اذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
بنو تيمية كانوا ، فبانوا ... نجوم العلم ادركها انهباط

ولكن يا ندامة حابسيه ... فشك الشرك كان به يماط
ألم يك فيكمو رجل رشيد ... يرى سجن الامام فيستشاط
امام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكمو في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغضتموه ... اما لجزا أذيته اشتراط ؟
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
اما والله لولا كتم سري ... وخوف الشر لانحل الرباط
وكنت اقول ما عندي ولكن ... باهل العلم ما حسن اشتطاط
فما احد الى الانصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... ونيتكم اذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم ، واسترحتم ... فعاطوا ما اردتم ان تعاطوا
وحلوا واعقدوا من غير رد ... عليكم وانطوى ذاك البساط[1]

الاحتفال الكبير بالصلاة على شيخ الاسلام

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلى عليه عقب صلاة الظهر ، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه الا حضر ذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذٍ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم .

وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام . قال بعض من حضر : لم يتخلف فيما أعلم الا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم متى خرجوا رجمهم الناس !! .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه انهم يزيدون على نحو من خمسمئة الف ، وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر الفاً .

---

(١) - وهناك عشرات الشعراء من العلماء الذين رثوه وبكوه بقصائد عاطفية تدمي القلوب وتفتت الجلمود ، ذكرها صاحب العقود الدرية في آخر كتابه . وانظرها في « الاعلام العلية » للبزار .

قال اهل التاريخ : لم نسمع بجنازة تمثل هذا الجمع الا جنازة الامام احمد بن حنبل ، قال الدار قطني : سمعت ابا سهل زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن احمد بن حنبل يقول : سمعت ابي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز ! .

ثم حملت جنازة الشيخ الى قبره فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ، ولم يكن حاضراً ، قبل ذلك ، وصلى عليه ايضاً ، ومن معه من الأمراء والكبراء ، ومن شاء من الناس ، ثم دفن وقت العصر الى جانب اخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين. ا . هـ .

هكذا انتهت حياة العظيم !

وهكذا انتهت حياة شيخ الاسلام ابن تيمية موتاً في السجن بعد نضال مرير في ميادين العلم وساحات الجهاد ، فترة من الزمن تزيد على نصف قرن ، لاقى خلالها انواع الاضطهاد ، فلم تثن له عزيمة ، ولم تضعف له ارادة .

ولو علمت السلطات الحكومية ما في حركته الاصلاحية الدينية من فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية لكان لها منه موقف آخر ، ولكن خفافيش العلم وادعياء الدين اخفوا عليها الحقيقة وقلبوا لها المفاهيم ، وغرروها وخدعوها خشية على دجلهم من ان ينكشف ، وعلى امتيازاتهم من ان تضيع ، فحملوا لعنة الأبد وخيانة الدهر وجريمة التاريخ !! .

ان الاصلاح الديني اول شيء في الاصلاح ، وكل اصلاح يقوم بدونه ، لا يثمر ابداً ! وما بعثة سيد الخلق النبي محمد ﷺ الا اصلاح ديني سرعان ما ازدهر وأثمر وآتى أكله في جميع النواحي العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ووحد العرب وآخى بينهم بمعجزة وسرعة مدهشة ، وانطلق بهم في آفاق العلم والنصر مما يبرهن على عظمة تأثير الدين الصحيح في اصلاح النفوس ﴿ لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم !! ﴾ .

وهذا الغرب نفسه كان في جهل سحيق وظلام دامس ، ولم ينج من انحطاطه الا يوم اعلن الاصلاح الديني فألغى امتيازات رجال الدين ، واطلق العقل في آفاق العلم والبحث التي حرمها عليه من قبل هؤلاء الانتهازيون وسعى لمعرفة إلهبنفسه واللجوء اليه دون وساطة رجال الكنيسة ، مقتبساً كل هذه الانطلاقات مما شاهده في المسلمين خلال حروبه وتجارته . . فكانت هذه النهضة الأوروبية التي انتشرت بسرعة البرق وانقذت الغرب من

ظلام القرون الوسطى على الرغم مما فيها من انحرافات !

ما كاد الامام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يتفقه في الدين ، حتى شاهد العالم الاسلامي يتخطفه الاعداء من الداخل والخارج : من داخله الفرق الدينية على اختلاف اسمائها تنخر فيه نخر السوس في الشجرة الباسقة ، وتبعده عن اسلامه الصحيح دون ان يشعر ، عن طريق الآراء والفلسفات الوثنية من يونانية وهندية ، والمؤامرات السياسية من باطنية وصوفية وشعوبية وغيرها تهد كيانه .

ومن الخارج التتار يهدم مدنية الاسلام ويحرق كتبه ويقتل اهله ، والغريب ان هؤلاء التتار دخلوا الاسلام فيما بعد على زعمهم . ولكن اي اسلام هذا ؟ اسلام الباطنية الذي لا يحمل من الاسلام الا اسمه ، ويكن لجماعته كل عداء ! ويسعى لهدم الاسلام باسم الاسلام كما هدمه ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي في بغداد ايام الخليفة المستعصم !! .

هكذا كان العالم الاسلامي في عهد ابن تيمية ، في خطر يهدده من الداخل والخارج ، وكان من واجب شيخ الاسلام ازاء كل ذلك ان يسارع ليجمع شمله ويوحد خططه ويعالج مشكلاته . ويحارب خصومه داخلاً وخارجاً .

ولكن انى له ذلك ؟

فقد كانت المذهبية على أشد الخلاف فيما بينها ، وقد كان يقع بين اصحاب المذاهب مع الفتن والدسائس والمكايد وتكفير بعضهم بعضاً احياناً ما يتفتت له قلب كل مسلم مخلص . وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن كثيراً من المدن قد تخرب بسبب النزاع بين اصحاب هذه المذاهب .

وعلاوة على هذه الخلافات المذهبية فقد انتشرت بين المسلمين الفلسفات الكلامية حول المقام الالهي ، أبعدت المسلمين عن عقيدتهم السلفية المقتبسة من القرآن والسنة ، واخذت عقيدة الجبر تعمل هدماً وتخريباً بين المسلمين فأضعفت الارادات وشلت العزائم وادخلت الوساوس والشكوك في العدل الالهي ودفعت بهم الى التكاسل والتواكل .

وقد هبط كثير من المسلمين في مهاوي الوثنية ، فكانوا يشدون الرحال الى قبور الصالحين ويتمسحون بها ويستغيثون باصحابها وينذرون لهم ويدعونهم في الشدائد ، مما يتنافى مع ابسط مبادىء التوحيد .

حتى الأسرة الاسلامية لم تنج من الخطر ، فقد كانت مهددة بسلاح الطلاق البدعي ،

فكان مجرد لفظ الرجل بكلمة الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة كفيل بتشريد اطفال الأسرة والتفريق بين الزوجين تفريقاً لا لقاء بعده ! كما كان مجرد الحلف بالطلاق خليق بأن يؤدي الى المصير المشؤوم !

انتشر التصوف اليوناني والهندي بين المسلمين وعمت نظرية وحدة الوجود بين الناس ، وهي نظرية إلحادية هدامة تذيب الاله في نفوس مخلوقاته ، وبلغت الطرق الصوفية اشد درجاتها من الشعوذة والدجل وابتداع الاوراد المبتدعة والرقص في الذكر مقروناً باصوات الطبول المزعجة ، وكان من يحتال لدخول النار واستخدام الافاعي والثعابين على نحو ما يفعله مجوس الهنود .

هذه صورة فاضحة للمسلمين في عهد ابن تيمية رضي الله عنه ، ولا غرابة بعد كل ذلك ان نرى هذا الشيخ العظيم بما عرف عنه من اخلاص وشجاعة يعلن الثورة على هذه الاوضاع ، ثورة منتجة قوية !

أعلن المبدأ الاسلامي الذي يرضي جميع المسلمين المخلصين ويوحد بين صفوفهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم وينقذهم من الضلال والنزاع وهو مبدأ الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه وترك ما يخالفهما من الآراء الفلسفية وسنن اهل الكتاب ، ومن اقوال رجال غير معصومين ، عملاً بقوله تعالى « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وقوله سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » !

اخذ ابن تيمية يؤلف الكتب في الرد على علماء الكلام وعلى الباطنية والمبتدعة والمقلدة باسلوب غاية في القوة والابداع وسمو الحجة والبرهان ، وينشر الرسائل في سبيل توحيد المسلمين في مذهب محمد ﷺ تلبية للنداء الالهي : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » ! وقد اعلن القرآن : « لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » !!

فقامت قيامة الباطنيين ، وثار الخرافيون والجامدون ضده ووشوا به الى السلطات الحاكمة ، فكان ما كان مما جاء تفصيله في هذا الكتاب .

وقسماً لو استجاب المسلمون لدعوة ابن تيمية الاصلاحية ، لكان لهم اليوم شأن عظيم ، ولأمدّهم الله بنصره !

ولكن هذه النتيجة المؤسفة لهذا الرجل العظيم واخفاء مبادئه وحرق كتبه والعودة بالأمة الى احضان التقليد الأعمى دون معرفة بالبديل ، ويحمل وزرها ووزر من عمل بها ،

هؤلاء الأدعياء الضالون المضلون ، الى يوم القيامة !!

وفي اليوم الذي يثوبون الى ربهم ، ويعلمون ما في جمودهم ومحاربتهم للمصلحين والمجتهدين من خطر يهدد المسلمين جميعاً بافدح الأخطار ، ويخدم اعداء الاسلام وحدهم .

اجل في هذا اليوم يرجع للمسلمين مجدهم ويتحقق وعد الله لهم وتفتح لهم ابواب النجاحات والعظمات ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله !

ان المسلمين مدعوون اليوم للتفكير من جديد بدعوة حجة الاسلام ابن تيمية فان هذا العصر لا يقل عن عصر شيخ الاسلام حاجة الى صيحة الحق هذه ، خاصة وان دعوة هذا الشيخ الجليل لم يخبُ نارها منذ سبعة قرون الى يومنا هذا ، فقد حملها من بعده الى الناس تلميذه ابن القيم الجوزية ، ولا تزال حية تنتقل من عصر الى عصر حتى جاء الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ، فنهج خطة ابن تيمية في محاربة البدع والضلالات وحطم القباب وقطع الأشجار التي كان الناس يتباركون بها وينذرون لها ، ومنع الاستعانة بغير الله ، وقد لاقى العنت من الدجاجلة والمبتدعين ، ولكن الدعوة السلفية انتشرت انتشار النار في الهشيم فانتقلت من نجد والحجاز الى مصر وسورية والهند والمغرب على الرغم من اعتراض المعترضين ووشاية الواشين الذين تضاءل نفوذهم ، وخمدت نارهم !!

لقد كان فضل الامام ابن تيمية على العالم الاسلامي عظيماً وقد رأينا فيما سبق في شيء من التفصيل مبلغ جهوده في ميادين الحروب ضد التتار وضد الباطنيين مما كان له اعظم الأثر في تثبيت دعائم الأمة العربية والاسلامية ووحدتها .

كما اوضح للمسلمين معالم الاسلام الصحيح وحارب البدع والتصوف وسعى كما قلنا سابقاً في توحيد المسلمين في مذهب الرسول ﷺ واصحابه من بعده عن طريق حض المسلمين للرجوع الى الكتاب والسنة وهجر المذهبية التعسفية التي كانت من اهم عوامل تمزيق المسلمين الى شيع وفرق يكيد ويكفر بعضهم بعضاً ، وكثيراً ما تقاتلوا[1] نتيجة

---

(١) - جاء في كتاب « ابن تيمية السلفي » للدكتور محمد خليل هراس ص ١٤ وما بعدها :

وزاد الأمر سوءاً ما كان يقع من الفتن والمنازعات بين ارباب المذاهب والمقالات ، وما كان من تميز الدولة لفريق دون آخر .

فالعزيز صاحب مصر وهو ابن صلاح الدين ، كان قد عزم في السنة التي توفي فيها ، وهي سنة ٥٩٥ هجرية ، على اخراج الحنابلة من بلاده ، وان يكتب الى بقية اخوانه باخراجهم من البلاد !! .

وفي هذه السنة نفسها ، وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان ، وسببها ان فخر الدين الرازي ، وهو من كبار الأشاعرة وفد الى « غياث الدين الغوري » ملك غزنة ، فاكرمه وبنى له مدرسة في « هراة » =

الخلافات المذهبية . « فكان يرمي ابن تيمية ـ كما قال الدكتور محمد خليل هراس في كتابه « ابن تيمية السلفي » ـ الى القضاء على تلك العصبية المذهبية التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء حتى حملتهم على مساواة بعضهم بعضاً وتكفير بعضهم بعضاً والتي كانت سبباً في ما ابتلى الله به المسلمين من الضعف والخذلان وتسلط الأعداء جزاء وفاقاً لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله » !!

يقول الامام ابن تيمية في رسالة الفرقان :

« فاذا ترك الناس بعض ما انزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا امرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه ، مما اخبر به وما امر به ، واما ما ابتدعوه فكله ضلالة[1] » !

= وكان اكثر الغورنة كرامية فأبغضوا الرازي واحبوا ابعاده عن الملك ، فجمعوا له جماعة من الفقهاء ، وحضر ابن القدوة ، وكان شيخاً معظماً في الناس ، وكان على مذهب ابن كرام ، فتناظر هو والرازي وخرجا من المناظرة الى السب والشتم ، فلما كان الغد اجتمع الناس في المسجد (الجامع) وقام واعظ فتكلم وقال في خطبته :

« أيها الناس ، انا لا نقول الا ما صح عند رسول الله ، واما علم أرسطا طاليس ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابي ، وما تلبس به الرازي ، فانا لا نعلمها ولا نقول بها ، وانما هو كتاب الله وسنة رسوله .

« ولأي شيء يشتم بالامس شيخ من شيوخ المسلمين يذب عن دين الله وسنة رسوله على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل » .

فبكى الناس وضجوا وبكت الكرامية واستغاثوا ، واعانهم على ذلك قوم من خواص الناس ، وانهوا الى الملك صورة ما وقع ، فامر باخراج الرازي من بلاده .

وفي هذه السنة ايضاً وقعت فتنة بدمشق بسبب عبد الغني المقدسي ، وذلك انه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي ، فذكر يوماً شيئاً من العقائد المتعلقة بمسألة الاستواء على العرش والنزول الى سماء الدنيا والحرف والصوت ونحو ذلك ، فعقد له الأمير حسام الدين « برغش » مجلساً وجمع الفقهاء لمناظرته ، فالزموه بالزامات شنيعة لم يلتزمها ، واستمر على ما يقول لم يرجع عنه . فقال له « برغش » : كل هؤلاء على الضلالة وانت وحدك على الحق ؟ قال : نعم ! فغضب الأمير وامر بنفيه من البلد ، وارسل الاسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة . وتعطلت يومئذٍ صلاة الظهر في محراب الحنابلة .

فهذه الحكايات وامثالها ترينا مقدار ما بلغه التعصب المذهبي من نفوس المسلمين في ذلك العصر ، وهو امر لا يشتد ويبلغ اقصى مداه الا في حالات الضعف والجمود العلمي .

(١) ـ مجموعة الرسالة الكبرى ص ١٧٧ رسالة الفرقان .

ومما يؤسف ان اكثر علماء المسلمين لم يشعروا بضرورة العودة الى الكتاب والسنة وترك ما دونها والشعور بان ما اصابهم من محن هو نتيجة هذا البعد والافتراق . وقد جاء جولدزيهر يشاركنا هذا الرأي فقال نقلاً عن =

ومن الحق ان نقول في هذه المكاتبة ان هذه المذهبية التعصبية هي التي كانت سبباً في ابتعاد الحكام والمسؤولين في العالم الاسلامي عن الشريعة فيا لها من جناية لا توصف لشناعتها وسوء أثرها ! قال الاستاذ مصطفى الزرقا رئيس قسم القانون المدني بجامعة دمشق[1] :

وكانت النتيجة ان اصبح الحكام الزمنيون في العالم الاسلامي منذ اواخر العهد العثماني يرون ان الشريعة وفقهها لا يستطيعان امداد البلاد بالتقنينات اللازمة لتنظيم الحاجات العصرية الآخذة بالتطور والتجدد السريع فالتجأوا الى اخذ القوانين الأجنبية التي ادت اخيراً الى دفن الفقه الاسلامي في مكتباته علماً وعملاً .

ويظهر ان طلائع هذه النتيجة كانت بادية منذ عصر ابن القيم ، فان له في هذا الموضوع نفسه كلاماً نفيساً مخلداً سجله في كتابه « الطرق الحكمية » وفي « اعلام الموقعين » ايضاً ، نص فيه واستنكر على اتباع المذاهب جمودهم وتضييقهم لمنابع الشريعة وآفاقها حتى اضطروا الحاكمين من ملوك وامراء الى اصدار قوانين زمنية تسد الحاجة لعدم كفاية الاحكام الفقهية بينما الضيق ليس في الشريعة السمحة بل في عقول اتباع المذاهب .

يتراءى بعد هذا للناظر المتأمل ان اغلاق باب الاجتهاد كان كارثة عظمى نزلت بالشريعة الاسلامية وفقهها الجليل .

والواقع ان الاجتهاد لا يملك احد اغلاقه ما دامت خصائص الاسلام تستلزمه حتماً حتى ان المتأخرين اللامعين من اتباع المذاهب الأربعة يصرحون في كتبهم بانه اذا وجد من بلغ رتبة الاجتهاد في علمه وتوافرت شرائطه ومؤهلاته فيه لا يجوز له ان يقلد مذهباً من المذاهب . ولكنهم عملياً لا يسلمون لأحد ببلوغ هذه الرتبة فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم بل هو مفقود المفتاح !! .

ويقول العلامة عز الدين بن عبد السلام ، وهو من اكابر فقهاء الشافعية في القرن السابع الهجري .

« اختلفوا هل انسد باب الاجتهاد ؟ على اقوال :

= الاستاذ مصطفى عبد الرزاق :

« كانت الدولة الاسلامية في هم مما اصابها من اثر الخراب المغولي ، فاصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب الى اصلاح الاسلام مما دخل فيه بالعودة الى السنة التي كان الخروج منها مدعاة لغضب الله » !! .

(١) ـ مجلة حضارة الاسلام جـ ١ و ٢ العام الأول .

« . . . وكلها اقوال فاسدة فإنه ان وقعت حادثة غير منصوصة ، او فيها خلاف بين السلف فلا بد فيها من الأجتهاد من كتاب او سنة . وما يقول سوى هذا الا صاحب هذيان[1] !! .

وانني أعتقد ان الامام ابن تيمية هو المعلم الثاني الذي جاء يجدد تراث المعلم الأول الرسول ﷺ ويعيد المسلمين الى منابع دينهم الأولى وينقذهم من خطر الضلال الذي كانوا فيه عقائدياً وفقهياً .

يقول الأستاذ مصطفى عبد الرزاق في كتابه « التمهيد » :

« اننا لا نستطيع ان نقدر هذا المذهب (مذهب السلف) ، وما قدمه الى المجتمع الاسلامي من خير الا اذا صورنا لأنفسنا ما كان يعانيه المسلمون في ذلك العصر الذي ظهر فيه ابن تيمية من فوضى بالغة في العقيدة .

فقد كثرت فيه الفرق والمقالات كثرة لا حد لها وكانت هذه الفرق تتناحر وتتقاتل فيما بينها . وكل فرقة منها تدعي انها على الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتتلاعب بالنصوص فتؤولها بما يتفق مع مذهبها وان خالف ذلك أبسط قواعد اللغة وأوضاعها واسلوب اهلها في التخاطب !! .

وكان الناس لا يرجعون في شيء من امر العقيدة ، لا الى كتاب ولا سنة ، بل كانوا يأخذون عقائدهم من كتب هؤلاء المتكلمين المتنازعين ، وهي كتب جافة محشوة بالجدليات والمناقضات ومسائل الخلافات ، ليس فيها ما يروي غليلاً ، ولا يشفي عليلاً ، ولا يكسب القلب ايماناً وطمأنينة !

فضعف بذلك سلطان العقيدة ، وزالت قدسيتها من النفوس ، واصبحت مجالاً للأخذ والرد واجترأ الناس على الكلام في الله وصفاته بما لم يأذن به ، فخبا نور الايمان ، وانطفأ سراج اليقين ، وضعف الوازع الديني في نفوس المسلمين . واستغل اصحاب المخاريق الصوفية هذه الحالة ، وما الناس فيه من اضطراب وحيرة . فأخذوا يدعونهم الى سلوك طرقهم ، ويزعمون لهم ان فيها الهدى والشفاء ، وما كان التصوف في هذا العصر الا سر الداء واصل البلاء ، فزادوهم مرضاً على مرض !!

وهكذا صار الاسلام غير الاسلام والمسلمين غير المسلمين .

---

(١) ـ انظر رسالة « الاجتهاد والتقليد » للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ١٦ واين هذا مما أعلنه به محمد ابو زهرة في جامع التوبة بدمشق بأن اغلاق باب الاجتهاد كان نعمة من نعم الله على الإسلام ؟! كما اعلن ايضاً انه قد تراجع عن رأيه فيما اعلنه في بعض كتبه من لزوم فتح باب هذا الاجتهاد .

جاء ابن تيمية فهاله الأمر ، وما وصلت اليه حال المسلمين من سوء فوقف حياته كلها على معالجة هذه الحالة بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

فأعلن حرباً لا هوادة فيها على هذه الطوائف كلها ، واخذ يظهر زيفها وبطلانها وبعدها عن منهج الكتاب والسنة ، ويدعوها الى طريقة السلف الأول من الصحابة والتابعين ، معتقداً انه لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها .

ويدعوها كذلك الى البعد عن اساليب الجدل الممقوتة ، والتلاعب بالألفاظ في جانب معرفة الله تعالى وصفاته ، وترك هذه الحزبية المذهبية التي فرقت بين المسلمين وجعلتهم شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون !!! .

كان ابن تيمية يرمي من وراء دعوته الناس للرجوع الى الكتاب والسنة الى تطهير العقيدة الإسلامية مما داخلها من الزيغ والانحراف ، وتخليصها مما لحق بها من اوضار الفلسفة الدخيلة ، والوان الجدل العقيمة ، التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وكان يرمي كذلك ، الى القضاء على تلك العصبية المذهبية ، التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء ، حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضاً ، وتكفير بعضهم بعضاً . والتي كانت سبباً في ما ابتلى الله به المسلمين ، من الضعف والخذلان وتسلط الأعداء جزاء وفاقاً ، لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله ! ا. هـ .

هذا وصف موجز لأعمال ابن تيمية . وقد جاءت كما يجيء الغيث للأرض العطشى ، وأرى ان الله سبحانه لو لم يبعث ابن تيمية ـ المعلم الثاني ـ لكان الاسلام في خطر ! فقد انقذ قافلة المسلمين الضالة والحائرة الى الصراط المستقيم !

وقد كان إصلاح ابن تيمية فتحاً جديداً في عالم المصلحين ، فهو لم يقتصر على احياء الاسلام الصحيح الذي كان مدفوناً في الكتب ، بل راح يدرس الفلسفة والمنطق ليرد على العقليين والمعارضين رداً نزيهاً علمياً خلواً من المهاترات والجدل بالباطل ، باسلوبهم نفسه ، مثبتاً مصادقة صريح العقل لصحيح النقل وعدم تعارضهما إلا لدى العقول السقيمة والنفوس المريضة ، وهكذا رد للنصوص اعتبارها ، بعدما كادت تفقد حقيقتها من كثرة تأويلها لتوافق آراء فلاسفة اليونان والفرس الذين لا يستقرون على حال ، من القلق . وقد اثبت ابن تيمية بجهده العظيم حماقتهم وضلالهم .

قد يقول قائل : لقد سبق الغزالي ابن تيمية في هذا الصدد حين تصدى للفلاسفة

والمناطقة فأجيب :صحيح ذلك ، ولكن الغزالي دخل الفلسفة ـ كما قال ابو بكر الرازي ـ ولكن لم يستطع ان يخرج منها فارتمى في احضان التصوف معتقداً انه الطريق الوحيد الموصل الى الله . كما جاء في كتابه « المنقذ من الضلال » بعكس الحال عند الامام ابن تيمية الذي درس المذاهب الفلسفية وخرج بعدها مثبتاً ضلالها ! .

واني ارى القوانين الالهية كالقوانين الطبيعية التي اوجدها الخالق العظيم ، فكما انه يجب الخضوع لهذه القوانين للافادة من الطبيعة فكذلك يجب الخضوع للقوانين الالهية الاسلامية التي تتمثل في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لتحقيق السعادة والعدالة في الحياة ! .

وكما ان مخالفة القوانين الطبيعية الالهية يحرم الناس الافادة منها ، فكذلك القوانين الالهية التشريعية . وهذا ما اصيب به المسلمون لما تركوا اسلامهم وحاولوا العبث به بالتأويل وغيره ليرضوا به عقولهم المريضة فحرموا نصر الله سبحانه الذي جعله حقاً عليه للمؤمنين !! والى هذا المعنى يشير الامام ابن تيمية بقوله في رسالة الفرقان :

« فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول ﷺ سلطت عليهم الأعداء ، فخرجت الى الشام والجزيرة مرة بعد مرة واخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء الى ان اخذوا بيت المقدس في اواخر المئة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان اهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والمنافقين والملاحدة[1] .

وعلاوة على خسارة نصر الله سبحانه بسبب تحريف وتأويل النصوص ، فانها تؤدي الى خطر توزيع المسلمين وتمزيق شملهم وتفريق كلمتهم ، ووقوعهم في الفوضى وتعريضهم للغزو الخارجي نتيجة هذا الاختلاف والتفرق !

فتوحيد المسلمين في مذهب واحد ، هو مذهب محمد ﷺ وصحبه ، وفي فرقة واحدة ، (الفرقة الناجية) هي خير سبيل لجمع صفوفهم سياسياً واجتماعياً ونجاتهم في الحياة الأخرى . قال النبي ﷺ :« ستفترق امتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي ما كان على مثل ما انا عليه واصحابي ! » .

ان انقسام المسلمين الى سنة وشيعة أدى بهم جميعاً الى نكبات كثيرة كانت سبباً لغزو التتار منذ هولاكو الى تيمورلنك وقازان مما أضعف الأمة الاسلامية وعرضها للاستعمار

---

(١) ـ مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٣٨ .

الغربي في العصور الحديثة !

وقد شعر الامام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ بخطر الاختلاف وما ادى اليه من فوضى وفساد وانحراف ، فرأى بثاقب رأيه ضرورة توحيد المسلمين في اطار الثقافة الاسلامية الموحدة البناءة الايجابية التي تجمع شملهم وتبعد عنهم عوامل الفرقة والاختلاف ، وتجعلهم صفاً واحداً وكتلة قوية على ان يكون اساس هذه الثقافة ومنارها كتاب الله وسنّة نبيه وهما المصدران اللذان يتفق عليهما جميع الفرق والمذاهب الاسلامية ، ولن يتم بينها تفاهم وتعاون الا عن طريقهما ، فعلى الساسة والمسؤولين ان يدركوا هذه الحقيقة فهي السبيل القويم والوحيد للوحدة الصحيحة .

● ● ●

وقبل الانتهاء من هذه الصرخة أهيب بالجامعة الأزهرية في القاهرة ، وبكلية الشريعة بدمشق ، ووزارات الثقافة والارشاد القومي ، ووزارات التربية والتعليم في البلدان العربية والاسلامية ، أدعو هؤلاء جميعاً الى احياء تراث شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رضي الله تعالى عنه ـ والاقبال على دراستها وعرضها على الناس عرضاً جميلاً وتبسيطها للرأي العام بطبعات شعبية بديعة .

كما أهيب بهذه المؤسسات العلمية ان تتذرع بالجرأة فلا تحجم خشية الحاقدين والأدعياء والمبتدعين اعداء كل اصلاح من دراسة تراث هذا المصلح والمجدد العظيم الذي لم يعرف له مثيل في تاريخ النهضة الاسلامية الحديثة ، فهو لا شك باعثها ومحييها .

مذهب ابن تيمية واثره في الجماعة الاسلامية

لعلنا نستطيع الآن بعد ما تقدم من دراسة منهج ابن تيمية وطريقته في بحث المسائل الاعتقادية وما كان من اثر هذا المنهج وتلك الطريقة في معالجته لأمهات المشاكل الكلامية . مثل إثبات وجود الله تعالى وتوحيده وصفاته وصدور العالم عنه وبيان حكمته في خلقه وعموم مشيئته وقدره الى غير ذلك من المسائل التي عالجها في جرأة وقوة منطق ، ان نقول ان ابن تيمية قد اضاف الى علم الكلام الاسلامي مادة جديدة وكون لنفسه مذهباً خاصاً له طابعه ومميزاته .

قد يقول قائل ان مذهب ابن تيمية لم يخرج عن كونه تحديداً لعقيدة السلف وأئمة

الحديث كأحمد بن حنبل وغيره من الذين كانوا يقفون عند نصوص الكتاب والسنة كما يتبين ذلك من مطالعة الكتب التي ألفت في بيان هذه العقيدة السلفية مثل كتاب الامام احمد في الرد على الجهمية والمعتزلة وكتاب التوحيد لمحمد بن إسحاق بن خزيمة وغيرهما .

ولهذا كان ابن تيمية يسمي نفسه هو واصحابه بالسلفية او اهل السنة والجماعة ويعترف بانه متبع لا مبتدع .وان طريقته هي طريقة السلف من الصحابة والتابعين وائمة المسلمين وهذا قول فيه كثير من الحق . ولكن مما لا شك فيه ان ابن تيمية قد عالج مسائل كثيرة لم يعالجها هؤلاء ولم يخوضوا فيها كما انه استطاع ان يدافع عن هذا المذهب السلفي بحرارة وقوة لم يُسبق اليها مستخدماً في ذلك القياس الأرسطي الى جانب النصوص والآثار . وان يقف من خصوم هذا المذهب موقف المعارض القوي الذي يحتكم الى العقل والنقل معاً بعد ان كان اصحاب هذا المذهب لا يجرؤون على تبرير عقيدتهم عقلياً بل كان شأنهم التسليم والتفويض . واذا كانت مذاهب العقليين من الفلاسفة والمعتزلة قد فشلت في حل المشاكل الاعتقادية بتطرفها في ناحية العقل واستخفافها بالنصوص ، كانت الاشعرية مع محاولتها التوسط قد جارت هؤلاء العقليين في القول بضرورة التأويل لكثير من النصوص التي تظهر مصادمتها للعقل : فإن ابن تيمية وقد نجح في رد اعتبار النصوص اليها : وجعلها هي المرجع الأول والأخير في جميع مسائل الدين . وإذا كان المذهب الأشعري قد نجح في بسط سلطانه على معظم اقطار العالم الاسلامي بفضل من انتسب اليه وناصره من الأمراء الأقوياء أمثال صلاح الدين الأيوبي ومحمد بن تومرت وغيرهما وبفضل من تزعمه ودعا اليه من العلماء أمثال امام الحرمين والغزالي والرازي وغيرهم ، فإن مذهب ابن تيمية قد اصبح يزاحمه اليوم كل المزاحمة وينازعه هذا النفوذ والسلطان ، يقول الأستاذ مصطفى عبد الرزاق في كتابه التمهيد : « اما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية وإنا لنشهد تسابقاً في نشر كتب الأشعرية وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ويسمى انصار هذا المذهب الأخير أنفسهم بالسلفية ولعل الغلبة في بلاد الاسلام لا تزال الى اليوم لمذهب الأشاعرة »[1] .

يقول ابن تيمية في رسالة الفرقان فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل تقطعوا امرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكو به من شرعه مما اخبر به وأمر به واما ما ابتدعوه فكله ضلالة هذه هي دعوة ابن تيمية اصلاح واحياء وتجديد فهو بحق ابو النهضة الاسلامية الحديثة وواضع اساسها وجميع

(١) ـ وهذا نتيجة الجهل والبعد عن الكتاب والسنة !! (م.م) .

دعاة الاصلاح من بعده اما بهديه : اقتدوا او على كتبه تخرجوا . يقول صاحب كتاب « الاسلام والتجديد في مصر » : اما العامل الثاني المقوم لهذه الحركة « حركة جمال الدين الأفغاني والامام محمد عبده » فهو ابن تيمية المتوفى سنة ١٣٢٨ م وابن قيم الجوزية المتوفى في سنة ١٣٥٣ م فقد شنًا غارة شعواء على ما كان في عصرهم من بدع وفساد وقررا ان لهم الحق في الاجتهاد ورجعا في كل حكم من الأحكام الى اصوله واعتمدا على المصادر الأولى واشتد هجومهما على الصوفية وقالا بتحريم شد الرحال لزيارة قبور الانبياء والأولياء وبحثا بتعاليم احمد بن حنبل وهو اكثر الأئمة الأربعة تمسكاً بالنصوص وقد نشر مذهبهما فيما بعد الوهابيون وهم جماعة المصلحين المجددين الذين رجحت كفتهم السياسية في بلاد العرب في اوائل القرن التاسع عشر وأعاد اليهم السلطان مرة اخرى نجاح ابن سعود في العصر الحاضر .

زجاء : وإذا كان لنا ما نرجوه من القائمين على سير الأمور في الأزهر ومن الذين يهمهم ان تظل لهذا المعهد التليد مكانته العلمية والدينية فهو يساير وألا يغفلوا دراسة هذه الحلقة من الثقافة الاسلامية .

وهي حلقة كما قلنا تمتاز بالنقد والأحياء والتجديد ولا يستغنى عنها في دراسة الثقافة العقلية الاسلامية وفهمها فهماً صحيحاً وما لنا نتحرج عن دراسة ابن تيمية وابن القيم وانصارهما لقولهما بما يخالف آراءنا بالعقيدة . والقرآن بين ايدينا يحكي اقوال الكفار في الألوهية؛ والرسالة والميعاد في غير حرج ولا إشفاق على أهله منها وإذا ساغ لنا ان ندرس المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها مع ما فيها من كفريات وضلالات : فكيف لا يسوغ لنا ان ندرس مذهباً اسلامياً يستند اكثر ما يستند الى كتاب الله وسنة رسوله واقوال الصحابة والتابعين والى متى نظل واقفين عند دراسة هذه الكتب الموضوعة التي ألفت على نمط يؤدي بالعقول الى الضيق والحرج ويورثها العقم والبلادة ولماذا لا نخرج عن دراستنا الى آفاق اوسع وبحوث اشمل حتى لا يقول عنا الناس ان القائمين على امر الثقافة الاسلامية لم يحسنوا دراسة الثقافة الاسلامية .

وان الأزهر الذي عرف كيف يخطو هذه الخطوات الفسيحة ويسير الى الامام شوطاً بعيداً فيدخل في مناهجه العلوم الحديثة عن الطبيعة والكيمياء ونحوهما لا يعز عليه ان يخطو الآن هذه الخطوة الأخيرة فيدرس كل ما تركه رجال الفكر الاسلامي حتى يأخذ بما يراه موافقاً للكتاب والسنة من اقوال هؤلاء وهؤلاء ثم يأخذ به الأمة التي وضعت فيه ثقتها وعلقت عليه آمالها تلك هي وظيفة الأزهر ان يدرس وينقد اذا أراد ان يبقى له قصب السبق والا يفلت من يده الزمام والله سبحانه نسأل ان يوفق اهله لما فيه خيره وصلاحه

وخير المسلمين وصلاحهم انه سميع مجيب[1] .

ثقافة ابن تيمية ومنهجه في البحث

أجمع المؤرخون على ان ابن تيمية كان واسع الاطلاع على العلوم الشرعية والعقلية ، على حد سواء ويقول الذهبي عنه « كان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه اكثر من مائتي شيخ ، ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه ، فليس له فيه نظير ، واما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا اعلم له فيه نظيراً ، واما معرفته بالسير والتاريخ فعجب عجيب . واما شجاعته وجهاده واقدامه فامر يتجاوز الوصف فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه وان عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، وسرد وأبلسوا ، واستغنى وأفلسوا ، وان سمي المتكلمون فهو مردهم واليه مرجعهم ، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فيلهم وتيسهم[2] وهتك اسرارهم وكشف عوراتهم »[3] .

ولعل من العبارات التي تعبر بوضوح عن ثقافة ابن تيمية ومدى معرفته بالحديث قول الذهبي عنه : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث »[4] وهذا يدل على اطلاعه الواسع في السنة وإلمامه بكافة كتب الحديث .

وبين أيدينا اليوم كتاب « الرد على المنطقيين » لابن تيمية[5] وهو كتاب فريد من نوعه وهو يدل دلالة قاطعة على ثقافة ابن تيمية المنطقية العميقة .

والذي يميز ثقافة ابن تيمية انها ثقافة اسلامية عميقة بالدرجة الأولى ، انه يتبع فيها منهج اهل السنة والجماعة اتباعاً دقيقاً .

وهنا نلاحظ الفرق بينه وبين الغزالي ، فهو يأخذ من كل معين يجد فيه نصرة لمذهب

---

(١) ـ عن كتاب « ابن تيمية السلفي » للأستاذ محمد خليل الهراس رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه .بقليل من التصرف .

(٢) ـ في الأصل فلسفهم وبخسهم .

(٣) ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٥٤ ، ط . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ . وانظر العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام . ابن تيمية لابن عبد الهادي ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، ط. حجازي ، القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٨ .

(٤) ـ العقود الدرية ، ص ٢٥ . وفي هذا الكلام بعض المبالغة . (م.م) .

(٥) ـ طبع المكتبة القيمة ، بومباي ، الهند ، ١٣٦٨/١٩٤٩ .

اهل السنة ولما يؤمن بأنه الحق ، ويطرح منه ما يخالف ذلك وهو يعترف لكل فئة او لكل عالم بما فيه من خير كما يبين ما هو عليه من باطل وهو في كلامه على الغزالي رغم هجومه عليه - يشيد بكتابه « فضائح الباطنية »[1] ومع انه يقرر أن الغزالي كان متناقضاً الا انه يسجل له - كما سبق أن ذكرنا - انه أقلع في آخر حياته عن الاشتغال بالعلوم الفلسفية والكلامية وانصرف الى الاشتغال بعلم الحديث : « وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومات وهو مشتغل بذلك »[2] .

وعلى عكس من سلبية[3] الغزالي ازاء هجمات الصليبيين على المسلمين في عصره ، فان ابن تيمية تصدى للتتار بكل ما يملك من قوة علمية ونفسية بل وبدنية ، فقد وقف في دمشق مع نائب السلطان الافرم يحرض المسلمين على الثبات ضد التتار في حين فر من المدينة اكثر العلماء وكبار رجال الدولة ، كما أغلظ لسلطان التتار غازان لسوء معاملته للمسلمين مع ما في ذلك من خطر على حياته ، ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا الى مصر وحرض السلطان الناصر ورجاله على حرب التتار بعبارات شديدة ، ثم اشترك بنفسه في معركة « مرج الصفر » وانطلق بين الجنود يحرضهم ويؤكد لهم استحقاقهم لنصر الله ما داموا قد اخلصوا في طاعة الله ، ثم انطلق يقاتل معهم قتالاً شديداً ضد التتار[4] حتى تم النصر للمسلمين .

---

(١) - الرد على المنطقيين ، ص ١٤٢ . ٢٨٠ .

(٢) - ما الفائدة من اشتغاله بالسنة بدلاً من الفلسفة في آخر ايامه ، دون ان يعلن للملأ رجوعه عن آرائه الفلسفية والصوفية التي كانت من بعض اسباب البعد عن الاسلام الصحيح !! وحضه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، كما فعل الأشعري مثلاً ، فانه لما تاب عن مذهب الأشاعرة صعد منبر المسجد وقال ما معناه : أيها الناس ! من عرفني ، فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الأشعري لقد تبين لي زيف ما كنت اعتنقه وقد تبت منه ورجعت الى عقيدة السلف وسأحارب المعتقدات الباطلة التي تخالفها .

(٣) - لقد كان الغزالي خلال الحروب الصليبية يعيش في خلوته الصوفية في منارة دمشق ثم في قبة الصخرة في القدس ، بينما كان ألوف المسلمين يقتلون ، فلم يشترك في هذه الحرب كما يفرضه عليه الله تعالى ، وكما فعل الامام ابن تيمية في محاربة التتار ، بل لم يكتب حرفاً عن هذه الحرب وعن الجهاد في جميع كتبه وخاصة « الأحياء » التي ألفها خلال الحروب الصليبية ، بخلاف حتى بطرس الراهب الذي كان يطوف اوروبا ويحرض أهلها على قتال المسلمين . !

قال الدكتور عمر فروخ : « وقد وقف جميع الصوفية (كالغزالي) موقفاً هادئاً من الحروب الصليبية التي كانوا يعتقدون انها كانت عقاباً للمسلمين على معاصيهم .

وكان ذلك نتيجة سلوك طريق التصوف » مقال رجوع الغزالي الى اليقين ص ٣٠٠ - ٣٠١ مهرجان الغزالي بدمشق .

(٤) - نقلت هذا البحث القيم عن رسالة : « مقارنة بين الغزالي وابن تيمية باختصار للأستاذ محمد رشاد سالم ، وكان سبقه ببحث عن « ثقافة الغزالي » وشتان بين الثقافتين ، وقد رأينا فيما تقدم ثقافة الغزالي :

■ التي أسسها على التصوف كما قال عنه الامام ابن الجوزي في كتابه القيم : « تلبيس ابليس » وغيره وترك فيه قانون الفقه ، يريد الشرع ،كما أسسها أيضاً على الفلسفة وعلم الكلام اليونانيين ، وقد فشل فيهما بشهادة تلميذه القاضي ابو بكر بن العربي الذي قال بحسب ما رواه الذهبي : « شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة وأراد ان يتقيأهم فما استطاع (سيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان) : (ص ٧٠) .

أما معرفة الغزالي في الحديث فضعيفة جداً بشهادته نفسه في رسالة التأويل : « بضاعتي في علم الحديث مزجاة » (ص ١٦) وسجل عليه ذلك كثير من العلماء مثل أبي بكر الطرطوشي فقال عنه : « شحن أبو حامد « الاحياء » بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض اكثر كذباً منه » مسيرة الغزالي (ص ٧٥) طبعة دار الفكر بدمشق .

فما أجرأه على الحق وأجهله بالعلم من لقبه « بحجة الاسلام » .

وليست طامات الغزالي في الاحياء نفسه في وجود الأحاديث الضعيفة والموضوعة فحسب ، بل بالخروج عن الشريعة في التوحيد نفسه ، ولا بد من الاعتراف بعلمه في معالجة بعض امراض النفس البشرية .

لهذا كله سارعت الى تلخيص هذا الكتاب في جزأين ، حذفت منه الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ونقيته من الخرافات والصوفيات المنحرفة ، فجاء كتاباً لا يستغني عنه مسلم .

وقد سبقني الى ذلك الامام ابن الجوزي في كتابه : (منهاج القاصدين) والامام المقدسي في كتابه (مختصر منهاج القاصدين) والشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه (موعظة المؤمنين) رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم ، ولكن بقي في هذه الملخصات كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وبعض الواهيات بخلاف ملخصي ، فلله الحمد والمنة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥
كرسي الامام ابن تيمية	١٢
موضوع الكتاب	١٥
نشأته وطلبه للعلم	١٦
ثناء العلماء عليه	١٧
ملخص مناظرة الشيخ للعلماء	١٩
العقيدة الواسطية	٢٢
رسالة من الامام الى اصحابه وتلاميذه	٢٧
إخراجه من سجن الاسكندرية	٣٠
خروج الشيخ الى الشام مع الجيش المصري	٣٢
من محراب العلم الى ميدان القتال	٣٢
شجاعة الشيخ وبأسه	٣٩
مقارنة بين النبوة عند الغزالي والنبوة عند ابن تيمية	٤٠ ـ ٤٥
مذهب ابن تيمية في الصفات	٤٥
شيخ الاسلام والصوفية	٤٧
منهج ابن تيمية في معرفة العقيدة	٥٥
فقه الامام ابن تيمية	٦٢
رسالة « خلاف الأئمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة »	٧٠
رفع الملام عن الأئمة الأعلام	٧٤
قامع البدع والأوهام	٧٦
كتاب : « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح »	٨٠

الحكمة والتعليل والقدر ٩٣
الغزالي وابن تيمية ١٠٠
النصير الطوسي وابن العلقمي وابن تيمية ١١٠
حديثه عن سبب موت الحسن وشهادة الحسين ١١٧
القضاء والقدر ١٢٠
من مظاهر الشرك ١٢٦
النهي عن اتخاذ القبور مساجد ١٢٧
زيارة القبور المشروعة والبدعية ١٢٨
من هم اولياء الله ١٣٠
الاستغاثة بغير الله ١٣٢
الأدعية البدعية ١٣٦
من حيل شياطين الجن ١٣٩
ابن تيمية والحيل الشرعية ١٤٣
فتاوى شيخ الاسلام ١٤٨
من قصيدة « المطلقة » ١٥١
سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق ١٥٤
الكلام على شد الرحال الى القبور ١٥٤
أمر السلطان بحبس الشيخ بقلعة دمشق ١٥٥
ملخص صورة الفتيا ١٥٦
خلاصة الجواب ١٥٦
صدى سجنه في العالم الاسلامي ١٦٦
حال الامام في السجن ١٦٧
ابتهالات ١٧١
وفاة شيخ الاسلام رحمه الله بالقلعة ١٧٢
الاحتفال الكبير بالصلاة على شيخ الاسلام ١٧٣
هكذا انتهت حياة العظيم ١٧٤
مذهب ابن تيمية وأثره في الجماعة الاسلامية ١٨٣
ثقافة ابن تيمية ومنهجه في البحث ١٨٦
الفهرس ١٨٩